

عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة
الإنسان بين العلم والبيئة
البيئة والجريمة
بيئة الصّريين البقاء والفناء

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت ✻ يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص ١٩٣

المحتويات

الانسان والبيئة

٢ بقلم التحرير	التمهيد
١٣ الدكتور احمد ابو زيد	ازمة البيئة
٢٥ الدكتور محمود احمد الشرييني	الانسان بين العلم والبيئة
٧٣ الدكتور حسن صادق المرصفاوى	البيئة والجريمة
١٢٧ الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى	بيئة العصر : بين البقاء والفتاء

★ ★ ★

آفاق المعرفة

١٦٩ الدكتور منصور احمد منصور	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق
١٨٩ الدكتور عبد الوهاب حومد	عقوبة الامداد بين الابقاء والالفاء

★ ★ ★

أدباء وفنانون

٢١١ الدكتور مناف منصور	ميخائيل نعيمة .. ناقداً أدبياً
-----	--------------------------	--------------------------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢٤٧ بقلم الدكتور اسعد عبد الرحمن	قوة الغدائين العرب ١٩٦٧ - ١٩٧٢
 للدكتور نبون الكساندر	النمو الانسانى في عصر التحضر
٢٥٧ مراجعة الدكتور اسحق يثوبن الفلذبا	

الدراسات التي نشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

الانسان والبيئة

تقديم

شهدت السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة في اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ، والتغيرات التي تطرأ عليها واساليب التعامل معها والاضرار التي تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان في استغلال مواردها الطبيعية ، والى اى حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح ان هذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى ما يمكن ان تقدمه الطبيعة للانسان من ثروات ، او الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وفضل الاساليب لاستغلالها ، وانما كان ، بالاضافة الى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئة الطبيعية من اضرار واذى قد يصعب علاجها او تلافيتها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمام في ثلاثة أمور : -

الامر الاول : هو كثرة الكتابات التي تهدف الى تنبيه الازدهان الى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعية وطريقة المحافظة عليها ، والابقاء على ما يعرف باسم التوازن الايكولوجي (اى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتي قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم ، والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ما قد يكون في هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق ان يلقي الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الأمر الثاني : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، وأثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة . وكان من أهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر أخطار البيئة الذي عقد في استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة بإجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، قلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية واهتمام . وسوف يجد القارئ في هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .

الأمر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية باتشاء وزارات واقسام وإدارات واجهزة حكومية لشئون البيئة ، يكون من اهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا في أكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من أهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء أهم مكانتهم وأهميتهم في الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والاسكان . ومن أهم ما يظطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين أعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفير حياة أفضل للأهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد أنشأت وزارات لشئون البيئة تعنى في المحل الأول بأمور المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين في شئون البيئة ، يضمون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصيح والمشورة في كل ما يتعلق بأمور البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الإيكولوجى الدقيق .

وبواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها في التالي:

١ - الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه ان مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة في عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة في اشباع هذه الاحتياجات .

٢ - على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بإمكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية أمام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر في النقطة التالية .

٣ - النظر الى المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق في المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع اساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على أسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ، ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي في الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر في تلوثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث في آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ما هي وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعاً لمدى تقدم المجتمع أو تأخره وأنماط الحياة السائدة في هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوتة وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل أو بآخر ، وان كانت هذه التغيرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة أكثر وضوحا في الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ في المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة له ولتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على أن يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . ويقول آخر كان الانسان في هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ما تقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها في طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللأمراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا أو تفسيراً، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الأقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يرد هذه الكوارث والأمراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه وأكثر قدرة وعنفاً ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية أخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له في المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذي تسير عليه الطبيعة والقوى التي تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل ما يصدر عنها ، بل انه كان يعمل على أن يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . ويذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثروبولوجيا ، في القرن التاسع عشر الى أن هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذي أدى في آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل ما فيه من خوارق وغيبيات . فالدين في نظر هؤلاء العلماء يقوم أساسا على فكرة التسليم بوجود قوى - أيا ما تكون طبيعتها - يعترف الانسان بضعفه أمامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم في مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو في هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان في أي مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكاته وقواه الطبيعية كان يقف موقفا أشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وإبرازه ، وان كان هذا الموقف الايجابي أقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية في الماضي . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى في أبسط أشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذي لا يخلو من تدمير الطبيعة أو بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك في اثناء معركة الحياة التي كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره

ظهر هذا مثلا في مرحلة قنص الحيوان التي تعتبر من المراحل المبكرة في تطور المجتمع الانساني .. فقد كان الانسان المبكر - على ما يبدو يبالغ ويفالئ مفالة شديدة في مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمتها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر تغيرا هاما في البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الايجابي من ناحية ثانية في اكتشاف الانسان للنار ،

واستخدامها على نطاق واسع في حرق الخشب والحطب بل وأحيانا في اشعال غابات بأكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلوث للبيئة ، وان كان هذا التلوث ضئيلا في تلك الازمنة نظرا لضاآلة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي الا نفغل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير في الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، او تشتعل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسه في الغابات ومناطق المراعى والاحراش. وكل هذا معناه ان تأثير الانسان في البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل أشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات في الكم وليس في النوع . وهذا لا ينفي طبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان احرز المجتمع الانساني تقدما ملحوظا في التقدم الصناعي والتكنولوجي وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك في أن ارتقاء المجتمع الانساني وتقدمه يرتبطان - في احد جوانبهما على الاقل - بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوناتها لصالح الانسان، وكذلك القدرة على التحكم في هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . وبقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن أن يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وايضا في قدرته على اخضاعها لرغباته والتحكم في مكوناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجي الرائع الذي احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشري ، والذي وصل الى ذروته في القرن الحالى ، قد ساعد على تصور الطبيعة على أنها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشري التي كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله أن بدأت النظرة الى الطبيعة والى البيئة تختلف ، كما بدأت اتجاهات الانسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرأ عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، أعنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد أن كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه في آخر الامر أنه من الخطأ أن ننظر الى مشكلة البيئة على أنها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نفغل ابعادها الاجتماعية والانسانية، وذلك لان الانسان هو بالضرورة احد العوامل أو العناصر الاساسية في البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضوع التأثير بها والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، او الإبادة واحداث الضرر ، كما أن حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشر في آخر الامر بما يطرأ على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو أننا سلمنا بذلك واعتبرنا الانسان هو أحد مكونات البيئة الأساسية فإن أية دراسة للبيئة لابد أن تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من أن تتعرض لكثير من الأمور المتشابكة المعقدة التي يمكن أن نشير الى بعضها هنا ، مثل : -

١ - الاسس الفيزيكية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي أسس معقدة الى أبعد حدود التعقيد .

٢ - الظروف الايكولوجية من حيث انها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحياها الافراد والمجتمعات ؛ بل وأيضا على نفس مشكلة الوجود الانساني وامكان استمرار الجنس البشري في الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ - النتائج السيئة المترتبة على التغيرات الايكولوجية سواء على المستوى المحلي او الاقليمي او العالمي .

٤ - الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهي مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر في النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظر في سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظراته الى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، في آخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر في القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارئ في مقال الدكتور حسن المرصفاوى مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ - التفاعل القوي بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتساندها الوظيفي ، وهي أمور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة امثلة كثيرة لذلك يجدها القارئ في مقالات الدكتور محمود أحمد الشربيني ، والدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبى ، والدكتور أحمد أبو زيد) .

وكل هذا خليق بأن يبين لنا في آخر الامر أن الاضرار التي يلحقها الانسان بالبيئة التي يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهم على الأقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المبالاة في الإقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم له كثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق في الوقت ذاته اشد الضرر والأذى بالبيئة كما هو الحال مثلا في تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنها من نفايات وبقايا وأبخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناداة بضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه أحيانا اسم « أخلاقية الارض » - كما ترد في مقال الدكتور ابو زيد - اى وجود نظرة جديدة أو اتجاه جديد وموقف جديد لعلاقة الانسان بالبيئة . وفى ذلك يقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من أكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلوا جهودا كبيرة فى تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة أخلاقية المحافظة على الارض حين ننظر اليها على أنها مجتمع ننتمى اليه وبذلك يمكننا أن نستخدم الارض بطريقة تنم عن الحب والاحترام . وليس هناك سوى هذه الوسيلة لكى تساعد الارض على الصمود أمام وطأة الحياة الآلية التى تسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد أمامنا نحن لكى نحصد من الارض المحصول الجمالى الذى هى قادرة على أن تنبته . بفضل العلم - وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على أنها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارض واحترامها هو امتداد طبيعى للاخلاق الانسانية . ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارض قادرة على أن تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عن الاذهان فى العصور الحديثة ، ، . (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع أن نميز فى هذا الصدد بين موقفين مختلفين أشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها . فاما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة - ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار - من الناس ممن يهتمون بالمحافظة على البيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال أية تعديلات على مقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على اساس ان اى تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فى الطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير من المضاعفات والتأثيرات الجانبية الضارة السيئة . الا ان هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضة والمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهى فئات تتهم أصحاب حركة « الصراع من أجل البيئة » بأنهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد أن ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى عن طريق التنمية الاقتصادية التى تحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى أبسط صورها فى استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف الموقفين من البيئة يعكس - الى حد ما على الأقل - اختلاف المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاء على مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد أن تتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهى تعارض أى تدخل من جانب الإنسان ، وتعتبره تشويها وإساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمستغلون بالتخطيط فى الناحية الأخرى ، ويرون أنه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الإنسان والمجتمع لن يقصر عن إيجاد وسيلة للتغلب على أخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وأنه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من أضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فإنه فى آخر الأمر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن أذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الأمر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى أن الطبقات الفقيرة فى أى مجتمع تهتم أولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من أخطار ، فالظاهر أنه من الصعب التغلب على هذه الأخطار وإيقافها تماما ، وأنه يتعين على العالم أن يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يتعين عليه فى الوقت ذاته أن يعثر على حلول تقلل من هذه الأخطار التى يبدو أنها تهدد نفس وجود الإنسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة أو الصراع من أجل البيئة » التى أشرنا اليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الأذهان وتجنيده كل القوى للوقوف فى صف البيئة ومعهما ضد عوامل التخريب ، كما تحرص أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وإن كان يصعب التغلب عليها .

والواقع أن المشتغلين بهذه المسألة يرون أن الخطر الأكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة أخرى هامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل أنحاء العالم وبالذات فى العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق أن عالجنها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو أن الأزدباد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من إعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية آيا كان نوعها من ناحية أخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الإغارة على المناطق الخلوية ؛ بل وأحيانا على الأراضى الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا في حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق في هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكي تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التي يعتبرها الكثيرون صورة اخرى أو شكلا آخر من أشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها امور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارئ لها صدق في اكثر من مقال في هذا العدد ، بل وفي اعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف في الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من أن التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء العطلات ، له دخل كبير جدا في تغيير البيئة وغزو الطبيعة والاغارة عليها والحاق الكثير من الاضرار بها . واقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة اعدى اعداء الطبيعة ، وبالتالي اعدى اعداء حركة المعركة من أجل البيئة. ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته أثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التي تصل اليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل في السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط أو قيد على تحركاته ، وأصبح الانسان حرا في أن يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك امكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكي يمضى فيها عطلاته ، وازداد بالتالي تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار. فليس أقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر في الاماكن التي يمضى فيها عطلاته وأوقات راحته بما يحدثه من تغيير وما يتركه وراءه من مخلفات. ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها في الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع اربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة أو ستة ايام لاتاحة وقت اطول للفراغ والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة ايام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هي ما يلحقه الناس أثناء هذه العطلات ايام الراحة الطويلة من اضرار وأذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا أيضا هو أحد العناصر التي تتضمنها حركة ايجاد اخلاقية

للارض . ومن يدري فقد يكون في نجاح الدعوة الى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظة عليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدي في حالة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالي الحدم انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات في النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة العويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هي : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة في المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصادية وتوفير حد أدنى لرفاهية الانسان من ناحية أخرى؟ او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بين رغبات الاغنياء والقادرين والموسرين الذين يحاولون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبات ومطالب الفقراء الذين لا يهمهم في المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليق بأن يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشكلة العلاقة بين البيئة والانسان هي مشكلة اجتماعية في المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل أفضل للحياة ، سواء في المجال الجمالي الفني أو الاقتصادي . ولا تزال الحلول تعوز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتين تحت ظروف اجتماعية بالغة القسوة .

★ ★ ★

أحمد أبوزيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة في كل قرن ان تستطيع
احدى القضايا الهامة أن تفرض نفسها على الناس جميعا
من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد أصبحت
مشكلة البيئة الفيزيكية التي نميش فيها احدى هذه القضايا .
(وليام روكهاوس)

أفلحت « قضية البيئة » في أن تفرض نفسها بشكل قوى منذ اوائل السبعينات ، وذلك
حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء
لا تزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، وإلى أى حد يمكن أن
تؤثر في مصير الإنسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فإن الآراء
تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « أزمة بيئية » أو « أزمة إيكولوجية » قد تقلب الأوضاع
الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن في المستقبل القريب أو البعيد . بل أن الدين يظهرون شيئا
من التشكك في ضخامة المشكلة وأهميتها ألما يبنون أحكامهم على الأوضاع القائمة في المجتمعات
التي يعيشون هم فيها دون أن يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى أنهم لا يعطون

لمشكلة البيئة أولوية مطلقة ، وذلك على أساس أن مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لآخطار ومتاعب أخرى يجب حلها أولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى أن تحل هذه المشكلات العاجلة .

ولقد بدأت « حركة البيئة » بما يطلق عليه الآن اسم « يوم الأرض » Earth Day وذلك حين تقدم في عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين في بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة في أمريكا ، ببعض النداءات التي تدعو الى بذل الجهد لانقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة أن وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين في شكل مؤتمر عقده هيئة الأمم في استكهولم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من أكبر المظاهرات العلمية - بل والفوغائية ايضا - التي شهدتها العالم في أى وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه في عام ١٩٧١ أى قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد ان كانت الأذهان قد تنبهت فعلا الى خطورة المشكلة - أنفق رجال الصناعة في أمريكا ما يزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء فقط ، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية خطة لانفاق ثلاثمائة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، أى بواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفي الوقت ذاته خصصت بريطانيا أكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير أنهارها ، كما خصص الاتحاد السوفيتي بليون دولار لتطهير مياه نهري الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليقة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان أفضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او أصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتهويل والمغالاة التي لا تقوم على أساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة أنفسهم ، نظراً لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الأموال التي أنفقت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى أن هذه الحركة تسببت بشكل مباشر في خلق « أزمة الطاقة » التي عانت منها أمريكا معاناة شديدة ، وهى أزمة يمكن أن تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالي مستقبل أمريكا والقوى العاملة في الصناعة ، تهديدا مباشرا لو أنها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التي

(١) الواقع ان فكرة عقد هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك اذ بدأ التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانظار الى أهميته . وقد أطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الأمم المتحدة من البيئة الانسانية » .

يزعم أنصار البيئة أنها سوف تلحق بالإنسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ما هي عليه ، ولم تتخذ الإجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية أخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا أنفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجى ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز في الأغلب بارتفاع المستوى الإقتصادي والثقافي ، وهم بذلك لا يحسون بالآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقاته والخروج من دائرته ، وإن التوقف عن الصناعة أو تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التي وجهها رجال الصناعة الى أنصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعي ، على أنها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيت هم الدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها في التنمية الاقتصادية التي تركز الى حد كبير على التحول التدريجي الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، او على الأقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضروبة عليها . ويقول آخر فإن هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادي من ربقة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، اذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلي العالم الثالث هي أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وإنما هي مجرد نوع من الترف يجب أن يسترمى بالعملة الصعبة ، وأن لمن هذا الترف قد يكون غالبا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج أنصار البيئة التي تقوم على مبداء ضرورة تضافر جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لأصلاح البيئة ، وإن ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه في مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وإن الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو أن يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته في درجة النمو الاقتصادي والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارليتش Paul Ehrlich في كتابه الشهير « القنبلة السكانية The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الايكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير في هذا الطريق الخطر الذي اختاره لنفسه .

وأيا ما تكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الاوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما في الاعتبار ، وهي حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الانتباه اليها . مثال ذلك أن كثيرا من المباني الأثرية في أوروبا كالكنائس

والكاتدرائيات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من أكبر مظاهر الحضارة الفريسية بدأت تعاني من سحب الدخان والغبار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتأثيرها . ولقد أوصت إحدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكي تمنع عنه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر أن كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضى ثمنا غالبا للغاية . والظاهر أن هذا هو الوضع أيضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول أن تنفيذ أى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغيرات في البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ما تحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق عنها بعض الأضرار في التوازن الايكولوجي . وربما كان أفضل مثل لذلك هو التغيرات الايكولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل وأراضي الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه لأن السد العالي الذي يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن أضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ما قد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المنزرعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ما سوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فإن الثمن الايكولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والاطباء يخشون من أن تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل أن البعض يخشى من امكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالإضافة الى ظاهرة النحر النهري وتأكل الشواطئ في شمال الدلتا والاضطراب التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمي الذي كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالإضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجمبرى والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء أنفسهم يرون أن لكل مشكلة حلا ، وأن العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

(٢) الملاحظ أن التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضى في رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وأنه لن يمكن لأي دولة واحدة أن تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا عن ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وايضا نظرا للأوضاع القائمة بالفعل . مثال ذلك أن سبع دول على الأقل تلقى بفصلاتها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما أن الرماد المتصاعد من مصانع الرور في ألمانيا مثلا يؤثر في لوج النرويج ويفقد بها بريقها ولعنها وصحتها ، وبمثل فان نفايات وفصلات مصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت أعداد هائلة من الأسماك فيه . والسؤال لدى عدد كبير من العلماء أن البحر الأبيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لانتقال الفضلات والقاذورات والنفايات من المصانع والبواخر فيه أن لم تبدل الجهود الجبارة لانتقاده ، وأن كان هناك من يعتقد أن الوقت قد فات بالفعل وأنه لا أمل في انتقاده من ذلك الحسب :

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد - كما ذكرنا - أن « حركة البيئة » هي آخر سلاح أو أعلى الأصح أحدث سلاح تتسلح به الدول الغنية في مؤامراتها ضد الدول الأخرى حتى تظل هذه الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع أن تتحكم في غيرها ، ويكفي هنا أن نذكر أنه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق أحد أعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هو أن « مشكلتنا ليست هي التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعي وإنما هي الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب في أن المؤتمر عالج بالإضافة إلى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الأراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجذب وما إلى ذلك . وعلى أية حال ، فلقد بدأت بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالية المشكلة ، وتدرك أن تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وأن الأزمة الأيكولوجية أزمة عالمية بكل مافي هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهي أمثلة يمكن أن نجدها في كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على أية حال أن الدول الفقيرة والمتخلفة هي أكثر عرضة من الدول الغنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ما قيد يبدو في ذلك من غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ - في سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر - في ادخال نظم الحياة السائدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي تهرق بذلك مواردها الطبيعية التي سوف تستنزف في فترة قصيرة نسبيا ، كما أن الإقبال الشديد على التصنيع سوف يعجل بتلويث الهواء والماء بدرجة أكبر مما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي لديها من الموارد المالية ما يسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الأمر في المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مألوفة في المجتمعات المتقدمة .

(١)

والشيء الذي يسترعى النظر حقا هو أنه على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم إلا منذ أوائل السبعينات فإن ماتم أحراره من تقدم حتى الآن في هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الأقل في مجال توجيه الانظار إلى خطورة المشكلة ، حتى وإن لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من أن منع هذا التلوث لا يزال أملا يراود أحلام أنصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول أصدر بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الأيكولوجيا - على أيدي علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون إلى المسألة في الأغلب من الزاوية الفيزيائية

البحته ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة اوسع واعمق ، ولذا فانهم اعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان فى البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريرز دارلنج F. Fraser Darling فى مقال طريف له: ان الايكولوجيا - باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى فى علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد او الى انواع مختلفة - هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا فى هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفقد المقارنة وتكشف عن أوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرتبة . (٢)

وربما كان اهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التى تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية او الفيزيائية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتاثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية اخرى . ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة ، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الآن من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانباً انسانياً عميقاً تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الايكولوجيا ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم فى تطبيق

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك فى ان الفصل فى ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع فى المكان الاول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر - كما يقول فريرز دارلنج - عن فلسفة محددة وعن رؤية واضحة لوقف شديد التقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا فى بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره فى ذلك الحين اقل من ثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع غيرهم من العلماء من اجل الوصول الى فهم كيف تتماش مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب أصدره التون فى هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفى بوصف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التى قام بها تلاميذه واتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اهتم التون بالتنبيه الى قلة البحوث التى أجريت فى هذا المجال الحيوى العام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى فى المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اطلسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية فى افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل اللويوود Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث فى صحارى المكسيك وارىزونا .

المنهج العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية افقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيته » وعمقها ، وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، وأخفقت بالتالى فى أن تصل الى كثير من الناس على الرغم من أنها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءاً أن عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية او بشرية على الأصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا فى الاغلب من المتخصصين أصلا فى الجغرافيا او الانثروبولوجيا . ولعل من أهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الايكولوجيا دائما فى ضوء النشاط البشرى العام . ويقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوا يؤمنون بأن هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون فى كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلى أى حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت فى مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات أو الحيوان ، كما أصبحت الدراسات الايكولوجية أكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الايكولوجية الان واعطاء الجانب الاجتماعى والانسانى قدرا أكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة لانطلاق فى أى بحث ايكولوجى هى الظروف والاضاع المادية السائدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، وإلى أى حد تنعكس هذه الاوضاع فى سلوك الناس ، وإلى أى حد تتأثر بدورها بهذا السلوك أو بالثقافة السائدة فى ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الافادة من هذه الظروف البيئية العامة . وعلى الرغم من التسليم بأن هذه الاوضاع الفيزيكية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه أن ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتى كانوا يعنون بها أن الشروط والاحوال الجغرافية تملئ على الناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن الخروج منه — قد اختفت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التى أصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون معا فى تشكيل السلوك الاجتماعى . فساكن الصحراء مثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لأن الظروف البيئية وحدها هى التى تحتم عليهم ذلك ، وإنما لأن هناك الى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة أوضاعا أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر معا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار أهمية الدور الذى تلعبه تلك الاوضاع المادية أو البيئية فى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين — النشاط الاقتصادى ... فالانسان هو الذى يصنع النظم الاجتماعية التى تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، آخذا بالاعتبار فى الوقت ذاته ما تقدمه له البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو أيضا الذى يستطيع ان يغير هذه النظم التى أوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضى الأمر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة فى كل الاحوال . فكان أى تغير فى البيئة الطبيعية يمكن

للإنسان أن يقابله بادخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الاوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الايكولوجية في معظمها - وبخاصة البحوث التطبيقية - ناحية العمل للمحافظة على البيئة . وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أى ازدياد الاقبال على انشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا اثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف ان تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تلوثها ، ولكن أيضا بانقاذ الريف والمحافظة عليه والابقاء على المناطق الخلوية التى تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا عن طريق التصنيع يرتبط بالضرورة بانخفاض أو تدهور مستوى المعيشة بيئيا أو ايكولوجيا ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والسخة والصخب التى ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الايكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثروبولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمستغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

(٤) هناك بعض الاتجاهات التى تدمج الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة ، بل والى ظهور تخصصات جديدة فى علم البيئة التى يبدو أن كثيرا من الدول حتى التقدمية لا تعطى لها ما تحتاجه من مناهة واهتمام . وتعتمد هذه الدعوة على ان (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتعاون فيما بينها بحيث يمكن ان يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التى تساعد على فهم مغزى سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقفهم من البيئة الطبيعية . فالإنسان - على ما يقول روبرت موريسون Roper Morrison فى مقاله الرابع عن Education for Ecological Concerns هو انجح الكائنات فى استعمار الارض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه فى الوقت ذاته أكثر هذه الكائنات افسادا للأرض تلوثا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الأمريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص فى (الايكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فاللاحظ ان الاقبال عليه لا يزال ضئيلا نظرا لصعوبة العلوم التى يتعين على العالم الايكولوجى ان يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أن حال فإن توفير امثال هؤلاء المتخصصين لن يكون سوى الخطوة الاولى فى دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الامر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من المتخصصين فى بعض فروع المعرفة الأخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وأيضا الكيمياء والبيولوجيا لحل أبسط مشكلات البيئة .

(٢) .

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الأيكولوجيا الآن هو مسألة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وإن كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وإن لم يدركوا كل الأبعاد التي تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التي تحتاج إلى الإلمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما في ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة بطريقة معاملتهم لها - أو على الأصح تعاملهم معها - وردود الفعل التي ينتظر أن تصدر عنهم أزاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهي برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فإنها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعي على أي حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التي تهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالإضافة إلى المعارضة التي يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الإشارة إليه . إلا أنه يبدو أن الأذهان أصبحت الآن مهياة إلى حد كبير إلى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما أنه يمكن تبديد كثير من الشكوك التي أثرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وإن كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما أحرزته من نجاح في المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان إلى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون أن تفرق مع ذلك في المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا أمام إتمام هذه البحوث وبخاصة في المجال التطبيقي ، وربما كان الجانب الاجتماعي هو أصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم في جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الأيام مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما إليها ، وهي كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج إلى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الأمر إلى إصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة في الأنهار ومجارى المياه) . وإن كان السلاح الأقوى والأكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعي ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول أن «المحافظة على البيئة» لا تعني أبدا الامتناع عن كل ما عساه أن يؤدي إلى تغيير الأوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الأرض ، أو إنشاء مشروعات الري وتوليد الكهرباء الكبرى قد أسهمت أسهاما ملموسا في

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفذت هذه المشروعات ، كما أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل - في أبسط واوضح مظاهرها - في الامراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التي تواجه المهتمين بهذه المسألة ليست هي الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى أي مدى يجب التحكم في هذه السيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجة التحكم في تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولا يزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التي يجب ابعادها وإزالتها تماما . والرأي السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في أي بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يشهده تلوث تلك العناصر الأخرى ، وذلك نظرا لأن الهواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي تحتاج اليه كل الكائنات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون أن يملكها أي كائن واحد منها . فالهواء سلعة جماعية بكل ما في الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأي السائد الآن هو اننا لن نستطيع ان نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم اولاً في أنفسنا ، اما عن طريق التشريع او عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الأساسية المتعلقة بالبيئة والاحاطة التي يمكن ان تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأي السائد أيضا بين أغلب العلماء والمستقلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهي انه لا مفر - رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة - من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفي كل شيء وفي كل وقت ، وان المهم في الامر - من الناحية العلمية - هو أن نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التجديد الدقيق .

• • •

(٦) انظر في ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٣ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين عن :

• ويشير التقرير الى اهم مصدر تلوث الهواء "A Study of Pollution — Air" P. 14
مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية وغير العضوية التي العضوية كالباني . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى في معالجة البيئة ، وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة أو نسقا متمايرا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الايكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لاحد الانماط الاساسية التي تطلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا في التمييز بين النسق الايكولوجي الصحراوي الذي ينشأ نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جذب الارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعى قبلى ، والنسق الايكولوجى الريفى الذي ينشأ نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانيات الري وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافا شديدا ويعتمد أساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الايكولوجى الحضرى الذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ في مناطق معينة بالذات نتيجة لظروف جغرافية معينة تساعد اما على التجارة او تقديم الخدمات او قيام بعض الصناعات ، وهكذا . واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها في نظام واحد يتدرج من أبسط الكائنات العضوية الى أكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها في بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الأشياء غير العضوية وكل ما في الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الأخرى . الا انه لابد من ان نميز في هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) وأشكال الحياة الأخرى ، على الرغم من كل ما بينها من تفاعل وتشابك في العلاقات في المتبادلة . وتجتاز هذه التجمعات البشرية في أى نسق ايكولوجي بتعقد سلوكها الاجتماعى الى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجى لانجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية او النباتية وبقية مكونات البيئة في ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الايكولوجية هو الذى يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات و (التجمعات) وأشكال الحياة ، وهذه السيطرة هي التى تخلق في آخر الامر الأزمة الايكولوجية التى تعاني منها كل المجتمعات في الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر أهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة ، ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خليق بأن يلقى أكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الانسانى ومصادر الثروة في الارض وامكانية تحقيق درجة أكبر من التقدم (٧)

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماء الآن بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث عن الانساق الايكولوجية المختلفة - بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة - قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب لان لا يخرج عن الوصف السريع الذى يكاد يغلو من تحليل العلاقات المتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا الى تعقد هذه العلاقات والى الحاجة الى الاطاحة بكثير من العلوم التخصصية لفهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . ولما اتجه يحاول ان يفرض نفسه الان على دراسة الانساق الايكولوجية من طريق تطبيق المناهج الرياضية والكمية .



وهذا ينقلنا مرة أخرى الى ماسبق أن ذكرناه من أن النسق الايكولوجي - رغم تعقده - نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة مشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متأخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « ايكولوجيا Ecology » ادخلت لأول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الاحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للإشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الايكولوجي او النهج الايكولوجي في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في أوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الأمريكي جالبن Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذي ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعي لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatomy of an Agrarian Community ومع أن جالبن لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (ايكولوجيا) صراحة الا أنه في دراسته للعائلات القروية التي تعيش ذلك المجتمع المحلي الزراعي (الذي يقع في إحدى مقاطعات امريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وافلح في أن يكشف عن مختلف انواع النشاط وعوامل توزيعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالبن هي أن يدل على أنه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف ايكولوجية معينة ، كما أنه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق انواع معينة من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، بل وأيضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه أن انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في امريكا من أمثال دوبرت بارك Robert Park وبرجيس Burgess ، ففي عام ١٩١٥ أيضا حاول بارك أن يدل على أن المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل



وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفقد هذه العلاقات الايكولوجية جانباً من معناها الانساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه انفسهم يرون أن تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الايكولوجية الى افاق علمية جديدة ويحقق لها مستوى لا يتوفر لها الآن باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى أي حال فإن التحليل الكمي للانساق الايكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة على أية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن - حسب قو موريسون - فهم اعماق ايكولوجيا المجتمع بنفس الطريقة التي يفهم بها الآن الشفرة الوراثية

Genetic Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Cousevation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لا يمكن التحكم فيها ، وأن لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل أن لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التى تطبع حياة أهلها بطابع خاص . أما بيرجس فقد حاول أن يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى بطبيعتها مئوى للجريمة والرديلة والأمراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الايكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية) لم يبدأ الا فى الربع الثانى من هذا القرن للدرجة أنه يمكن الكلام عن « المدرسة الايكولوجية » . وليس معنى هذا أن الاهتمام بدراسة الظروف الايكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما نقصده هو أن الدراسات الايكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأسوأ أخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكاني، وبدأت تولي عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين افراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول ما اذا كان يمكن اعتبار « النسق الايكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الانساق كل التميز ، أو أنه يدخل مع غيره من الانساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام أو البناء الاجتماعى Social Structure وكان انصار تمايز النسق الايكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على أن النسق الايكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الانسان والطبيعة بعكس انساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الانسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الايكولوجيا البشرية فى الثلاثينات من التمييز بين التفاعل الايكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن - على ما ذكرنا فى أكثر من موضع من هذا المقال - هو أن ينظر الى العلاقة بين الانسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وأن كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

(٨) راجع فى ذلك كتابنا من : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى (الانساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك

راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago

V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه أن التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على أسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان والمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الاثنان ، على اعتبار أن الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن أن تشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف :-

أولاً : عناصر ومكونات النسق الايكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيائية مثل الهواء أو الماء . (ومثل هذا ينطبق على الانساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى أو نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانياً : البناء أو الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) - والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل أفراد النوع الواحد أو المجموعة الواحدة أو بين الانواع أو حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية أو الحيوانية .

ثالثاً : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعاً : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرا على النسق خلال الزمن .

خامساً : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان أو الحيوان أو النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادساً : العلاقة بالبيئة - والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعاً : واخيراً مشكلات التصنيف - ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الايكولوجى تبعاً للخصائص الذاتية لكل فئة من هذه الفئات . (٩)

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis” in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط أثرت في الأصل في كتابات علماء الأيكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنها تصدق بكل دقائقتها وتفصيلاتها على مستوى العلاقات القائمة بين الإنسان والمجتمع والبيئة ، بحيث أن أى عملية تبدأ في أى طرف من هذه الأطراف الثلاثة لا تلبث أن تنتقل إلى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الأمر ، في ذلك الكل المتكامل أو الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الإنسان - المجتمع - البيئة) . وأبسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات أو الحيوانات ومنها تلك التي تقتات على تلك النباتات ، إلى الإنسان الذي كان هو السبب الأول في نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذي يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الأيكولوجي . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ في الاعتبار أن حركة هذه الجزيئات الفيزيائية أو المادة D.D.T. تدفع الإنسان إلى التفكير في هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الإنسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التي يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب في الأمر هو أن هذا التعديل أو التغيير كان يحمل دائما في طياته كثيرا من المساوئ والشروء التي انعكست على حياة الإنسان نفسه . فكانه يمكن القول أن الإنسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لا يدري ، على تغيير البيئة بما يتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . - على الأقل - منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الإنسان في الأرض ، وإن اتخذ هذا التعديل والتغيير اشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الإنسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة أدت إلى نتائج عكسية في كثير من الأحيان تمثلت في استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الأرض (كما حدث في أراضي ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا في بلاد اليونان القديمة وفي إيران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا بحيث تحولت إلى أرض صحراوية مجدبة أخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الأراضي الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الإنسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء بأحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل أن يزرع الأرض بعد أن (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعي . ثم أسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الأمر في تدمير البيئة بسرعة وإلى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطي نصيبا أكبر من الاهتمام للدور الذي لعبته التكنولوجيا الحديثة في خلق الأزمة الأيكولوجية التي نعاني منها الآن ، والتي تتمثل في اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذي أشرنا إليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الأشياء المادية أو الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لانجاز الأعمال الصعبة أو لزيادة الانتاج ، وانما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الإنسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن أن ندخل ليس فقط الآلات والأجهزة التي نستعين بها في العمل والانتقال وانجاز الأعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التي تساعد في اتمام هذه الأنشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه في استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد أشكال أو صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة أخرى ، ولكن بعد أن تكون قد اتخذت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع أن بعض هذه المواد الخام تستخدم في صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، إلا أن الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغيرات والعمليات الطويلة المعقدة التي تفقدها خصائصها الأولى . ولقد كان الإنسان المبكر يكتفى في الأغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بلل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التي يستمدّها من قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام في صورتها الطبيعية الأولية في صنع أسلحته وأوانيه الفخارية وما إليها ، أن يصمد أمام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الإنسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التي دخل الإنسان معها في صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الإنسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما أصبحت الأدوات والآلات التي يستخدمها أكثر تعقيدا وتقدما ، كما أصبح الإنسان يستعين بمواد أخرى كيميائية أو يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتنقية هذه المواد الخام الطبيعية أو تحويلها الى مواد أخرى يستخدمها في حياته العملية كما هو الحال في صنع الصلب من خام الحديد بعد أن ينقيه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك في صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على أشياء أخرى كثيرة . وحين يضيق الإنسان بهذه الأدوات والمصنوعات فإنه (لا يلقي بها بعيدا) في حقيقة الأمر ، أو (ينبدّها) تماما ، وانما تعود هذه الأدوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة أخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الأرض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الإنسان ويلقيه فإنه إما أن يدفن في الأرض أو أنه يحرق لكي يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد في الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكأن البيئة تسترد في آخر الأمر وبشكل ما كل ما نأخذه منها مثلما تستردنا نحن أيضا ، على ما يقول هاملتون (صفحة ٢٠) .

والمهم هو أن التكنولوجيا تساعد الإنسان على البقاء والصمود في صراعه الإبدى مع الطبيعة. فلكي يتمكن الإنسان من الحصول على الطعام والدفع والمأوى (أو المأكل والملبس والسكن) فانه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع أهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل في صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التي تعمل على هدم ما قام بترتيبه وأعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الإنسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وإن كان التقدم التكنولوجي الحديث والآلات والادوات المعقدة قد أعطته - كما قلنا - مزيدا من القوة التي لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو أن هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الإنسان أضاف الى هذه التغيرات بتدخله في سير الطبيعة ، كما أن الذي يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التي أحدثها الإنسان وبخاصة تلك التي لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك في أنه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التي تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لافراق نفايات المصانع في البحر (١١) . والخطر من ذلك هو أن موارد المواد الخام لا يمكن أن تظل الى الأبد ، بل أن بعضها بدأ يعاني بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمفالة الإنسان في استخراجها من باطن الأرض ، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالي عام ٢٠٠٠ مما يعنى أن المجتمع الإنسانى سوف يجد نفسه في مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة الإيكولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذي لم يكن الإنسان يتوقعه في بداية الثورة الصناعية أو حتى في بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الإنسان نفسه أنه في موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الأقل في الوقت الحالى . ذلك أن الاستمرار في احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وبنفس الطريقة التي ننبعها الآن يؤدي الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالإضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما أن هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدي الى ارتفاع درجة حرارة الأرض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدي الى حدوث اضطرابات شديدة في المناخ ذاته . وإذا

(١١) من أهم ما يشغل بال كثير من العلماء الآن مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة . فكل اشكال الطاقة المعروفة الآن تؤدي الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم أكثرها سوءا في هذا الصدد . وربما كان أهم مصادر الطاقة التي لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لحظم اشكال الطاقة الموجودة في الأرض كما أنها هي الطاقة الأساسية التي تحفظ الحياة بكل صورها وأشكالها . والملاحظ هو أن استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتعقد التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية في استخدام الطاقة الأولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبتروال والغاز من السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء . ومن المشكوك فيه أن هذه الزيادة يمكن أن تستمر بغير توقف .

حدد الإنسان من الناحية الأخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث فسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو أنه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع أن يتنبأ بمصير المجتمع أن حدث ذلك أو حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، أو أن يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق إليها الحضارة الحديثة التي بدأت بالثورة الصناعية ، أو التغيرات الهائلة التي سوف تطرأ على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلاً المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الأكثر دفئاً ؟ وهل تتفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد أن توقف الصناعة وتحول التجمعات البشرية الهائلة التي ترتبط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الأطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات أو افتراضات لا تستند الى دليل وإنما هي احتمالات يمكن أن تتحقق إذا زال الأساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . إلا أننا نجد في الوقت نفسه أن الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن أن تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبياً التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الأساسية للإنسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وأفضل الطرق لاستخدام الأرض وتطوير الزراعة وإنتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الإنفاق تعني ضمناً أن الجنس البشري أكثر اهتماماً بما قد يودي به وبالمجتمع والعالم كله بدلاً من أن يعطى المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر أن هناك من العلماء من يحاولون إعادة النظر في الموقف ، أو على الأقل تنبيه الأذهان الى ما ينطوي عليه من أخطار (١٢)، خاصة وأن الأوضاع في كثير من أنحاء العالم

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الأمر نظرة ملؤها التشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الإنسان والبيئة وتفاقم الأزمة البيئية . فلي فقره طويلة بعنوان « الإنسان عدو نفسه ” Man his own enemy “ يقول ديفيد هاملتون - الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist - في كتابه الذي سبقته الإشارة اليه ، أن الإنسان لن يستطيع أن ينقذ نفسه من نفسه حتى ولو أفلح في التخلص من الآثار السيئة التي تنتج من التكنولوجيا . ذلك أن الإنسان في رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى الغناء من الجوع ، أو أنه قد يضطر الى أن يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد في بيئة الأرض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والقتال من أجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الأمر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائماً أن تقوم بتحديد عدد أي جنس من الأجناس تبعاً لمساحة الأرض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وأن زيادة في العدد كان مصيرها دائماً الغناء بسبب نقص الطعام أو التنافس الطبيعي أو نتيجة لتدخل إحدى قوى البيئة الأخرى ، ومع أن الإنسان يعرف ذلك تماماً إلا أنه يتزايد بطريقة ستؤدي الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في القريب ، ولكنه يفضل تقديمه التكنولوجي استطاع أن يغير البيئة وأن يحفر في الأرض الى أعماق بعيدة جداً بحثاً عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئاً سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدمرهم خطر لغذاء الطعام في وقت قريب . بل

تستدعى ضرورة الاسراع الى اتخاذ الاجراءات بحفظ حياة الانسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفي أن نذكر هنا أنه مع بداية القرن الحادى والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل أربعة أشخاص من سكان العالم فى تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الأكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas يقيم فيها المهاجرون - والناحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفى الوقت الحاضر مثلاً نجد أن ثلاثة أرباع السكان فى مدينة كبرى مثل كلكتا يعيشون فى أكواخ واكشاك تنقصها كل أسباب الراحة الأساسية أو الأولية (المياه والمجارى) ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من أمطار غزيرة وترتفع المياه فى الشوارع والطرق يجد الناس أنفسهم مضطربين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر الى خوض هذه المياه التى تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل أنواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة فى مدن الشرق الأوسط أفضل حالاً من هذا . وليس من شك فى أن أى محاولة لتغيير هذه الأوضاع التى ينجم عنها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدي الى ادخال تغييرات جوهرية جديدة فى هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادئ التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار دائماً حين تدرس الانساق الإيكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الانسان فى محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول أن تفهم طبيعة المأزق الذى وضع الانسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل أول مبدأ من هذه المبادئ هو تعقد العلاقات بين الانسان والبيئة وتشابكها الى أبعد الحدود . ويزيد من هذا التعقد تعرض هذه العلاقات دائماً للتغيير والتعديل والتحويل نتيجة للتقدم الثقافى والتكنولوجى الذى يحرزه المجتمع . فليس من شك فى أن مثل هذا التقدم التكنولوجى بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الانسان فى البيئة الطبيعية بعد أن يكون



أن الجنس البشرى يمتلئ الآن فعلاً من نقص الطعام ، وسوف يعانى قريباً من النقص فى أشياء أخرى مثل الماء الصالح للشرب والسكن بل والأرض التى يمكنه أن يسكنها فى الوقت العالى يشغل كل خمسة عشر شخصاً فى المتوسط كيلو متراً مربعاً واحداً من سطح الأرض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد الى أكثر من ثلاثين شخصاً لكل كيلو متر مربع . ولقد اوقف التقدم فى مجال الطب عمل الطبيعة التى كانت تقضى على افراد الجنس البشرى غير الصالحين - كالمزمنى والمجنونة - فأطال الطب الحديث حياتهم لئلا يزعجوا الأرض ويؤاخموا الآخرين ويسهموا فى استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالي فى تفاقم الازمة الإيكولوجية .

والعروف على أى حال أن سكان الأرض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريباً بحيث يتوقع أن يصل عددهم الى سبعة آلاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وأن معظم الزيادة ستكون فى الدول المتخلفة التى هى اقل قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من الناس . والظاهر أنه لن يكون أمام الجنس البشرى الا أن يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها اباحة الإجهاض (كما يقول) أو يموت جوعاً (صفحات ٢٧٤ - ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخلق يمثل هذا التحكم ان يؤدي الى تغيرات جوهرية في البناء الاجتماعى الكلى وليس في البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والمبدأ الثانى ، وهو امتداد للمبدأ الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التى يحدثها الانسان فى كوكب الأرض الذى يعيش عليه هى ظواهر ايكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا فى ضوء العلاقة الثلاثية القوية التى تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، او « المجتمع الانسانى » فالتاثيرات على البيئة « كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التى تؤلف النسق الايكولوجى فان اثر البيئة الفيزيائية يكون اوضح فى المجتمعات البسيطة والاقلة تطورا منه فى المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس فى الفئة الاولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها فى صورتها الاولى . فالتأخر التكنولوجى يقف عقبة فى وجه الجهود التى قد يبذلها الناس فى هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويلها بنفس الدرجة التى نجدها فى المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجى السائد عندهم .

والمبدأ الثالث هو ان ندرك دائما فى دراستنا للانساق الايكولوجية ان الانسان يوجد دائما فى الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنعزلا عن الانساق الايكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون ان يتأثر بها او يتفاعل معها . بل ان تأثير (الانسان) على الانساق الفيزيائية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شئ الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التى تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعى يصدر عن اعضاء المجتمع ككل يختلف فى الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذى يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الايكولوجى الطبيعى وان ندرسه فى حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش فى فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر او غير مباشر فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك فى ان دراسة المجتمع فى ضوء النقاط السبع التى سبق ذكرها والتى حددها ريبلى Ripley وبوشنر Buechner تلقى كثيرا من الاضواء على الدور الذى يقوم به المتخصصون فى العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذى يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والمبدأ الرابع هو انه على الرغم من التسليم باثر البيئة فى الحياة الاجتماعية فى كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطأ الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالدات وفي اتجاه مرسوم بالذات أيضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو أنها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في أى مجتمع من المجتمعات – إيا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع أو بداءته وتخلفه – بحيث يستطيع الناس ان يختاروا في الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس أدل على ذلك من أننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة في البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف في أساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن في الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون أن يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات أو محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من أنماط الحياة جنباً إلى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر فى نظر كثير من العلماء أول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية وأكثرها تأخرا ، كما يمارسون فى الوقت ذاته الزراعة بل وأيضا استخراج المعادن والصناعة فى بعض الاحيان . كذلك نجد فى المجتمع الواحد أن الاوروبيين المستوطنين يمارسون أنواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من أنهم يعيشون معهم فى نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه أننا يجب ألا نأخذ البيئة الطبيعية أو الظروف الايكولوجية على أنها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف أو الشروط الشاملة التى تتلائم على قيام نمط معين من أنماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والأخير ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالي على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت فى المجتمع سواء اتخذت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، أو شكل التحكم فى الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها فى صور وأشكال جديدة ، فلا بد للعلم من أن يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السيئة التى يخلقها تحكم الانسان فى هذه الظروف والاضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان ننظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وإنما لا بد من أن تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل فى تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية وما يترتب على ذلك من مرض أو متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع فى المستقبل ان لم يكن يعانى منها أو من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن أزمة البيئة والأبعاد التى وصلت إليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط – فى مختلف فروعه – بالعمل على تلافى استفحال هذه الأزمة أو استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

اهم المراجع

- Avril, R.; *Man and Environment*, Penguin, 1967.
- Buchanan, R.A.; *Technology and Social Progress*, Pergamon, Oxford 1966.
- Carson, Rachel, *Silent Spring*, Penguin, 1965.
- Drucker, P.F.; *The Age of Discontinuity*, Heineman, London, 1969.
- Galbraith, J.K.; *The Affluent Society*, Pelican, London, 1970.
- Hamilton, D.; *Technology, Man and Environment*, Faber, London 1943.
- Mumford, Lewis, *The City in History*, Pelican, 1966.
- Roszak, T., *The Making of a Counter-Culture*, Faber, London, 1940.
- Shanks, M.; *The Innovators*, Penguin, 1967.
- Sterland, E. G.; *Energy into Power*, aldus Books, London, 1967.
- Wagner, R.H.; *Environment and Man*, Norton, N.Y. 1971.
- Watt, K.F.; *Ecology and Resoutcie Management*, N.Y. 1969.

وذلك بالإضافة الى المقالات العديدة القيمة التي يضمها عدد خاص من مجلة Daedalus (وهي المجلة التي تصدرها
الأكاديمية الامريكية للفنون والعلوم عن America's Changing Environment خريف عام ١٩٦٧ .

★ ★ ★

محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو ملىء بالاشعاعات تأتينا من علر ، وكان السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكننا لا نأبه لها ولا نتتبع اثرها ، ولعل اثرها حتم في تطور البشرية .

ومن يدري ، ربما كانت الجرعة من الاشعاعات التي تأخذها أجسامنا يوميا تؤثر علينا في نسلنا ، وهى تؤثر على آلات القياس في معاملنا فتدق في كل دقيقة جملة دقائق .

ولحكمة الـهية قل تصادمها مع أجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره في أجسامنا ، وما اكثر الكربون في أجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ، ويمزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دما نأكل ونشرب وفيما نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نـعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكان كل جسم حي في الوجود يحمل معه ساعة دقاقة تدق دائما دون أن يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن في التحرك ساعة الوفاة . ويدل مقدار النقص في عدد الدقات على مضى الوقت بعد مفارقة الحياة ، وإذا اقتلعت شجرة من أرضها فقد فارقت الحياة ، وإذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك أكثر من سؤال يجول بالخطر أرجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التي تغمر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتى الينا وابل من الاشعاعات الذرية بطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى الينا من كل فج عميق . لا يحابى اتجاهها دون اتجاه ، فجميع الاتجاهات عنده سواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق في كل زمان وعلى كل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الأرضية جميعا ، وهم أشتات ، رؤوس نصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقي تتجه الى جنوب ، واقدامهم جميعا تتجه الى مركز الكرة الأرضية يقيسون ويتفقون على سرعات هذه الاشعاعات وطاقاتها وكل مالها من آثار كما وكيفا ، ويطلقون عليها اسم الاشعة الكونية .

والرأى السائد انها تأتى الينا من أعماق الكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط تزيج ما يعترض سبيلها . وفي عملية الازاحة تكون هناك ضحايا فتظهر اشعاعات ثانوية ، هذا او جاز ان نسمى الاشعاعات قبل التصادم مع ذرات الجو المحيط بالاشعاعات الابتدائية - وربما يصل الينا من وقت لآخر بعض من الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل الينا في الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هي ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهي ذرات كاملة التأين ، والذرة بغير إلكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

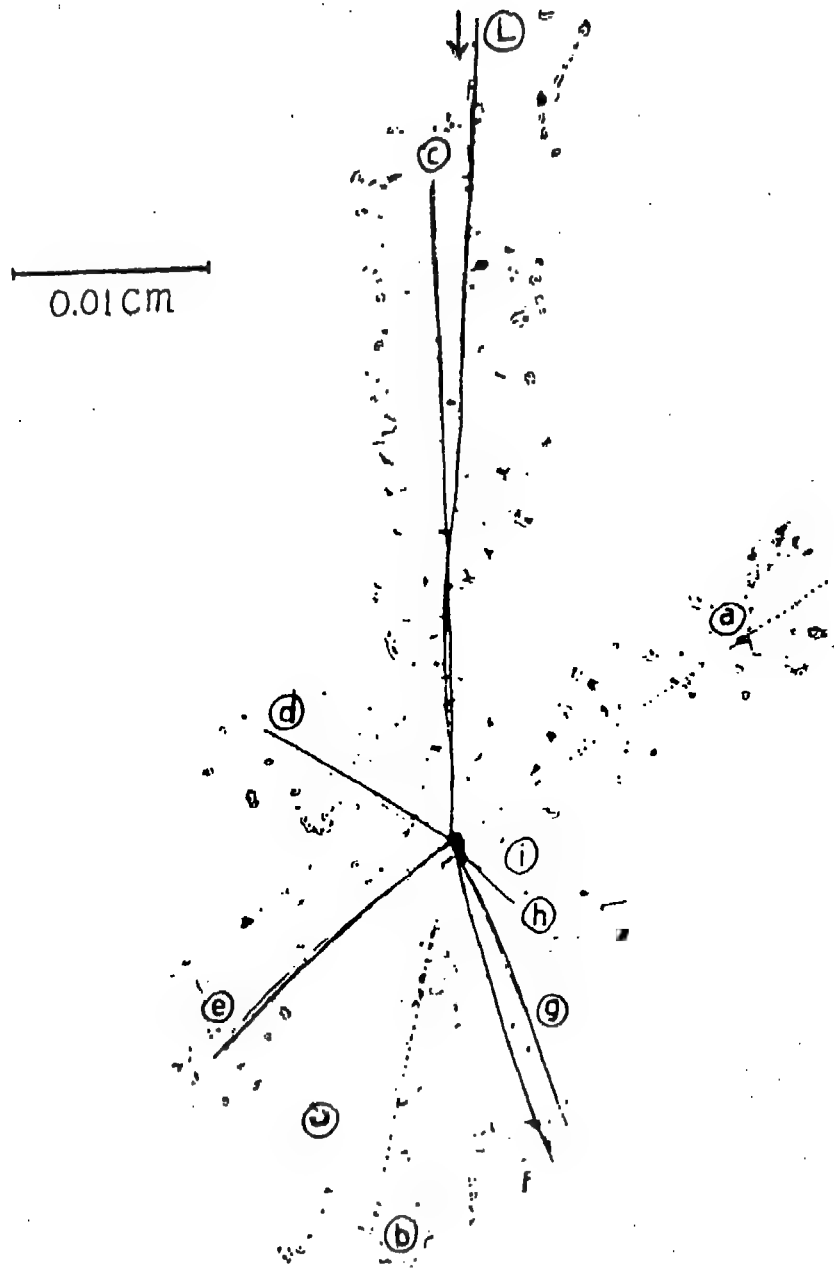
وأجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم ، ونوى ذرات أخرى خفيفة وثقيلة ، ولعل أثقلها نوى الحديد ، أجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات ، وان كان الاجماع على ان النصيب الاكبر لنوى الايدروجين ، او ما يسمى البروتونات ، فقد اختلفوا ، وقال فريق ان تسعين في المائة من المكونات هي البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا ، ولكن لم يقل أحد أبدا انها اقل من سبعين في المائة من المكونات . واجمعوا أيضا على احتلال الهليوم المكان الثانى بعد الايدروجين ، فتراوحت نسبة نوى الهليوم أو ما يسمى بجسيمات ألفا بين تسعة وعشرين في المائة وتسعة في المائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو اقل من واحد في المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ، ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلبات الفوتوغرافية لبحث مكونات الاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرى أثر مسار الجسيم بعد التحميص والتثبيت ، اذ نجد خطا من النقاط السوداء تشي بمسار الجسيم في المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر أى ميكروسكوب. واستحدثت مستحلبات لهذا الغرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرّات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، اعنى يفصل من الذرة إلكترون فتصبح أيونا ، وهذا بدوره يؤيّن ذرة اخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم في الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانة قاعدتان ، ومادة القاعدة في حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجسن مشدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة المقفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميلر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية في العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضا في الكشف خاصة اخرى ، حيث لا يسمح الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون في هذا الجو المهيا لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها أخذنا صوراً فوتوغرافية (شكل ١٣ ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيا لتكوين ضباب ، وفي داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء أو بغاز الأرجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من المران يمكن التحكم في سرعة الحركة حتى تؤدي الغرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعالاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الغرفة في مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد أنها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزوترونات ، وهى الالكترونات الموجبة ، وفوتونات وهى جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اقل من الالكترون واخف من البروتون ، وأشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما في الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل الناتج أيضا بما في الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت في الجو تحوله الى كربون مشع والذي سبق ان تحدثنا عنه .



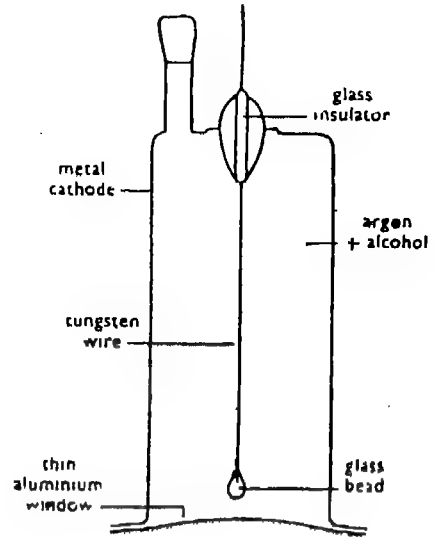
شكل (١)

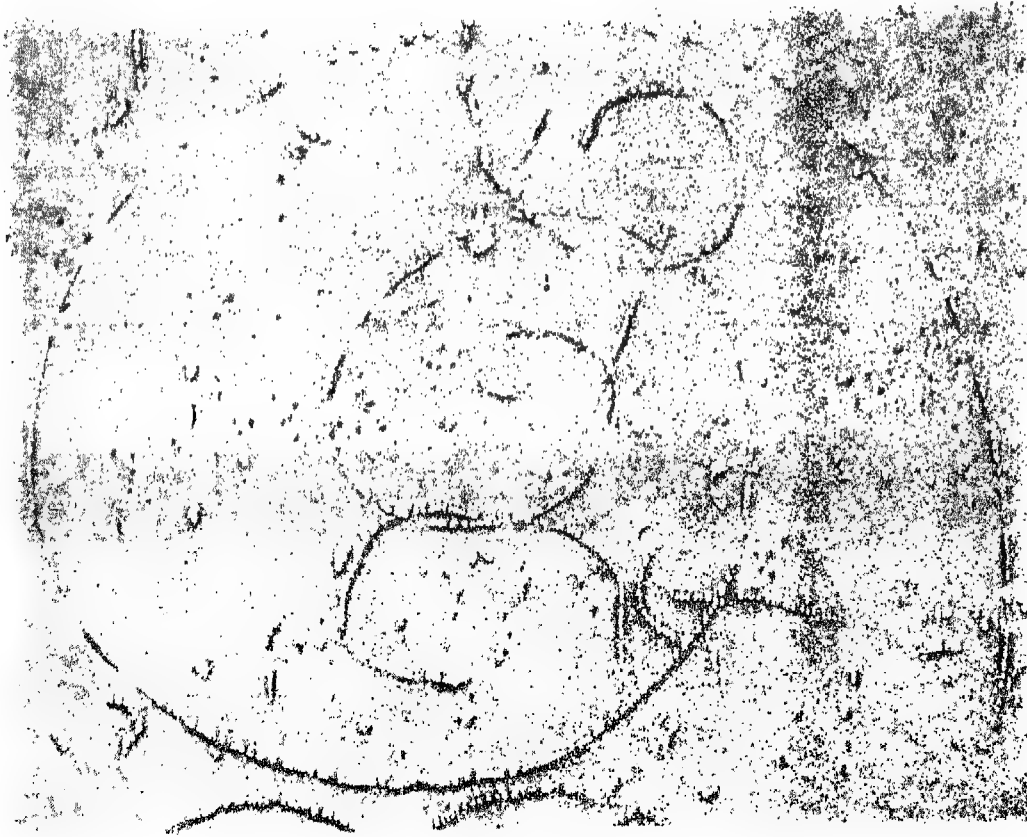
صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للأشعاعات الذرية
الخط a ، b مسار ميزونات باي ، والخط c مسار
بروتون .



شكل (٢)

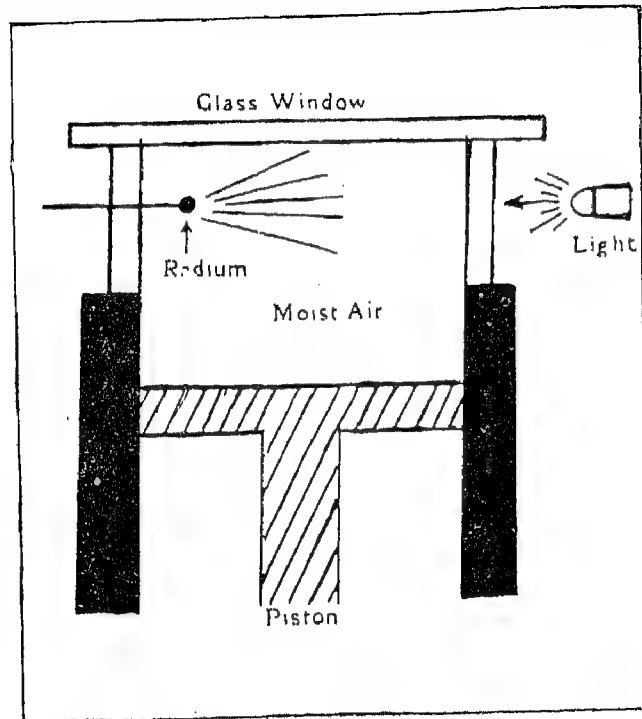
أنواع مختلفة من عدادات « جيجر وميلر » تصلح
لأستعمالات مختلفة لقياس الإشعاعات





شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في غرفة مثيلة لفرفة ولسن والغرفة موضوعة في مجال مغنطيسي .



شكل (١٣)

صورة توضيحية لفرفة ولسن السحابية .

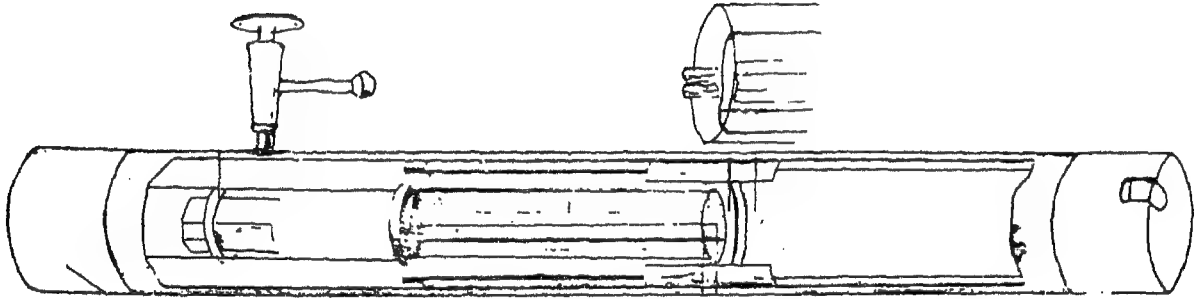
التاريخ والكربون المشع :

لسنا في حاجة الى تبيان اهمية معرفة طريقة لتأريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الانسان وبيئته في عصور ما قبل التاريخ . ولعل أقدم طريقة لجأ اليها العلماء هى البحث عن الصخور التى بها يورانيوم ، واليورانيوم مادة مشعة تشع وتحلل حتى تخدم وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدى معرفة نسبة الرصاص الخامد الى اليورانيوم فى جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور. وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الاعمار التى تربو على مائة الف سنة ، اما بخصوص الاممار التى تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، واعدوا فاقول ان جميع المواد الحية بها كميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وأن هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكمية غير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك فى الاجسام الحية ، ويتولد هذا الكربون المشع من تصادم يقع فى الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الاشعة الكونية والازوت فى الجو .

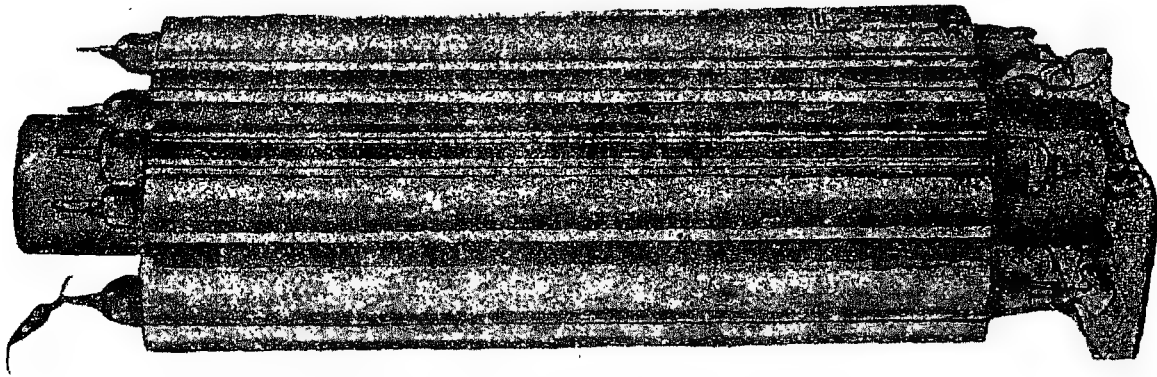
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائية عن الكربون العادى ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود فى مادة حية كالنبات مثلا نجد انه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذه الكمية دائما نسبة ثابتة فى جميع المواد الحية . وتخدم نصف كمية الكربون المشع فى ٥٦٠٠ عام وتسمى هذه الاعوام بعمر النصف ، وتحتاج البقية الباقية الى ٥٦٠٠ عام اخرى ليخدم نصفها، أى نصف المتبقى ، وهكذا يكون التأريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربون المشع دون تعويض ، اذ ان الحياة قد توقفت ، واصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نسبة الكربون المشع الى الكربون العادى تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الى نصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة او نسبة الحياة ان جاز هذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة فى الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذا ان ١٥ ذرة مشعة تخدم نهائيا كل دقيقة فى جرام واحد من الكربون .

واذا ارجعت هذه الطريقة عمر اثر من الآثار القديمة الى ٤٠٠٠ عام فانا نقول ان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عملية القياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينأى بها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذى يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلامسة مع بعضها (شكل ١٤ ، ب) وتوضع كلها فى صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الاشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ، وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التى يسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدان المتسبب فى العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت فى احدى التجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات فى الدقيقة ، لذا رؤى أن يستمر العد لعدة ساعات حتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ١٤)



(شكل ٤ ب)

(١) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلازمة التي تحوط العداد الذي يحوى عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية في العشرين ألف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ أثبت بواسطة الكربون المشع أن بدء الحياة الإنسانية في أمريكا الشمالية معاصر لبدئها في إنجلترا والدانمارك ، وذلك حوالي عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على أن هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وإن نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، إذ أن الإنسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا أي أثر للإنسان من قبل ، بدليل أنه عثر على بقايا فحم في أحد الكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى إلى أن الإنسان كان موجودا في تلك المنطقة قبل عصر الجليد الأخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت أن الإنسان قد ظهر حول حوض البحر الأبيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا أنك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقات قلب الإنسان ، فتبدأ الساعة في الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة. لو وجدت جثة محنطة سمعت دقات الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت إلى دقات الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر إلى الذهن لو أعدنا هذه التجارب هل نصل إلى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلاء الجو بالأشعاعات ؟ أكثر تشغيل الأفران الذرية أو ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه أحمزة مشعة حول الأرض لم يسبر غورها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الأحمزة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الأشعاعات في الجو ، أي تلوث الجو بالأشعاعات وهي من مسببات تغير البيئة .

حزام الأشعة :

أطلقت الأقمار الصناعية وبدأ خلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميللر » ودقت العدادات بما يدل على أن الأشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الأمريكي (المستكشف ١) وهو يدور في مدار حول الأرض وكان أبعد ارتفاع إليه هو ٢٥٥٥ كم وأقرب ارتفاع من الأرض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرا غريبا أثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ، إذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة أخرى إلى مسافة ٧٠٠ كم انخفضت العدادات وبدأت العد .

ذهب **فان ألن** إلى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لأنها مرت في منطقة أشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها في العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضاً ، لذا صم « فان ألن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الأشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومسايرتها عدا ثم وضعها في القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الأهليجي ، حيث كان أكبر ارتفاع له عن الأرض ١٠٧٠٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وأيابا منطقتين حول الأرض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الأرضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وأمريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، أغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات أقل للحزام الداخلي . قلت أغلبها بروتونات اذ أن القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الأرضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا تختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد احدثت التفجيرات النووية أحزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤٠ كم ، وبقي بعضها ابضعة ايام وبقي البعض الآخر لعدة أسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الأرضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة في حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزيئات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقة وعدم استقرارها هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث ان تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزيئات أخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر في وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يزحف التفاعل زحفا سريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستعر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متمددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل أو قذح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا أقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها قذيفة غير مكهربة « نيوترون » ان تنشطر الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأنني بها تخرج من صلبها ما يزيد بها اشتعالا فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهدما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنواة على ما نعلم كرية الشكل او هي الكرة اقرب منها الى هيئة اخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوى تنافر ، وتربو قوى التجاذب على قوى التنافر حتى لا تتناثر .

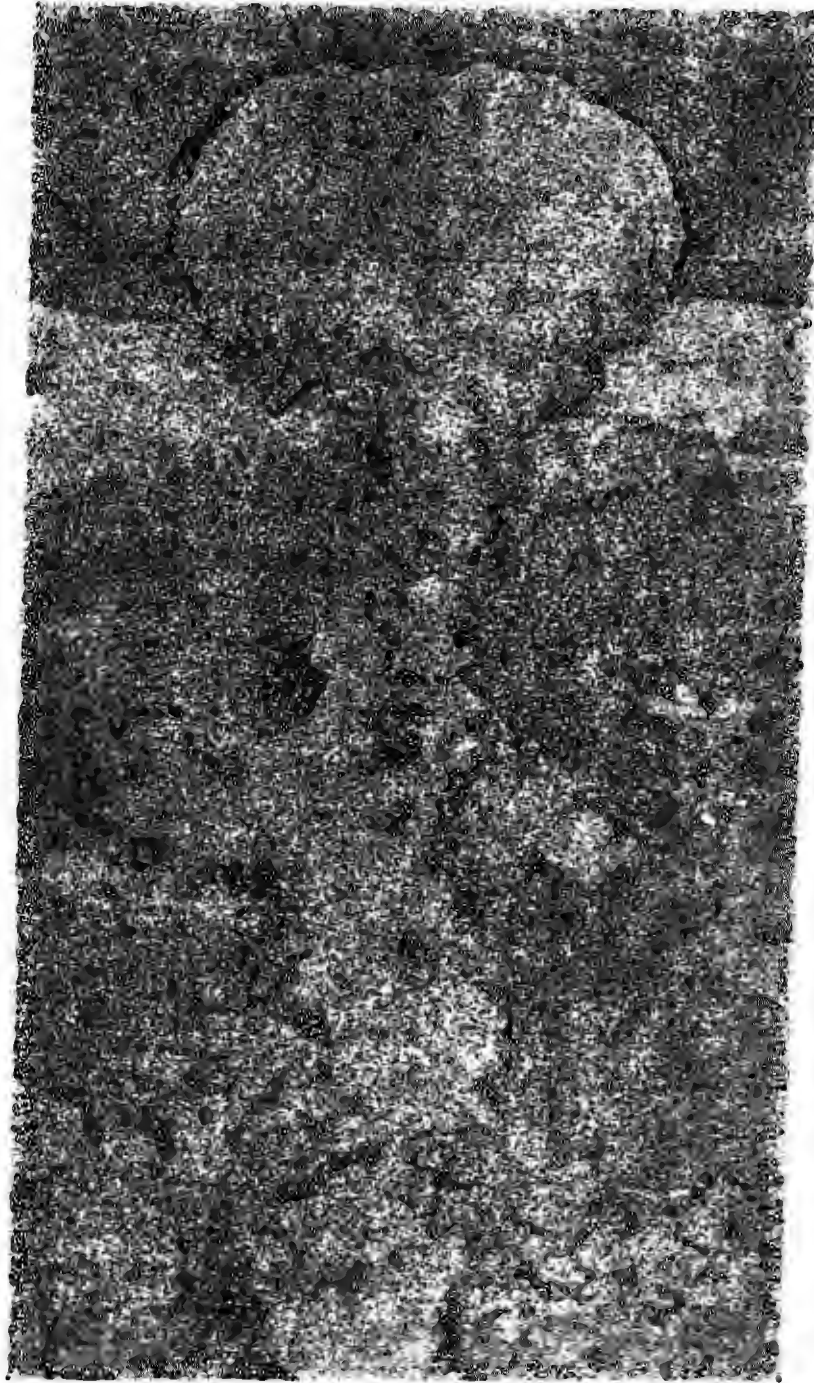
ولو كان في النية ان نجبر النواة لتنشطر وجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وفي هذه الحالة تكون قوى التنافر قدر قوى التجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هي في استقرار حرج في انتظار الضغط الذي يقسم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفت قوى التجاذب وفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقة لاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وهذه النواة هي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ، والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائه من النظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجه بقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج في درجات . وقد وجدنا من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم ان يبعث من المخلوط نيوترونات يمسك البطيء منها بنوى اليورانيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيح ، وتخرج عن اتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد في بعض الاحايين ان احدهما يار يوم والآخر كريبتون، وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلق ايضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطيء منها الاثر ثم يتضاعف مرة اخرى بهذا التضاعف ، وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاب بدا واشعل وللنار ان ترعى وتفدي بعضها ، وكلما ازدادات سريانا ازدادات اشتعالا ، والقنبلة الذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانية يوم ان القيت على هيروشيما : كرة من النار قطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منها وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطع متناثرة في جميع الجهات من المواد المشعة، ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي اصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ، ومن بعد تصل في بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عن مخلفات المواد الانشطارية في القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع في الهواء الفازات الساخنة الناتجة عن الانفجار في شكل عمود متعدد الالوان اولا ، ثم يأخذ لونه في البياض، ويرتفع العمود في هيئة دوامة من الفازات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتار ، واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة او زهرة تقف على ساقها ، وفي أسفل العمود عند الارض سحب متكاثفة من الدخان والفبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الفازات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلة مفتوحة . ارتفاع العمود حوالى ٢٠ كم فى الجو . أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية على الميناء اليابانى والركز الصناعىسمى ناجازاكى .

نعود ونسأل عن أثر الانفجار في أطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، اعني بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وتبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان او ثانييتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدل المواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، وبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل المفحة الحرارية وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد رؤي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانايب غاز قد انفجرت، واسلاك كهربائية وقد انصهرت، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق أقل شدة كل من كان على بعد أربعة كيلو مترات ، ويقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قاتمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر يقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها أشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطاري في الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الاولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف أو أكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والمباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة مميتة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات. والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحدث للانفجار ، وتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها أقل من سرعة الضوء ، وهي أقل أثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي أكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز يأتي الانسان من مأمته . وأخطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بعبارة أدق أعمارها الاشعاعية ، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . وكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بأن تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تشم ولا ترى ولا تحس الا بالآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيرا ليس المجال مجال التحدث عن لفحة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعا من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للآثار الضارة الناتجة عن الفبار الذري ، سواء في مكان الانفجار او في الاماكن المجاورة او في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي ان يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد ان اذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للأمراض ، وتجعله هدفا لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلغ الاعصاب ، ويورث الآباء الأبناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بدأوا يفزعون من خطر الاشعاعات اذ رايناهم ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقاً عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر أدلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجو المحيط .

وكما أن القنبلة الذرية رمز الفناء فهي احيانا رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وانشاء الطرق وغيرها ، وكأننا جعلنا من الهلاك نفعا ومن النار زرعا ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرنا ذريا او ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدنية والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية او الافران الذرية عبارة عن تكوين لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلا عند بناء هرم من اللبنتات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب أحمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنه في حالتنا ترص طبقة من قوالب الجرافيت بصناديق من الألومنيوم ملأى باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة او على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى أبعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية وأخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، أعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملة يأخذ شكلا هندسيا مجسما يوافق ما يقرره البحوث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية او الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهديء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الغاز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهديء غير الجرافيت ، ليكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالألومنيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بأنه يهديء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الايدروجين الثقيل ، في حين ان الجرافيت يهدى بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات اقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل في حالة الماء الثقيل منه في حالة الجرافيت . ويسمى الفرن في هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدى يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، وأحيانا نجعل الوقود والمهدى في امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا في النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة في ماء عادي ، والماء هنا هو المهدى ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الفني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن في حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالسيوم او البورون ، بل يمكن التحكم في التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخمداد بواسطة القضبان في حالة الفرن الجرافيتي أسرع منه في حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخمداد فرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار في ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤخر الوصول الى الاخمداد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب ان نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون في الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذي وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشيء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبتروال والكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذي هو النيوترون احد مكونات المادة . فالتوالد مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة في الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق ان ذكرنا ، وذلك بخطط الراديو بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدى من سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطيء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطيء باليورانيوم ٢٣٥ احتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم في التفاعل ونسيطر عليه .

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، وأودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا تعقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى أبسط ، فالايديروجين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقدا لا مانع ان يتحرر ، وهذا في تعقده وذاك في تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهى ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقيل أنشئ قصد الأبحاث العلمية ، وتخيز المواد فيه لتخرج مواد مشعة اصطناعيا ، ثم أصف مفاعلا بالماء العادي أنشئ قصد توليد الكهرباء لاستخدامها صناعيا .

فرن ذرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبي الذي رأيته بوجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢٢ طنا ، وقطر العمود ٢٢ سم وطوله ١٦ مترا ، والعمود مغلف بغلاف من الألمنيوم سمكه مليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لمفتاح مثبت في لوحة التوزيع تأخذ الأعمدة شكلا هندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجة جعلت التحكم في مواضع الأعمدة تاما ، فالرحضة تصل الى ٠.١ مم .

تغمس الأعمدة في الماء الثقيل البالغ قدره ٢٤٥ م^٣ والماء في وعاء من الألمنيوم مقفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويلو الماء الثقيل في الأناء غاز الهليوم تحت ضغط ١١ جو .

وهناك قناة تنفذ في الأناء من قمته وتتجه الى قاعه قطرها ١٠ سم. وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخيز أى لِيَتَشَعَّعَ. وتصبح مادة مشعة ، وأقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاح معين مثبت في لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الإخلال بأوضاع الأعمدة الأخرى .

وهناك أربعة قضبان حاكمة ، وهي مادة البورون وقضيبا أمان من الكاديوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ١٥ متر ، يتحركان تلقائيا ، لو زاد الإشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ، وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه في النهاية مسلووبة الطاقة لا تملك منها غير ما يملكه الغاز في درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصف ويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقد كان الفيض في بدايته او في الفرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

أكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠ م^٣ ، كما ان مقدار ما يفقد منه في ٢٤ ساعة من التشغيل ٨ سم^٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم في المنتصف ١٤٠ م^٣ ، كما أن قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بتمر من الجرافيت كعكس ، ويوضع أعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصى .

وفي دائرة الفرن أربع مضخات . المضخة الأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الأناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهليوم مرة أخرى الى الوعاء ، اذ أن الهليوم يمر في دائرة مغلقة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهليوم مع ما تحلل من الماء الثقيل ، أعني مع غاز الأكسجين والإيدروجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحد الأكسجين والإيدروجين الثقيل مرة ثانية ليصبحا ماء ثقيلا ، ويعود الماء مع الهليوم الى الفرن مرة ثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بنية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرة ثانية في دائرة مقفلة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها ماء بارد متحرك في دائرة اخرى بواسطة المضخة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مقفلة اذ يقذف ماؤها الى غير عودة وتسحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء في الساعة (شكل ٦)

يستخدم هذا المفاعل للبحث والتجريب لمعرفة اثر الاشعاعات على المواد ولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

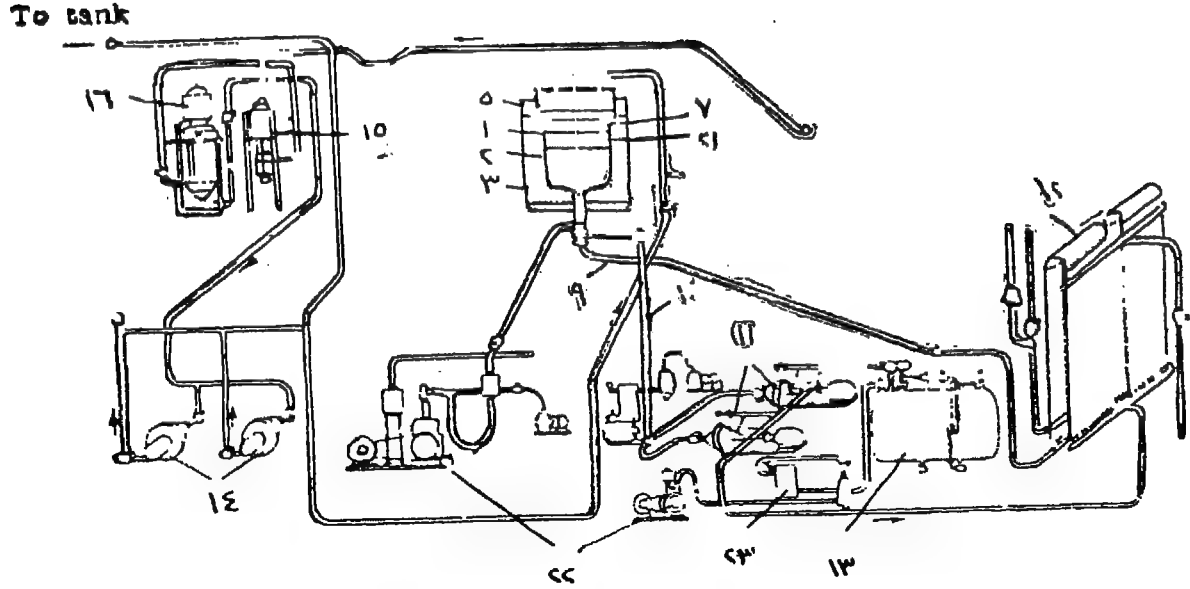
محطة الكهرباء الذرية :

يتلخص عمل هذه المحطة الذرية في توليد حرارة نتيجة للانشطار المتسلسل لقوى اليورانيوم . وتستخدم هذه الحرارة لتحويل الماء بخارا ، ويعمل البخار في ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطة التقليدية التي تستخدم الفحم وقودا هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد في حالتنا من الوقود الذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسم الثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخار المضغوط . اما القسم الاخير فهو التوربين التقليدى الذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سأكتفى بوصف الفرن الذرى ، اذ ان المتبادل الحرارى والتربين لا يختلفان عن مثيليهما في المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

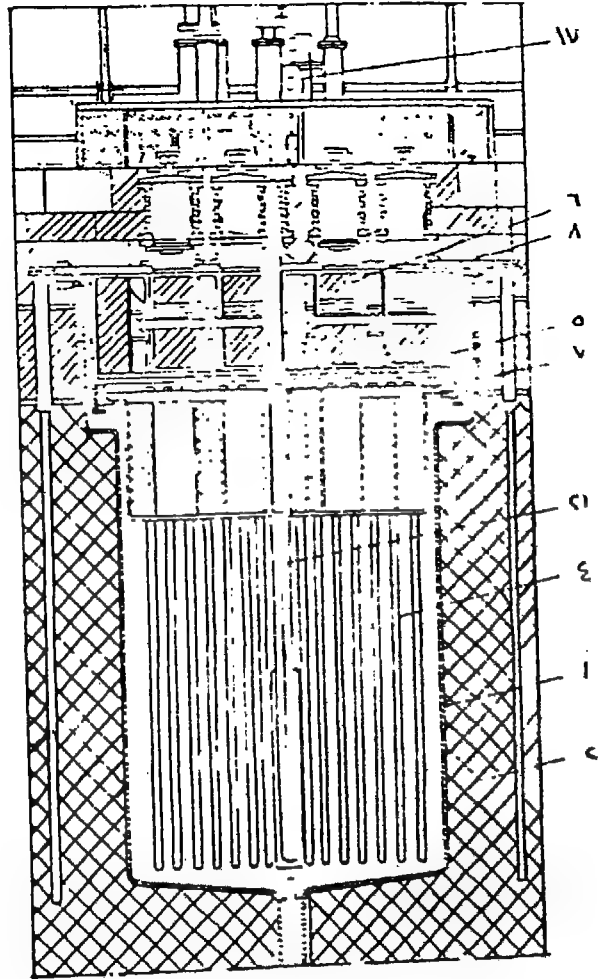
انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلقة من الداخل والخارج بمعدن الصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من أعلى الى جوف الانابيب ، حيث يخرج من أسفلها ليغمرها من الخارج من أسفل الى أعلى ليملا الوعاء الخارجى لانابيب اليورانيوم وعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعاء من الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٦٥ م محاط بمتر من الماء يليه ثلاثة أمتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن أقراص مثقوبة عند منتصفها من اليورانيوم الفنى بالنظر ٢٣٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الأقراص فوق بعضها لتكون انبوبة اشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٢٥ م وقطرها الخارجى ١٢ سم . ويزن اليورانيوم بأكمله نصف طن . نسيت أن أقول أن كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة من الجرافيت قطرها الداخلى ١٦ سم وقطرها الخارجى ٦٥ سم ، ويفطى سطحها الخارجى بالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلى عاريا ، أى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويمر فى داخل الوعاء ويغمر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرج حيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه فى درجة حرارة قدرها ١٩٠ م ٥ . ويأتي الماء مضغوطا من بالون من الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفرن ، ويحوى البالون أنابيب طول كل منها ٥٥ م وقطرها الداخلى ٢٠ سم ، ويملا الربع الأعلى للانبوبة هواء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبل وصوله الى الفرن ، ثم يمر منه الى المتبادل الحرارى حيث يعود مرة اخرى فى دائرة مقفلة .



شكل (٦)

رسم توضيحي لفرن بما تقييل :

- ١ - صهرج
- ٢ - عاكس من الجرافيت
- ٣ - صهرج خارجي من الصلب
- ٤ - اعمدة من اليورانيوم
- ٥ - غطاء واق من الرصاص
- ٦ - فضاء
- ٧ - لوح دوار
- ٨ - غلاف من صلب لا يصدا
- ٩ - انبوبة ضغط
- ١٠ - انبوبة صرف
- ١١ - مضخة
- ١٢ - متبادل حراري
- ١٣ - صهرج تخزين
- ١٤ - ضاغط غاز الهليوم
- ١٥ - مكثف
- ١٦ - جهاز ادماج (عكس التحليل)
- ١٧ - سحب للفضيان الحاكمة
- ١٨ - درع جانبي
- ١٩ - قناة جانبية للتجارب
- ٢٠ - عمود حراري من الجرافيت
- ٢١ - قناة راسية للتجارب
- ٢٢ - مضخات تبريد
- ٢٣ - مصيدة ازوت سائل



يتبخّر ماء في دائرة أخرى تحت ضغط ١٢٥ جو ، وذلك عند المتبادل الحراري ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الأولى . وقد وجد أن البخار خلو من الإشعاعات . ويذهب البخار الى تربين من النوع التقليدي ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب الى المتبادل الحراري مرة أخرى ليعود سيرته الأولى بخاراً لبدأ دورته من جديد . وحركة الماء في الدائرة الأولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار في الدائرة الثانية ٤٢ طن في الساعة ويستعمل في دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طن في الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثية آلاف دورة في الدقيقة .

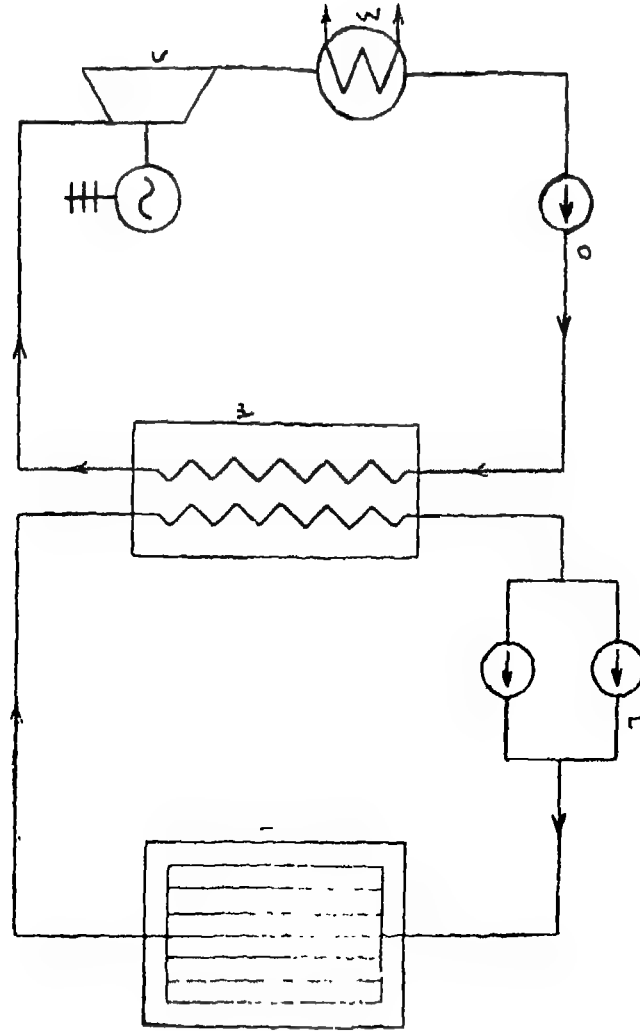
ويضبط الماء الداخل في كل أنبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتتساوى درجات الحرارة في جميع الانابيب ، وتضبط كل أنبوبة على حدة ومقدار ما تأخذ الانبوبة من الماء في الساعة هو ٣ م ، والتهوية لازمة اذ يتغير الهواء في الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة في الساعة ، والقضبان الحاكمة في الفرن من كبريتيد البورون وكذلك قضيبا الامان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من الدرة (شكل ٧) .

التسمم والخلفات :

يتلقى اليورانيوم في الفرن الذري ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الالومنيوم الذي يلف اليورانيوم ، وينشط نوى اليورانيوم ٢٣٥ الى شطرين ، والنوى المتولد نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكريبتون والسترونشيوم والاكزينون وغيرها . تتكون هذه العناصر في أنابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للانابيب انها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الانابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضع شهور من التشغيل ، ولا أقول لتفصل الأنابيب المشعة المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل أقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة او ماتسمى بالخلفات الاشعاعية ، اذ هي مواد نشطة نشاطا اشعاعيا ، أقول هذا ولا ادخل في الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لفلان الالمنيوم لانبوبة او اكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالمواد الاشعاعية ، وهنا الاشكال الاكبر في كيفية التخلص منها ، هل نقدفها في أعماق البحار وقد أصاب الفزع الاسبان عندما اشيع ان غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم ندفنها في أعماق رمال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف اكبر من تلوث البيئة والجو بالإشعاعات ، وقد استأنسنا التفجيرات الذرية ، ولكن من يدري فربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الاعرابي الذي استأنس ذنبا وبعد ان اطمان اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخطبه قائلا « ومن انباك أن اباك ذيب » ؟

أقول هذا لابين أن الخير في استخدام الطاقة الذرية في الأغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر على تلافيه والعمل على عدم ايقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقى البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمحطة كهربائية ذرية :

١ - المفاعل

٢ - التبريد

٣ - المتبادل الحرارى حيث يتولد البخار .

٤ - المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .

٥ - مضخة للدائرة الثانية .

٦ - مضختان للدائرة الاولى .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان في بداية وجوده على الارض شيئاً مذكوراً ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيراً بآتيه الحيوان بغيرته . ولعل اكبر دليل على مستوى التفكير الانساني في ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوارى سواة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رأى غراباً يهيل التراب على اخيه الغراب . . .

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات مما حوله ويعدل في طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض . . . ولعل أفلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » في ذلك الوقت الى عدم دراية الانسان الاول بالزراعة . . . ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية ، وتغيرت البيئة تغيراً كاملاً ، غيرها العلم ثم جاءت الحشرات ترعى ، واتى الجراد على الاخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن تلتهمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشرية والاشعاعات الذرية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارئ ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان في ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصاً ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجيء ، فالحجرات المكيفة الهواء محاولة من هذا النوع ، وانى أشعر ان البيئة التي تقاس على الانسان تتنافى والفطرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لابد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل في الفضاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لابد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد ان يغوص في البحر لابد له ان يعد العدة ليتقى الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزمن محدد. أما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . . . ونتساءل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش في الجو الحار؟ . . . وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش في المناطق القطبية ؟ اعدت حجرات لتمثل هذه المناطق ، وأجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة يعتد بها ، وانتهى بعضها الى أن الانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه أينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم في الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد أكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وبأن أيضاً ان الاسكيمو لا يأكلون أكثر مما يأكل غيرهم . . . ولكن العمل الشاق هو الذى يتطلب كميات أكبر من الطعام . . . وبأن أيضاً ان الزيوت والدهون ليست أساس طعامهم ، فلو أتيح لهم طعام آخر لاكلوه ، ولكن المتحكم هو ما في متناول اليد من طعام . . .

هناك حالات تأقلمت مع تغيرات تناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله أن سوّى الإنسان حسب بيئته ، اذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذى يصل الى نصف لتر في ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احدهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة اسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو أكثر ، وفقدتها للحرارة اكبر ، وتبخر العرق منها أكثر ، فكان الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة اقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم في تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويضيق بهذا وذلك ويظل في صراع ، وسيظل في صراع ابدى حتى يحدث الله امرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعل تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان في صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفي نقيض . فالعلم يبني ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تلوث البيئة ولنجا مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم الينا نتاجا نظيفا لاغبار عليه .

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون في اثوابها الفول . فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة اخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المخفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالفارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقد والمخفية قدر النقود المستحدثة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لاتحدت في الكم والعدد ايضا . وأسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه في مداخن المصانع وافران الخبز ، وفي عادم السيارات وفي غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبتروول وما أشبه . والطاقة الحرارية أيضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى . اذ تتحول الى طاقة أخرى بمقدار وعلى شروط . فالآلات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لها مصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقدف بالاجزاء الباقية الى مستودع ، ولا تعمل الآلة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجتا الحرارة - درجة حرارة المصدر ودرجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقدوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة اخرى ، ويستحيل عليها ايضا اعادة ما فقدته المصدر تلوثا من دخان وجسيمات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتي دور العلم الذى انتج الآلة التي أفادت البيئة ربا وزرعا وحصادا ، أو غزلا ونسجا ولبسا، يأتي دورة في صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرعاها ويكلأها بعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الذى أنشأ الآلات التي أفادت في تعمير الأرض باستحداث أدوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات أجهزة لمنع تلوث الجو الذى يستنشق هواءه وأجهزة لمنع تلوث الأرض حيث يشرب مأؤها ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثيرا عند ازالة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذى يخرج من المداخل فنرى قبل تنقيته لينتشر في الجو نظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منها من غير سوء لا يثير أنفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحثت أضرار عادم السيارات في « لوس انجلوس » إحدى مدن الولايات المتحدة الأمريكية ووجد ان في المدينة وقتذاك ٣٥ مليون سيارة تستهلك في المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية من البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من أكاسيد الازوت بالإضافة الى ٩٠٠٠ طن من أول أكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جو مدينة « لوس انجلوس » . ولكن ما اثر كل هذا على الانسان . . أجريت أبحاث ووجد ان العين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات في العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥ ر. جزء من مليون جزء من هواء المدينة، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد أصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحلله نلحظ انه على وجه التحديد نجد ان خمسة في المائة من هوموجلوبين دم كل فرد خمل وفقد نشاطه ، وذلك عندما يصل أول أكسيد الكربون في جو المدينة الى ٣٠ جزءا من مليون جزء من هواء المدينة وبقي الأكسيد في الجو ثماني ساعات ، لذا كان حتما واجبا ان يحاول الباحث التخلص من التلوث كلية أو ازالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعة السيارات ، وقد لاحظوا ان أكثر من ثلثي العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة أقدر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا رؤى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنع التلوث او تقليله ، ان يعاد احتراق العادم قبل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلق . والعادم عبارة عن غازات الازوت والاكسجين وثنائي أكسيد الكربون وبخار الماء وأول أكسيد الكربون وكربوهيدرات وأكسيد الازوت وأكسيد الكبريت .

وهناك طرق مختلفة استحدثت لمعالجة العادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بواسطة شمعة اشعال وينطق شكل (١٨) عن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشئ بالشئ يذكر ، لذا اشير الى طريقة أخرى يستعمل فيها عامل مساعد لتحترق الغازات غير كاملة الاحتراق في درجة حرارة اقل منها في الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تفيننا عن الشرح .

معييار انتلوث :

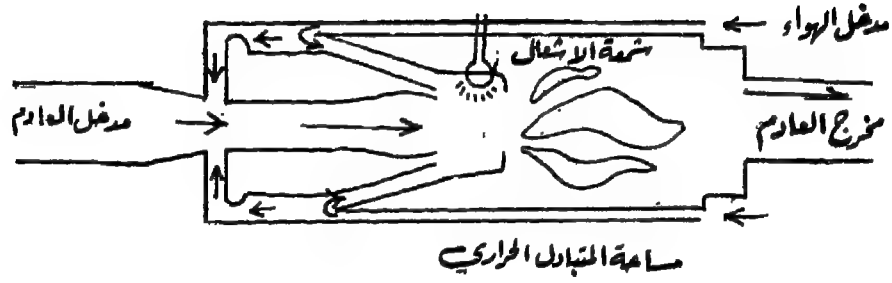
ترتاح النفس العالة الى الدقة في القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن الباحث الى ثلاثة مناسيب عيارية للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب انذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منسوب الاستعداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير في وظائف اعضاء الجسم . يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجيء حاد . ولواردنا دقة في القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
اول اكسيد الكربون	—	١٢٠	٢٤٠
اثيلين	٠.٥	—	—
كبريتيد الهيدروجين	٠.١	٥	—
ثاني اكسيد الكبريت	١٠	٥	١٠
الكاربوهيدرات	٠.١٥	—	—
ثاني اكسيد الازوت	٠.١٥	—	—
مؤكسد	٠.١٥	—	—
اوزون	٠.١٥	—	—
دخان	٠.١٥	—	—

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) . على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجين ، ومنسوب الاستعداد في حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما في الجدول (١) حيث لا اتفاق بين الباحث على رقم بعينه لذا جاء الجدول ادردا كاسنان المعجوز .

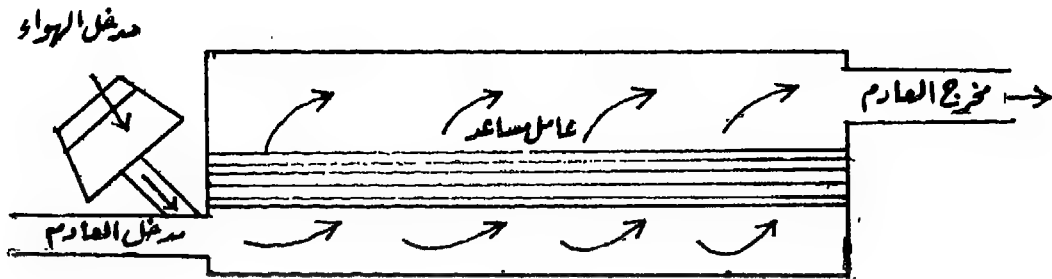
ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيد الكبريت في دخان المصانع ومحطات القوى ، ونخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (١٨)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احدهما وترعرت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت في مراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوث مباشرة من الفلاية شكل (١٩) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الموقد ماء الفلاية وفي الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب) مأخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هو خارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لاعادة تسخين الغاز الخارج .

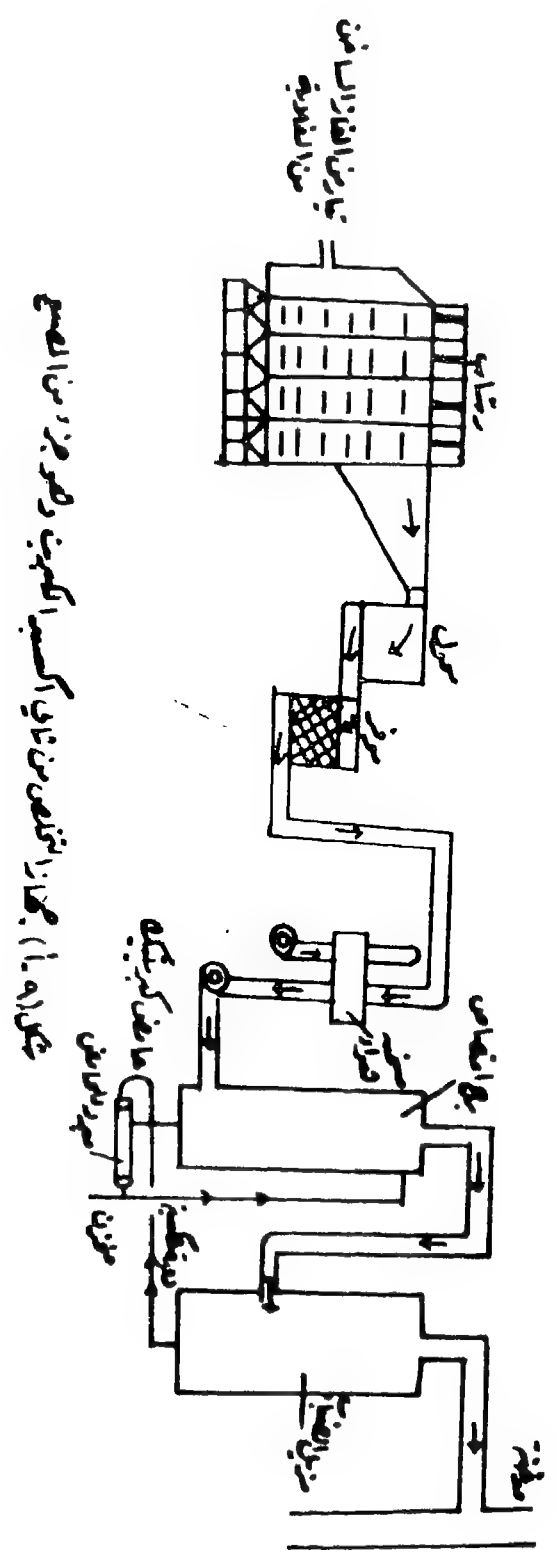
وجد ان الطريقة الاولى تزيل ٩٠٪ من ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدي الى ازالة في حدود ٨٥٪ .

يفصل في كلتا الحالتين في الطريقة الاولى والطريقة الثانية يفصل الرماد والحبيبات شكل (١٠) أولا بواسطة عملية الفصل الميكانيكي ثم الترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحول في شكلي (١٣ ، ١٤) حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد في رفع اكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبح بخار حامض كبريتيك ، حيث يبرد في برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهي ازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحواله الى سائل .

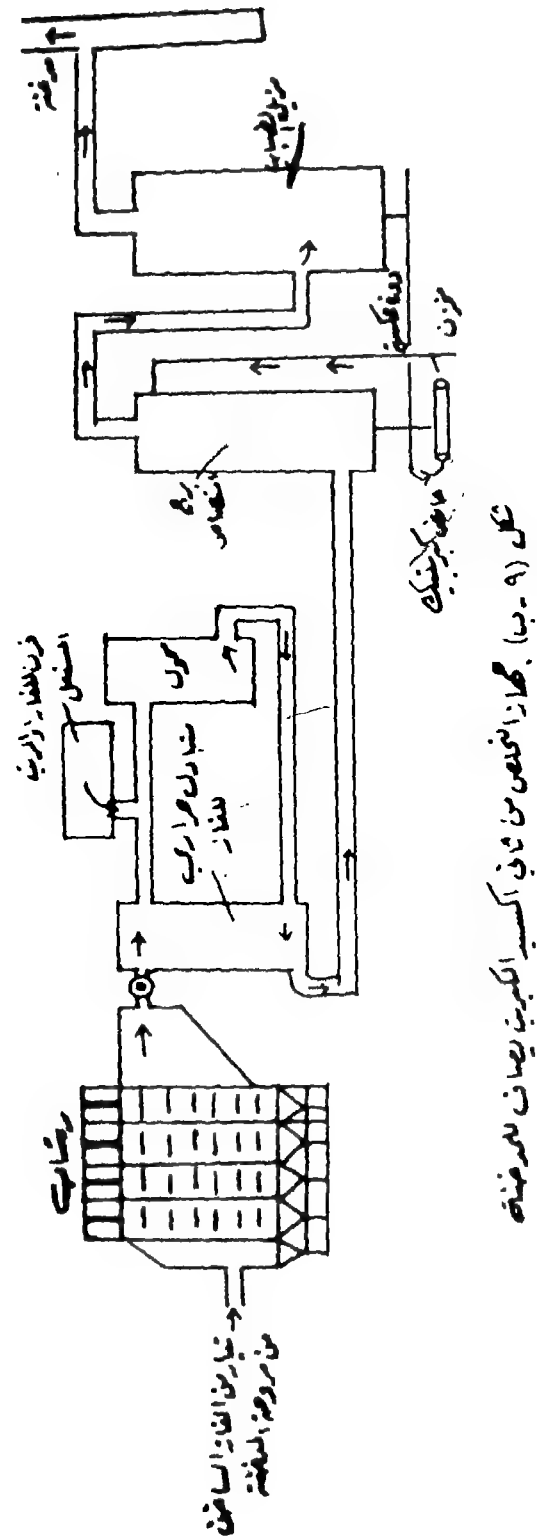
الانسان المتهم

غريب امر الانسان يلقي التهمة على الآلة وهو المتهم الاول المتسبب في التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التي يعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه من المهد الى اللحد .

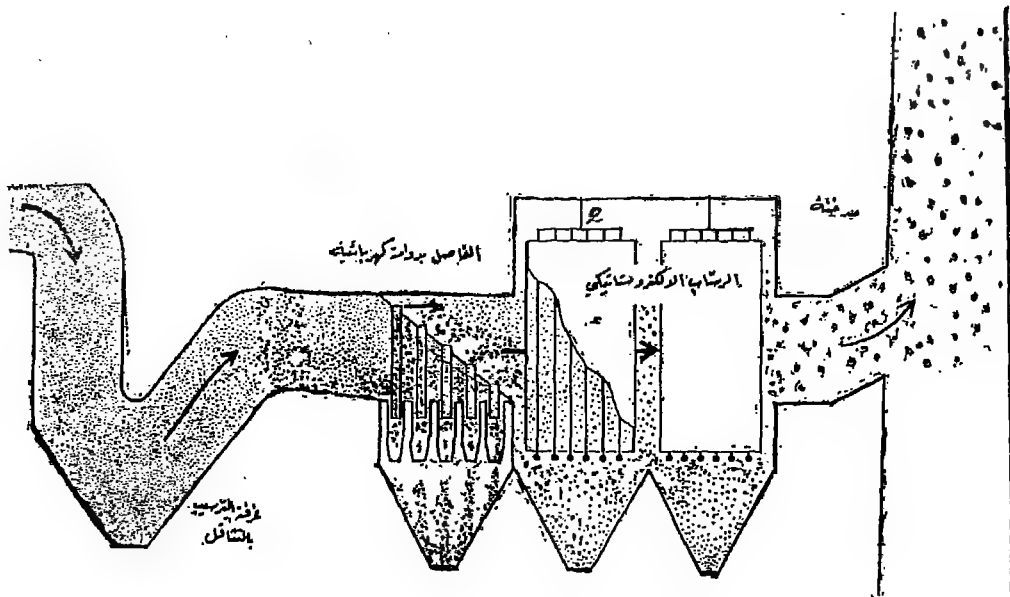
دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ من الاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا في كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون . ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجه متنفسا ليعيش ويعيش ابناءؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهرناهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو في عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عملية عكسية لتنفس الانسان فحصول العملية ظهور مادة محبة للحياة هي الاكسجين الذي يخرج الى الجو المحيط بديلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لونه الانسان اثناء تنفسه فهو مسئول اولاً واخيراً عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكن لا يزال يعترينا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي اكتماش الرقعة الخضراء من الارض ، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم الباحث في التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يُسمح به ،



شكل (٩.١). جهاز التخلص من نفايات أكسيد الكبريت وهو جزء من المصنع



شكل (٩ - ب). جهاز انحداس من شافي أكسيد الكبريت يضاف للمركبات



شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الافران وتناين ذرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف في هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الابحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول انها تقل وبسوء الاداء كلما كثر التلوث في الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه ونقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم في لندن لانه اعتبر وبحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

انواع التلوث

قسم التلوث الجوي الى نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبته من مركبات الكبريت الناتج من احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو اخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني اترك الامر لاحساس القارئ وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخل وما يخرج منها ، ومن جهة أخرى لو نظرنا الى اثر حركة مرور السيارات في مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكربوهيدرات واكاسيد الازوت في الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (ج) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (ا) ولكنني ساكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي اخطر الفصيلتين .

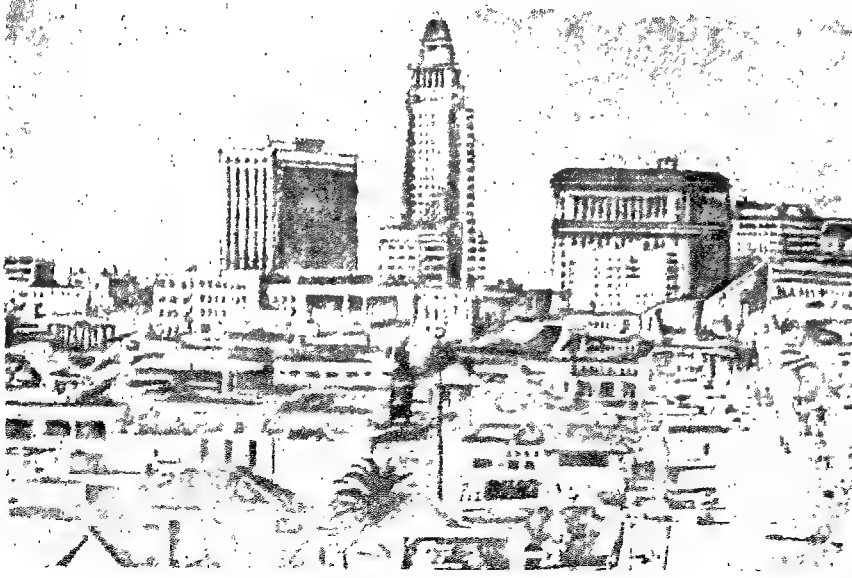
لندن والتلوث

اثبت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت في عام واحد نتيجة تلوث الجو أكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب في الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث في جوها الى ثلاثة اصناف : **جزيئات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** ويبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسابه اذ يزن الهواء الجوي ٧ره x ١٠ ١٥ طن ويصل مقدار التلوث الى ١٠ ٨ طن . ولعلماء الانجليز طريقة في التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب - (١٠ - ٦ جم م - ٣) ويبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث في لندن في ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث في هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثاني اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من القبار والحبيبات الخشنة في السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر في جدول (٤) .

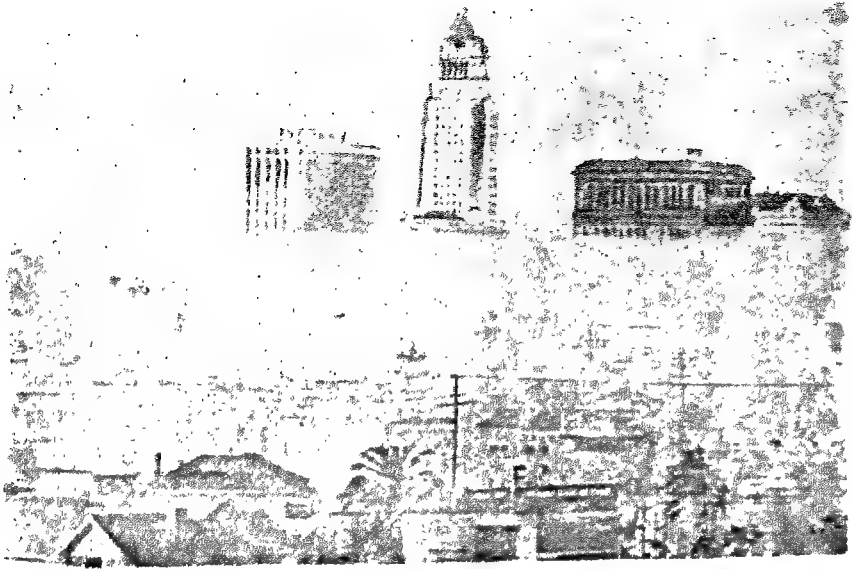


(شكل ١١)

منظر عام للمباني السكنية وهي مصدر من مصادر التلوث .



(شكل ١١٢)



(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة نوس انجلوس .

(أ) في يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) في يوم حار ترتفع في الغازات الملونة الى اعلى .



(شكل ١٢ ح)

(ج) في يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من أول أكسيد الكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات من حافلات الطريق . وهناك مقارنة بين التلوث في العالم ككل والتلوث في المناطق الأكثر تقدماً ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ° ٤٠ ° ٦٠ ° نراه في جدول (٧) ونلاحظ من هذا الجدول ان التلوث من ثاني أكسيد الكبريت من صنع الانسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الدئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

أصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقة جدا	جسيمات مرئية
الملوثات المنتشرة في انجلترا البعد النموذجي خواص	ثاني أكسيد الكبريت تقاس يوميا ١٠ - ٧ سم تختلط مع الهواء غير مرئية أكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ - ٥ سم تطفو في الهواء لا ترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وجسيمات خشنة تقاس شهريا ١٠ - ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحس في الانف والقصة الهوائية
المصدر	الوقود كل انواع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدامات المنزلية	كل ما يفضي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لها اهمية محلية	أكاسيد الازوت أول أكسيد الكربون في تراكيمات راكدة المروور	رذاذ حامض كبريتيك ضباب دخان الديزل الابخرة في الصناعة	الانربة في الصناعة من المصنوعات من التخزين

جدول (٣)

دخان وثاني اكسيد الكبريت في ٦١٠ طن

السنة	←		
دخان	من الفحم	١٩٢٨	١٩٦٠
	منازل	١٩٧٤	١٩٢١
	قطارات	٠.٢٦	٠.٧
	صناعات وغيرها	٠.٧٥	٠.١٩
	مجموع	٢.٧٥	١.٤٧
ثاني اكسيد الكبريت	من الفحم	١٩٢٣	٠.٩٢
	منازل	٠.٤١	١.٥٦
	محطات قوى كهربائية	٠.٣٧	٠.٢٦
	قطارات	٠.٣٢	٠.١٤
	نقلات فحم المناجم	١.٣٥	١.٢٢
	صناعات وغيرها	٠.٧	٠.١١
	افران كوك	٠.١٤	٠.١٦
	صناعات الفاز		
	مجموع	٣.٨٩	٤.٣٧
	من الزيت	٠.٥	ضئيلة
	منازل	٠.١	١.١٧
	صناعات وسوق التجارة	٠.١	٠.٥
	طرق وقاطرات	-	٠.٤
	بواخر داخلية		
	مجموع	٠.٦	١.٢٦
	من الكوك	٠.٦	٠.١٠
	منازل ووقود بغير دخان	٠.١٨	٠.٢٦
	صناعات		
	مجموع	٠.٢٤	٠.٣٦
المجموع	الكل لثاني اكسيد الكبريت	٤.١٩	٥.٩٩
		١٩٦٨	١٩٦٠
		٠.٧٥	٠.٧
	ضئيل	٠.٩	
		٠.٨٤	
		٠.٦٠	
		٢.١١	
		٠.١	
		٠.٧	
		٠.٧٧	
		٠.٩	
		٠.٧	
		٣.٧٢	
		٠.١	
		٢.٠١	
		٠.٩	
		٠.٢	
		٢.١٣	
		٠.١٤	
		٠.١٥	
		٠.٢٩	
		٦.١٤	

جدول (٤)

الفبار والحبيبات الخشنة في ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقد منزلية	٠.١٤٥	٠.١	٠.١٠
محطات قوى	٠.١٤٥	٠.٤	٠.٣٢
قطارات	٠.١٤٥	٠.١	-
فحم وكوك يستعمل في الصناعة	٢١٥	٠.٢	٠.١
المجموع	٠.٦٥٠	٠.٨	٠.٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٠.٥	٠.٥	٠.٥
المجموع الكلي	١١٥	١٣	١١

جدول (٥)

اول أكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

٦٠	من الصناعة
٥٠	المنازل
٦١	آلات بترولية
١٠	آلات ديزل
١٧٢	المجموع

جدول (٦)

التلوث من حافلات الطرق في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

نوع الآلة	آلات بالبترول	آلات بالديزل
أول أكسيد الكربون	٦١	٠١٠
كاربوهيدرات	٠٣٠	٠١٨
الدهايد	٠٠١	٠٠٣
أكاسيد الأزوت	٠٢١	٠٠٥
ثاني أكسيد الكبريت	٠٠٢	٠٠٣
المجموع	٦٦٤	٣٦٣

جدول (٧)

التلوث الكلي في ٦١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنع الانسان	العالم	مناطق متقدمة بين خطي عرض ٥٣.٠ ٥٦.٠
ثاني أكسيد الكربون	٥١٠ × ٢	٤١٠ × ٢	العالم	_____
أول أكسيد الكربون	٢١٠ × ٢	٢٢٠ × ٢	العالم	_____
ثاني أكسيد الكبريت	مهم	٢١٠ × ١	_____	مناطق متقدمة
أكاسيد الأزوت	٢١٠ × ٢	٥٠	_____	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٢١٠ × ٣	٩٠	العالم	_____
جسيمات	٢١٠	٢١٠	_____	مناطق متقدمة

التلوث في الميزان

تضاربت الآراء واصبحنا في احتياج الى المزيد من الابحاث حتى نصل الى رأي حاسم عن مدى اثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتور باتريك لوثر مدير وحدة تلوث الهواء في مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويه دم الذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلة وبغير افراط من اول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دم المعرضين لحركة المرور في لندن ولعدة ساعات .

ومن الغريب اني قرأت تقريراً لرابطة المستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحاث اجريت في نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الدهني لاربعة من الشبان أثناء استنشاقهم هواء على علو ٣٧٥ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقرير عن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يرى فريق ان جملة جرعات صغيرة من اول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسماً ، لان اثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريق آخر غير هذا الرأي ، وتسرب الشك ايضا الى ثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز في سبب موت آلاف في لندن سنة ١٩٥٢ وقد نسب السبب حينذاك الى الضباب المكثرت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة ١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط رغم تشابه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا انه قد صدر قانون انجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القرار وكان من نتائجه تقليل الدخان القائم ، حتى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلاف الآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان اول اكسيد الكربون سام ، وان البيئة تضررت تماماً بالتلوث . وان انس لا أنسى رؤيتي من سنين مضت العديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحة كبيرة في ميناء بيريه باليونان . .

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية في اغلب بلاد العالم ، بل أصبحت أبحاث تلوث البيئة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيق للجميع لصالح الانسان والبشرية .



البَيئة والجَرِمة

تشغل الجريمة في عصرنا الراهن - كما شغلت دوما في الأزمنة السالفة - بال كثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفت خطورتها وتفاقت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تبانت اتجاهاتها أو اختلفت درجتها في التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقت مع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى في هذا الدول المتقدمة والآخرى النامية، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم أو التخلف ، فأثر هذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور في ذاته يؤدي الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطى سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين في المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدناه في الجرائم التي برزت حديثا بشكل ملموس - لا سيما في أعقاب الحرب العالمية الثانية - وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة .

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنة أو أنها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما في الامر أن الجريمة تختلف في مفهومها وفي مدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينة في وقت معين وفي مكان معين . والعدوان هو الاساس في الجريمة ، بل هو الاساس في كل الافعال التي تلحق بالغير ضرا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الفرائز التي قضت حكمة الله سبحانه وتعالى ايجادها في الانسان ، تلك الفرائز التي لن تزول الا ببناء الانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه أن يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح . وفي سبيل البقاء ينشب العدوان الذي هو أساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الفريزة . واذا اردنا تقصى اسباب الجريمة والبواعث عليها لانتهينا معها الى الفرائز البدائية في الانسان . ولهذا فمن الملاحظ أنه كلما تهذبت غرائز الانسان قل عدوانه ، وتبعاً لهذا انكمش نطاق الاجرام دون أن ينعدم .

واذا كانت الفرائز هي المحركة لكل عدوان فهي ايضا المحركة لكل دفاع في مواجهة العدوان ، ففريزة البقاء التي تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما كان في تصرفه من مساس بغيره هي بذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان في هذا مساس بالمعتدى . وهذا هو الاصل في نظرية الدفاع الشرعى ، التي تقرها التشريعات جميعا على أساس أن المحرك للدفاع المتمثل في اعتداء هو الفريزة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الانسان . ومتى كان الامر كذلك فالجريمة مرتبطة بالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة - على اية صورة كانت - غير مقبول .

والعدوان في الصورة التي عرضناها ، هو الذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعزل عن غيره انعزالا كاملا لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى أن الانسان وجد دائماً في مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور العدوان - مع تطور المجتمعات - بدأت تتغير ، واثرها لم يعد قاصراً على من وجهت اليه افعاله ، بل أصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بأن عليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لها كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيها فريزة المحافظة على بقائها - وهي ذات الفريزة التي دفعت الانسان للمحافظة على نفسه - ووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجهه اليها بطريق مباشر أم وجهه الى أحد أفرادها فلحق بها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذى يثير كثيرا من التساؤلات ، اولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة في هذا النطاق . وغاية البحث هي تعرف مدى العلاقة بين البيئة والجريمة وتأثير كل منهما في الآخر ، وقد مر ما تمثله البيئة في السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فاذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة في موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء في ذلك بارادته، كالأكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لارادته دخل في ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعنينا في هذا المقام النوع الأخير ولكن يهنا بالدرجة الاولى النوع الاول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الاثر في المحيط الخارجي والتي قد تؤثر في الجماعة المنتمى اليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات أو رغبات له ، يستوى في ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم أمرها ، أم الخافية الناشئة عن انفعالات أو خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق في شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . وإذا كان الانسان فردا في مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه في نوااميسه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التغير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لرد فعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواعمتها لطبيعة تكوينه أو عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يرتبط بموقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، وأخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفر منها . والنوع الاول من التصرفات ينطوى تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص - والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز - وهو الناشئ عن التكوين العضوى لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لارادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل في هذه التصرفات قاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى أنه لا يتدخل في أمرها مادامت تتم في حدود النوااميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النوااميس والقواعد والنظم، التي تضعها الجماعة ولا يقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل انه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدي اليه من بقائه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التي تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمد الاساسية في بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التألف والتآخى بين أفرادها ، والتعاون المثمر الذى ينعكس اثره على أمر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

(١) يرى بعض الباحثين ان الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الاجرامي يوجب العناية التامة باظهار الحقائق ، وببدا من الاندفاع في سياسة عقابية يمين النظر بعقوبة الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صبغة اجتماعية وبيئية مؤثرة في السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون مايز ص ٩) .

والنوع الأخير من التصرفات يتعارض مع النواميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضاد من الجماعة متنوع النوع والمقدار دفاعا منها عن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالانسان خلق كل منهما وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل ما يهدد كيانه . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فى حركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوع به بهدده ، فالشأن كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانه لدرك كل ما من شأنه أن يؤثر فى بقاءه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الانسان ازاء أى خطريته يهدده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أن تصرفه الغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحده اعتبارات عديدة - لعل أخصها درجة العدوان وكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرته - اذا كان الأمر كذلك بالنسبة للانسان فهو الحال أيضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نواميسه وقواعده ونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الأثر يختلف من حالة الى أخرى وفقا لقدرة العدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحق الجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابق كامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه وأثره ، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمكن ضم بعض التصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقارب الذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مع الفكرة آنفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفرد التى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسام استنادا الى درجة رد الفعل الذى يقابل به المجتمع تلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجان جزاء تأديبى ، أو قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضلا عن استهجان المجتمع للتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تتفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عن التصرف الذى يقع مخالفا للنواميس وقواعده ونظمه . فاذا وقفرد الفعل عند مجرد الاستهجان اعتبر التصرف جريمة تأديبية ، أما ان وصل الحد الى أحد الجزاءات المنصوص عليها فى قانون العقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذا يتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقع منافية للمجتمع .

وبهنا بالقام الأول الجريمة الجنائية ، وهى النشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان أو سلبا يقرده القانون عقوبة من بين العقوبات المقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما من شأنه أن يخل بأمنه ونظامه ، يستوى فى هذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم أن اثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قائمة بذاتها تدفع عنها كل ما يهدد كيانها . وهو فى هذا السبيل ينلر بالعقاب كل من تسول له نفسه مقارفة مثل تلك الأمور ، فان أى الفرد واحدا منها ، رغم تحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوبات المقررة فى هذا الشأن - بالتصرف الذى يشكل جريمة جنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتأديبية ، بيد أن خطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقرير

أحدى العقوبات الجنائية . وبهذا أيضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا في التزام المشرع الجنائي والقاضي من بعده بقاعدة أن لا جريمة ولا عقوبة بغير نص في القانون . ومعنى هذا أنه ان انقضى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معيناً فعلاً معاقباً عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخذة الشخص جنائياً .

وليس بالضرورة أن تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية أو الخلقية، لأن هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين أو الأخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية في الدولة في وقت ما وظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة أو تبدلت الظروف التي استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم في ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على أن هذا القول ، وإن كان فيه جزء من الصحة فإنه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر أحد أن هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتاً لأركانها أو تحقيقاً لسياسة معينة تنشدها . وهناك أيضاً من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وإن كان قد يفتن بعض الأفراد الفاية من التحريم، كالجرائم التموينية أو جرائم الضرائب . ولكن إلى جوار هذا يوجد من الأفعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلاً عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وإن كان من بينها ما لا يعد جريمة أحياناً في قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الأخلاقية لأن نواحيها المجتمعية وتقاليدها تأبها . بل لقد ذهب البعض إلى اعتبار مثل هذه الأمثلة جرائم طبيعية لأنها تأتي ضد الطبيعة الموجودة في المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره أثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، إذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجباً اجتماعياً ، وغيرها لا يرى في فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفاً من جانب الفرد في حريته الشخصية .

ويعني في بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن أضفاء صفة الجريمة على نشاط معين أمر نسبي يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت إلى آخر ومن مكان إلى غيره . فمن المسلم به أن هناك من الأفعال ما يعد جريمة في دولة ما في حين أنه من الأفعال المباحة في دولة أخرى ، بل إنه في الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع في سياسته وينقله إلى قائمة الأفعال التي لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا من بعد أن يعود إلى الجريمة مرة أخرى .

وتختلف التشريعات في تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائي فالجريمة تكون على نوع من اثنين إما جنائية أو جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثي للجرائم - الجنائية والجنحة والمخالفة - ومن بينها التشريع المصري . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لأنها من البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكتفى القانون في الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائي في مرتكبها ، أى أنه لا يتمثل فيه أو فيما وقع منه خطورة شديدة على المجتمع .

أما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح أقل منها في هذا المقام ، إلا أن هذا لا ينفي أن اهتمامات البحث في عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الأسرار الحربية الى دولة معادية أشد خطورة في نظر المشرع من جريمة قتل ترتكب اخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فان الباحث في عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الأخيرة وحدها . وإذا كانت الجنايات والجنح لا تتساوى في أهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التي لا يشعر مقارفها أحيانا بتأثير الاجرام حين يأتي أحد الأفعال المكونة لها بسبب عدم ادراكه للفائدة التي يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ في اعتباره الا القدر من المال الذي يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التي تحدد الجريمة التي تكون محلا للبحث ، ولا شك في أن الجريمة التي تثير الاهتمام تكون قد وصلت في المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن أن لها من العوامل ما يمتد جذوره في الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتمام اليها ، أى أن يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصالح لوقوع الجريمة ، وكأن الجريمة المعنية أصبحت آفة المجتمع يستحق الجرى وراءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التي ترتكب بصفة عارضة تخرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهي جرائم - قلت أم كثرت - ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من أى فرد وفي أى وقت دون أن يجمعها ضابط معين يمكن الاهتمام به او البحث عن أسبابها للعمل على مكافحتها .

وإذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليدة حاجاته ، فان تحديد الجريمة يهتدى فيه بالدرجة التي وصلت اليها والتي تقاس باستنكار المجتمع لها - كله تقريبا وفي كل وقت - واحساسه أنها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى أن تكون الجريمة المعنية موجودة في كل الدول ، بل هي قد توجد في دولة ولا تتوافر في غيرها . وعلى سبيل المثال اذا أردنا تطبيق المقياس السابق على الجريمة في مصر لوجدنا أن أخطرها جريمة القتل ، لا سيما ما كان منها متصلا بالثأر . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التي تنتشر في المجتمع بصورة مذهلة ، حتى حركت كثيرا من الأجهزة الباحثة وراءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك أحد في خطورة جرائم المواد المخدرة . وأخيرا تأخذ الجرائم التي تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التي تكون محلا للبحث ، لأنه كما يقال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعايته وتنويره حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة في موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة مادية نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع ، وهو لا يقف منها عاجزا وانما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . ورد فعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الأثر الظاهر لتصرف الانسان - أى الجريمة - ولا شك في أنه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها ، وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل في معرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فان البحث في أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفى التخصصات . فلقد شارك في الدراسة والأبحاث فلاسفة وأطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعاً لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه في أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال أرجع لومبروزو - الذى كان يعمل طبيباً - عامل الاجرام أساسا الى التكوين العضوى للفرد . وفضلا عن هذا فان اختيار الانسان لطريق معين في بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسر له الاستعانة بها ، وأقرب الأدوات اليه هو ما تمده به حياته العملية (٢) .

واذا كان الانسان فردا في مجتمع ، وكانت الجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما اذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) (٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة في ارتباطها بالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن في المجتمع نفسه ، وكان ذلك في قصته الشهيرة (Wopia) وهي مستوحاة من المدينة الفاضلة لأفلاطون . ووصف توماس مور الظروف التى كانت تعيش فيها إنجلترا آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، وأشار الى وجوب تعرف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صور عوامل الاجرام ذكر الحروب المستمرة التى أسفرت عن المحاربين العاطلين . وقال أن العامل الأساسى يكمن في ظروف الحالة الزراعية ، ذلك أنه بعد إنتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية أملاكهم الى مراعى للفنم ، وترتب على هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع في وهدة الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الشراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد إشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر منتسكيو أن المشرع الناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها أكثر منه بالعقاب عليها . وكتب روسو أن الفقر هو أهم الجرائم الكبيرة ، وأن المجرمين قلة في ولاية

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بيناتل ، ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيمًا حسنًا . كما ذكر بكاربا أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفي كتابات بنتام نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو أن تمنع الجريمة لا أن يعاقب عليها . وعدد صوراً من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمور التي اعتبرها من الاسباب الهامة . وفي صدد الجرائم الاقتصادية يحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا أصبحوا مجرمين ، ولن يقعدهم عن هذا الطريق أى تهديد بالعقاب .

وبعد أن أرسيت الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة في الدراسات الاجتماعية ، وفي ضوءها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة في الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد أندريه جيري في فرنسا (١٨٠٢ - ١٨٦٦) ما يسمي بالاحصاء الاخلاقي ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسن من ناحية ، والاجرام من ناحية أخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة في فرنسا التي انضح منها أن بالمناطق الفنية أكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية - والذي أيده فرى - حيث أكد أن الجرائم ضد الاشخاص تغلب في الاقاليم الجنوبية خلال أوقات الحر ، وأن الجرائم ضد المال تغلب في الاقاليم الشمالية اثناء فترات البرد (٥) .

وأبان أودلف كاتليه (١٧٩٦ - ١٨٧٤) ثبات أية جريمة من عام الى آخر حتى في تفاصيلها . أو طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التي وقعت في فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد في كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادي ، كالقتل الذي يحدث فجأة وبلاية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلية ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بان على كل مجتمع أن يعد نفسه على أساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهو ما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث كاتليه أيضاً بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة في الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (٦) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على أساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

(٥) ستيغانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، وأشار الى معارضة البعض لهذا الرأي حيث أن الجو يرتبط بظروف اجتماعية . فلي بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تبعاً لهذا الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين أن الظلام في ليالي الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع أيضاً بوذا وبناتل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى أنه لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي ، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صداه على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء . وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشئ عن عدم استقرار الأئمان والاجور والاسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب ، ويؤدى تحسن الظروف الاقتصادية الى نقص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدى الى زيادة تلك الجرائم .

ومن أشهر المدارس فى بحث عوامل الجريمة المدرسة الإيطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على أن الظواهر الاجتماعية - شأنها شأن الظواهر الطبيعية - تنشأ وتتتابع وفقا لقواعد تحكمها وترتبط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغى الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوى لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا في عديد من النقاط .

فلقد اعتد لومبروزو ابتداء بالميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد اعتد بالظروف الاجتماعية ، وقال أن لكل جريمة أسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب ألا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد ، ومن بعد هذا اعتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص أقل شراسة ، وتميزت بأنواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

واعتمد فرى بالعوامل البيولوجية وأضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وأنواع الجرائم المرتكبة ، وقسم المجرمين الى خمسة أنواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالمعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فرى مبناها تساؤل هو انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تكون مصدرا للجرائم فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسيرون في طريق الجريمة بينما لا يسير غيرهم فيه ، والجميع يخضعون لمؤثرات واحدة . وفي رايه أن الجريمة ظاهرة ذات أساس معقد بين عضوى ونفسى واجتماعى ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فرى عوامل الاجرام الى ثلاثة أنواع انثروبولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه المجرم ، أى السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعى والمنظمات

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشبع الاجرامى اى أنه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جاروفالوان الجريمة نتاج عيب شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها المشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقى العام الذي اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رايه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علاقتها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، فمعرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير فى تقدمها شيئا لازدياد الاجرام، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الايطالية انها حصرت اسباب الاجرام فى نوعين **اولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **وثانيهما** اسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التي يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا فى هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على اساس أن الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذي توجد فيه ، فالسلوك الاجرامى ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصى ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزءا من الوسط الاجتماعى الذي يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروبا هو المجرم الذي ليست له أهمية الا من اليوم الذى يجد فيه التربة الصالحة لانياته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من العسير وضع تقسيم يحدد معالمها .

ومن اقطاب هذه المدرسة لاکاساني (٨) الذى قال عبارته الشهيرة « ليس للجماعة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى ان حرارة الجو تؤدي الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدي الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريرى فى الانسان كالانتقام والطمع ، أما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاغتصاب واهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابرييل تارد (٩) أن المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة اسباب فسيولوجية وطبيعية واجتماعية، الا ان الاخيرة هي الغالبة وذات الاثر الفعال فى

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجرد الإنسان الحي وإنما من شخصية الإنسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته في أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك في أن الاجرام كالشأن في كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة في التقليد ، وذلك في صور الصفة الخاصة بالصيغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخي وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كان يجري تقليد الطبقة الارستقراطية ، أما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتذى به . ويذهب تارد الى أن الفقر لا يؤدي وحده الى الجريمة ، وإنما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذي يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجد عند الفقير فإنه قد يتوافر لدى الفنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غيره من علماء مدرسة الوسط الاجتماعي في اعتبار الجريمة وليدة الظروف الاجتماعية واليها ترجع أسبابها . على أنه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية في المجتمع ، بل أنه يؤكد صفتها الاجتماعية العادية ، فهي موجودة في كل مجتمع انساني ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمع لا تحدث فيه يوما انتهاكات لآخلاقه . ويؤدي رأيه الى أنه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهي لا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافي الذي تنتمي اليه . وأنه لما كانت الجريمة ناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة في الجماعة فإن وجودها وعلاقتها بالهيكل الاجتماعي يحملان لها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فإنه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافة الغالبة في وقت ومكان محددين .

ويرى سدرلاند (١٠) - وهو من المدرسة الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية - أن السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سدرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامي ، مبينا كيف تتم العملية التي تؤدي بشخص معين الى السلوك الاجرامي . وتتلخص في أن السلوك الاجرامي يتعلم ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع أشخاص آخرين في عملية اتصال ، وهو يحدث في نطاق جماعات الأشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجرامي يتضمن فن ارتكاب الجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجع له كفة الآراء التي تحبذ انتهاك القوانين على كفة الآراء التي لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجرمين فهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التي تقاوم الاجرام من جهة أخرى ، وأي فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذج أخرى في صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر طول الحياة ، كما أن السلوك المنحرف الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر بدور طول الحياة . وتبدو أهمية الأسبقية من خلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختبار .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الأبحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طباعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من أساسه ، فإذا قيل ان التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، أو قبول الاعانة العامة ، أو احترام التسول أو التشدد أو السرقة أو الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقادون الآخر ؟ والجواب على هذا انه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل ايا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وانما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة اسناد السلوك الاجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الانسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الانواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل أثر أكبر من غيره ، ولكن لن يتأنى منفردا حتى يؤدى قطعا الى سلوك معين . فإذا قلنا أن المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للاجرام فمما لا جدال فيه أن بعضا ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، أى باعتباره مؤثرا فى السلوك الاجرامى أو بغير أثر عليه . وإذا كان السلوك الاجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على أسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الاجرامى، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات، وعلى سبيل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يفصل بشخص الفاعل فلا شك أيضا أنه يمكن ادراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تقاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسعا أم نطاقا ضيقا ؟ أى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، أو المحيط العام الذى تجرى فيه حياته أم الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

(١١) نوردد ايست ص ٢١٩ .

(١٢) تنبوم ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امرأة من مشجان حكم عليها بالعس لمدة شهر وبدلا من تحمل العس كتلت أطفالها الثلاثة وانتحرت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تعديدها لعنى الشرف والمهانة وقيمة الحياة . فإذا كانت تؤمن بأن الانتحار سوف ينمى روحها ويدفع أولادها لما كان الانتحار بدلا من المهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التى حددت الطريقة .

(١٣) وقد استعمل علم البيئة أساسا من علم الأحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة أن مختلف انواع النباتات تنمو نحو النموها - كالشأن بالنسبة للمجتمعات البشرية - ولها بداية مؤقتة ثم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (يرنس ص ٢٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفي عبارة أخرى هل يراد بالبيئة الدولة أو جزء منها أم المنطقة التي يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل في أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ وما ينبغي التنويه اليه ابتداء من جميع الاتجاهات التي حاولت أن ترد الجريمة الى عوامل محددة لم تفعل وجود مساحة من أثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أى من تلك العوامل . فالعامل الجغرافي سواء تعلق بالشتاء أو الصيف لا يمكن نزعها عن المجتمع الذي يعمل أثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع اننا في مجال هذه الدراسة تقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الى بيئة جغرافية وأخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة وأخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التي يعيش فيها الانسان وتتعلق بالجو والفصول والرياح ، وأن أثرها بالنسبة الى الانسان ثانوي، إلا أنه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق في الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، أى تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد في هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين أثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى اقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لا خيار للفرد منها وهي التي تتصل بالأسرة ، فالطفل يتبع المكان الذي يوجد فيه . **والقسم الثاني** هو البيئة العارضة ومثالها المدرسة والمصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، فحياة الانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقاعدة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . **وأخيرا الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد في فترة المراهقة والبلوغ أو يرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل في هذا أيضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم أثرهم في السلوك الاجرامى وعلى وجه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفي سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التي تقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال أينما كان لابد وأن يوجد في جماعة معينة يعيش معها أو يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالبا ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقا بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامى يعتبر نتيجة لعمليات انسانية ونفسية داخل الفرد فلا بد أن يكون لها جذورها في حياته السابقة ، وهذه

(١٤) راجع في هذا الصدد ستيغاني وآخرين ص ٩٤ وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ٥٧ وما بعدها وهو يقول ان البيئة في المعنى الدارج تفيد الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن التخصيص يؤكّد في تحديد البيئة على الدور الإيجابي الذي يلعبه الوسط في صدد كل كائن يتحرك تحت سلطانه، وقد ادخل علم الاجتماع الحديث في تعريفه للوسط عنصرا جديدا يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات ، ويلهب ارنست سيلج (ص ٦ و ١٨٦) الى ان الاسباب المباشرة للجريمة تتركز في عنصرين الاول البيئة والاخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتعمل تنفيذه ممكنا او يمتنع عن التنفيذ ، أما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فانها تتألف من مكونات شخصيته في الحياة .

(١٥) ستيغاني بند ١٠٠ .

الجلودر تستوحى من المكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له في غيره . ويلزم أن يكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم أو النماذج السلوكية لترسخ في نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد في حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر في الإنسان فإنه يعتبر بيئة له . على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دوما فلا يبرحه ، بل على العكس أن مقياسها هو درجة ما تتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة في إحدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار في نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سر الأمور الطبيعي في الحياة يمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليايس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذي قد يكون اجراميا .

وإذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فإننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهي الإحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول إلى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفي معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك في كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبذا يكون الإقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويه بما يوجه إلى الإحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر أرقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة في البيئة صورتى الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الأجرام وحجمه وعوامله وخطورته في المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على أساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة في المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة إجرامية عالية لا سيما في أطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداء بهذا الاتجاه فإن البيئة العربية سواء في جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة في الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فإن مصر ما تزال - رغم تقدم بعض الصناعات - تعتمد أساسا على الثروة الزراعية في حين أن الصناعات متقدمة في الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكان من الطبيعي أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

ويذهب بعض العلماء الى القول بأن الفوارق بين الاجرام في الريف والاحرام في الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية في الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها في العلاقات بين الناس وبالتالي في الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا أن هذا التفسير يراد به أن يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج في مصر بالذات الى أجيال عدة. ويرجع هذا الى أن العماد الأساسي لغالبية الشعب في عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسير تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لأن المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآية ما نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين أن الجرائم الدموية التي يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت في الريف في العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

ويبين الجدول التالي جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها في محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلي :

السنة	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
المكان					
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحري	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٣٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن أنه الى حوالي أربعين عاما مضت زادت جنايات القتل العمد والشروع فيه في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري ، رغم تدرجها الى خاصية النزول في كل من الوجهين البحري والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة أن تعداد سكان الوجه البحري يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تبين من الجدول الى عادة الأثر التي ما تزال قائمة بين أهالي البلاد ، ويتضح هذا من الإحصاء الجنائي الذي يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ في بعض بلاد الحضر والريف - والذي يأتي بيانه - يتضح أن الجزء الأكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. وتتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة في البيئة .

عوامل طبيعة البيئة *

نقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقة معينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالى ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية في ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض من ناحية اليابس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والأمطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية.

ولقد استلقت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة أنظار الباحثين ، وقيل أن الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكم الانسان في ارادته لما يصنعه من ضيق في التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرد سريعة دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المألوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة في حدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحملة الانسان عادة فان أثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليها الخمول وقلة الحركة ، وقليل ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفي الجو البارد تنعكس الآلية فتكون اعصاب الانسان اكثر هدوءا وتصرفاته اكثر اندفاعا ، بل ان البرد في حد ذاته ، اذا زاد عن المألوف ، يدفع الفرد الى الانزواء في الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعاً لذلك يقل الاحتكاك الذي قد يؤدي الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذي سقناه انما يخص الجرائم التي تمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآلية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهي تقل في الجو الحار وتزيد في الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل في شهور الصيف وتزيد في شهور الشتاء، ذلك ان حرارة الجو من شأنها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذي يجعل الظروف غير مواتية لارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . أما برودة الجو في الشتاء فان الليل وانكماش الناس طلباً للدفع يتيح الفرصة للمجرمين - لا سيما اللصوص - لارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بأن حرارة الجو أو برودته عامل أساسي في الاجرام ، وانما قد تكون طرفاً مساعداً له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدي الى الجريمة . فاذا كانت بعض الابحاث قد اثبتت زيادة الجرائم ضد الأشخاص في الصيف وزيادة الجرائم ضد الاموال في الشتاء بما يتفق مع اثر الحرارة في خط سير الجريمة ، فهناك من يقول بأن الجرائم تزيد في الصيف لان الناس اكثر اتصالاً في الصيف مع بعضهم ، الامر الذي يدعو لبحث ما اذا كانت للحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم يأتي بعد هذا البحث الاكثر اهمية وهو قيام الصعوبة في وسيلة التغلب على هذا التأثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا أن جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف بعد حاراً نسبياً في حين أن الشتاء متميز بالبرد نسبياً ، هذا فضلاً عن أن الجو في بلاد الوجه

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نغفل في هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم لدورهم في الصيف والمبيت على أسطحهما مما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة في جرائم القتل اخذاً بالتأثر ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو أردنا ترجمة أثر حرارة الجو في ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات في مصر بالوجهين البحري والقبلي من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائية أن جنایات القتل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديمة غالباً ما تقع في شهور الصيف ، كما أن نسبتها في محافظات الوجه القبلي أعلى منها في محافظات الوجه البحري ، الا أنه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الى حرارة الجو وحدها ، ذلك أن هناك من الزراعات خلال شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر ما يكون عالياً ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولا يجب أن ننسى هواقب الثأر وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل في المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثأر هو الذي جعل جنایات القتل العمد تزيد في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن أن يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو أو برودته ، ومما يستلفت النظر في الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية في الجو المعتدل .

ولعل أقل عوامل الطبيعة تأثيراً في وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ومع هذا فإن هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجاني لوقت ارتكابها ليلاً مما يساعده على اتمامها في الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعد عنائهم من العمل ، يعمل فيه المجرمون وهم في مأمن كبير من اعيين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الامر وفقاً لموضوع الجريمة . فالجرائم التي يراد منها الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفاً خاصاً الا في صور مستثناة أبرزها القتل اخذاً بالتأثر أو انتقاماً ، ولهذا يستوى أن يقع في الليل أو في النهار . اما الجرائم التي يكون موضوعها الاعتداء على المال فإن الجاني غالباً ما يتخذ من الليل ستاراً لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفاً مشدداً في تلك الجرائم .

ويبين من الاحصائيات الجنائية في مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنایات القتل العمد والخطف تزيد نهاراً عنها ليلاً ، وأن جنایات السرقة وجنایات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلاً عنها نهاراً ، وهو أمر ملاحظ بصفة مضطردة خلال الخمس سنوات السابقة . على أن هذا لا يقطع بأثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الأمر مغايراً لما تقدم في الثلاثينات بالنسبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلاً في السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنایات نهاراً ، ثم أنه فضلاً عما تقدم فإن النهار - ونقصد به فترة انتشار الضوء - يطول كثيراً بالنسبة الى الليل - أي وقت الاظلام - خلال شهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعيننا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة في المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر في الجانب الأكبر من اقتصادها على الانتاج الزراعى، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة في مصر في ثلاث دورات رئيسية : الصيف والقبلى والشتوى ، وتعتمد الأراضي الزراعية في ربحها على مياه النيل ، وإذا كان عماد الفلاح في حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى اثر الزراعة والمياه في حياة الفلاح . والزراعة في مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهم لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصرى يحرص على زراعته حرصه على حياته، وأى ضرر أو اذى يصيبها انما يصيبه في قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح يتمثل في قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها والحياة التى تستخدم في ربحها . والرقعة الزراعية في مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منها يحرص ويتفانى في المحافظة عليه ، وأى مساس بالأرض التى يزرعها يدفع به الى حمايتها بالدرجة التى ارتكاب أخطر الجرائم : ويتمثل ذلك المساس في صورة من اثنتين الأولى منهما محاولة من جانب المالك أو نحوه رفع يده عن أرضه لأى سبب من الأسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الأخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضي الزراعية ، وضم بعض الأرض الى الجزء من الأرض الذى يحوزه .

أما بالنسبة الى مياه الري فانه الى ما قبل اقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل . حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح رى أرضه في يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذى تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الري على البلاد في فترات محددة، في خلال تلك الفترات التى كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التراحم بين الفلاحين حول أسبقية الري ، ومن الطبيعى أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهام الذى قد يتطور الى معارك تنشأ عنها أخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائم لأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الإيجار أو المزارعة ، أو طرد مستأجر من أرضه ، أو توقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام أدوات الزراعة أو أدوات الري كالألات الميكانيكية أو أدوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التى تستخدم في الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالأضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهم للأجرام، ففي شهور الصيف على وجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعداد لأنواع أخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

قد سبق القول بأن حرارة الجو في شهور الصيف من عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففي شهر مايو يكون حصد القمح ووضعه في الأجران تمهيدا لعملية فصل حبه عن قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئذ لارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منها انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيث يتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت في الأجران اثناء جمع المحاصيل . وفي شهر مايو أيضا تكون شجيرات القطن قد اخذت تكسو الأرض ويكون اشد ما يصيب الفلاح اتلافها انتقاما . وفي أغسطس وسبتمبر يجنى القطن ويحصد الدرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطر جرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجة للمقاومة . وفي فترات بلر البدور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدي الى اخطر الجرائم ، فيبذر الدرة الشامي في سبتمبر ويبذر القمح والفول والبرسيم في اكتوبر . ومما يلاحظ أيضا ان الدرة الصيفية خلال يونيو ويوليو وأغسطس تكون متكاثفة الأعواد طويلة السيقان ، ويقابلها في موسم الشتاء زراعة القصب الذي يفرس في مارس وابريل ويحصد في ديسمبر في الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاء بها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما أن هذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالى صورة عن جنايات الحريق العمد خلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الاثام		أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا	مجهول	معلوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٣٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونيه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارسية	بضائع

وأعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمشتغلين بالأعمال الزراعية والصيد في البحر والبر وأعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم أصحاب الحرف والصناع والعمال والمشتغلين في عملية الانتاج والفلة والعتالين ، والذين لم يصنفوا في مكان آخر .

يتضح من الجدول آنف البيان أن صور جريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثاني أو الثالث ، وأن موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثاني ، وأن الجريمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، الأمر الذي يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وانتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جناية اتلاف المزروعات وفق الجدول التالي :

السنة	مجموع الجنايات	وقت الجريمة		الاثام		أعلن شهور السنة تنازليا		
		ليلا	نهارا	مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	-	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يوليو	أبريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم اتلاف المزروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم من المشتغلين بالاعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية ، والجزء الاكبر من جنايات اتلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادرا أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الارض الزراعية ، وما يتركه من اثر في الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وأفرخ نوعا معيناً من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقد تركزت جنايات الخطف في مصر في محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج وقنا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف أفرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم في تلك الجرائم من البالغين ، وتتراوح الفدية للأفراج عن المخطوف بين مائة و ألف جنيه . وقد ساعدت أنواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد في مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة وأخفاء المجنى عليهم في تلك الزراعات ، كزراعات القصب في محافظة قنا وزراعات الدرة في محافظتي أسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التي تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية في ارتكاب جرائم الخطف ، ويعتصمون بالجبال حيث يقيمون اقامة دائمة . وهي تتركز في محافظتي أسيوط وسوهاج . ويحول مكان اقامتهم

دون وصول رجال الشرطة اليهم. بسبب وجود المغارات والدروب التي يجهلونها ، والتي يعتصم بها المجرمون ويقيمون في أعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من اماكنهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشق الاصلى في الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشق الثانى ، اى الجريمة حسبما وقعت في المحيط الخارجى، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى أن ظروف البيئة هي التي تهين السلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجة أنه يمكن القول بأن تغير الظروف من شأنه أن يؤدي بدوره الى تغير السلوك الانسانى سواء في هذا اكان سلوكا حميدا أو سلوكا غير قويم . والانسان في هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعت في الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، أو لا تصادف هذه التربة فتتنشأ معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملائمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة أو مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

وامعمال القاعدة آتفة البيان لا بد وان ينتهى بنا الى أن الانسان لو شاء له قدره أن يسلك سبيل الجريمة فان اختبار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذى يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالأعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون في نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال جرائم اتلاف المروعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهبت جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته في غالب الاحيان سرقة مال مخدمه .

ومما يتصل بالبيئة في صدد تحديد السلوك الاجرامى الذى يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بهذا طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية أم صحراوية أو مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم، عن اعين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لقرهم . وقد لاحظنا أن جريمة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز في المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

(٢٠) ومن بين تلك العصابات عصابة الخطف في اسبوط سنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الامى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد الصعيدي بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (المرجع السابق ص ٢٩) .

(٢١) فعلى ما سبق القول لمت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف في الجبال عنها في السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيفاني وليفاسير ص ٨٠) .

وإذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون في وادى النيل - أى فى الأرض الزراعية على شاطئى النيل - والجرائم التى ترتكب من بعض أفرادها أما أن تتسم بطابع الريف أو تكون من جرائم الحضر ، فإنه الى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون فى الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطئ البحيرات الواقعة فى شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التى ترتكب فيها . وآية هذا دراسة عن سمات الجريمة فى محافظة البحيرة وأخرى لسمات الجريمة فى بحيرة المنزلة .

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بأنها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الأبيض المتوسط ، وأخرى زراعية تتصل بباقي الاراضى الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية أخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الاراضى القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومربوط . ومن الطبيعي أن يترتب على هذه الطبيعة المختلفة فى جغرافية الأرض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم عن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفة التى قامت فى هذه المنطقة .

ويعنينا فى محافظة البحيرة الاقليم الصحراوى منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهم الفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون فى مكان وان كانوا يتمسكون دوماً بانتسابهم القبلي وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدهم عن أجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلي والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقرار الحوادث فى تلك البيئة الصحراوية (٢٣) أن جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها الى السرقة أو الثأر أو النزاع الطارىء أو النزاع على الأرض، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية وزراعتها مما دعا الى تهجير عديد من الافراد وعمل الترحيل اليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وادى هذا الى ازدياد مستمر فى معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والذى ينشأ عنه عاهة مستديمة والسرقات بالاكراه والحريق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحا فى جغرافية محافظة البحيرة هي جنايات سرقات الاسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنايات عام ١٩٧١ وأصبحت ١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت الى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم الى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة فى مناطق

(٢٢) عبد العزيز محمد القطني ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطني ص ٤١ .

غير أهلة بالسكان ، يصعب وضع حراسة عليها بالمكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها في توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو ان جغرافية المحافظة على وجه خاص في صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، وبين هذا بوضوح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات في محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والمنيا خلال عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

السنة	١٩٧٣	١٩٧٤
المحافظة		
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بنى سويف	٤١	٣٨
المنيا	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦٢

والمثال الثاني لآثر البيئة في السلوك الاجرامى يتضح من دراسة سمات الجريمة في بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التي تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل في حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة في الاراضى المحيطة بالبحيرة في حزام عريض يغطيه الماء على شاطئ البحيرة ومثبتة في القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من أنواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامى بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشان بالنسبة لاسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضروري ان تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب أغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة في باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء الجنى عليه في الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتي لا يمكن حصرها أو كشفها بسبب حجبها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من العسير الوصول اليها . ولذا السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المسروقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخفية حيث يسهل تهئية المكان لها في البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطي المخدرات ، وأخطر الجرائم التي ترتكب

في البحيرة هي جرائم التهريب سواء كان موضوعها الأسلحة والدخائر أو المخدرات أو المحصولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن أبرز الجرائم كذلك ما يخالف أحكام قوانين الصيد وتراخيص الوحدات المائية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصفات المقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص . ومن أهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفة عصابتها مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمة للبحيرة ، ثم اخفائها في الجزر داخل البحيرة حتى لا يسهل الوصول إليها . ويبين هذا من الجدول التالي الذي يبين جنح سرقة المواشي في مركز المنزلة بالنسبة إلى جملة الجنح به خلال المدة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافي لبحيرة المنزلة أثره في السلوك الإجرامي والحد من قدرة رجال الأمن على مكافحته ، حيث يساعد هذا الموقع على صعوبة الوصول إليها وخاصة في فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية إلى هناك ، وكثرة الأمطار والأحوال التي كثيرا ما تعرقل عمل رجال الحفظ عن مطاردة المجرمين والقيام بالدوريات ، فضلا عن انعدام الوسائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائي ، الأمر الذي يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد أسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتها الجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالي في معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ، وقد لا تفي بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذي لا يقف حائلا أمام النزعات الإجرامية للفرد ، وآية هذا أن غالبية المحكوم عليهم في القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧) .

وتركزت عوامل الإجرام في بحيرة المنزلة حول عوامل ساعدت عليها البيئة الجغرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرة التي يقع بها أربع مائة وخمسون جزيرة أهلة

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٢ .

بالسكان ، يتنافس الأهالي فيها على وضع اليد على تلك الجزر واستغلالها استغلالا غير مشروع ، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه ، هذا بالإضافة الى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة واخفاء المروقات واختفاء الأشقياء .

ولا شك في أن الموقع الجغرافي لحدود الدولة يساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال في الجمهورية العربية الليبية تقع محافظة غربان في الجنوب الغربي من الجمهورية ، وتشارك في حدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيها جريمة التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعي . فيعمد البعض الى اتخاذ التجارة في السلع المهربة موردا لهم ، خصوصا بالنسبة الى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس الى آخره . وهم يستخدمون في ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب في المناطق الجبلية . ومن ناحية أخرى فان توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢ ، بشأن دخول البلاد . وبالإضافة الى ما تقدم فان منافذ الخروج أو الدخول الى البلاد تكون محلا لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقع جرائم جلب المواد المخدرة عن طريق الموانئ والمطارات (٢٩) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا في أكثر من مناسبة ان الانسان كائن حي يتفاعل مع الوسط الذي يوجد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائما أن كل مجموعة من الأفراد توجد في مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سلوك أفرادها بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر في نفوسهم - ومن قبلهم أصولهم - من مجابهة مختلف شئون الحياة بتصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها تلقائيا دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطريق الذي ينبغي سلوكه . ولا شك في اختلاف كل بيئة عن الأخرى في بعض ظروفها وتبعات طريق سلوكها ، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على أن هذا لا يمنع من التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد في السمات الأساسية لكل منها .

وإبرز أنواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس أثره على سمات الاجرام في الريف وفي المدن ، بسبب التقاليد الراسخة في الريف والصيغة المادية التي يتسم بها السلوك في المدن (٣٠) . هذا بالإضافة الى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التي تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القرية والمدينة أثرها في جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٢٩) منصور غيث قنديل ، وقد أورد ان جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ في طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفي بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٣٠) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن المقصود بالبيئة في موطن البحث .

الثار المتأصلة في نفس أهل الريف ، وكذلك فيما يتسم به اجرام المرأة والأحداث في كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين في الغرب الى تأييد التفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضر سواء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابع الاجرام في الريف هو الاعتداء على الأشخاص في حين أن طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ، فضلا عن الوسائل المستخدمة في طريقة تنفيذ الجريمة في كل من المنطقتين . ويقف بعض العلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة على ذلك (٢١)

ان الحياة في القرية المصرية تختلف عن الحياة في المدينة اختلافاً كلياً ويرجع هذا في أساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففي القرية المصرية يسيطر على العلاقات بين أفرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقة بين عائلاتهما والمصالح المشتركة التي تجمعهم وطبيعة الحياة التي يعيشونها ، ولعلنا نلاحظ هذا في تضايف أبناء القرية نحو أى خطب يقع بواحد منهم . أما في المدينة فالأمر على خلاف ذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين أفرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلة الواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس في المدينة وهنت العلاقات والاتصالات . هذا من ناحية ، وإلى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام في التفرقة ، فلا شك أن نسبة الجهل التي تسود مجتمع القرية أكبر بكثير من نسبتها في المدينة ، ومن أجل هذا كانت هناك سمات تميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام في الريف تختلف عنه في المدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية في حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففي القرية نادراً ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادي ، وذلك بسبب التضامن بين أفرادها مما لا يجعل للحاجة الملحة وجوداً ، ولأن الفلاح بطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فإن الاجرام في الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائماً الأشخاص كالقتل والضرب ، وهو وإن وقع في بعض الأحوال على المال فلا يكون الغرض منه الكسب المادي . وفي المدينة - حيث لا روابط ولا تقاليد - يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وإن أعوزه المال فقد يلجأ الى الجريمة ويهدفه الحصول عليه وتدفعه المفريات الشديدة في المدينة وسائر وسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

وإذا كانت عواصم المحافظات في مصر تدخل في حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلاد المركز فإن الإحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام في الريف والمدن .

(٢١) ستيفاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لقياس التفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية التحضر ، وضواحي المدينة والمناطق القامدة خارجها ، وتقسيمات المدينة في ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبناتل ص ٩٢ وما بعدها .

عدد جنایات القتل والشروع فيه في بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
اسم الجهة							
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر أسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز أسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

ويبين من هذا الجدول أن جنایات القتل والشروع فيه هي في المراكز دائما - سواء في الوجه البحري أم في الوجه القبلي - وهي أعلى منها في البنادر ، بل أن الحد الأدنى دائما في المراكز أعلى من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر . ولم تتغير النتيجة بالنسبة الى الدراسة التي أجريت (٢٢) عن توزيع الجنایات والجنح في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية سنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف نسمة من
السكان في جرائم الجنایات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية في مصر عام ١٩٤٧

أنواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١٢٨	١٧٥٠
ضرب أفضى الى موت	٩٦	١٦١
ضرب نشأت عنه عاهة	٧٥٠	٨٥٠
سرقة وشروع	٨٨٦	٦٢٠
حريق واتلاف وتسميم	٢٨٤	٥٩٢
مواشي		
فسق وهتك عرض	٣٧٢	٠٦٥
رشوة وتزوير	٩٣٤	١٩٥
عود	٨٧٠	١٤٧

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف من السكان
من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية
وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٣٨٦	٢٨٠
هتك عرض وفعل فاضح	٤٥٦	٠٣٧
سرقة	١٠٤٥٦	١٩٩٠٧
نصب وخيانة أمانة	١٣٩٢٦	٧٠٥٩
تسميم مواشي	٠٥٠	١١١
اتلاف مزروعات	١٩٤	١٧٤٣
تشرد	١٥٤٧٢	١٥٥٨
رشوة	٤٤٦	٠٧٥

وهذا ايضا مبين من بعض الجنايات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنايات

نوع الجريمة	قتل	اضرب	ضرب	سرقة	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	مخدرات
البنادر والمركز	٦٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنح

الجريمة	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اتلاف مزروعات	تشرد
البنادر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنايات في البنادر والمراكز البيان التالي :

الجريمة	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمد
البنادر أو المركز	١٢٤	١١	٧
المراكز	٤٣	١١	٤

والبيانات آتفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الاشخاص ، وأن سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة عن المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٣) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين . لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنائيات لمجموع الجرائم المرتكبة من أهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجرح من أهل الريف أقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد الفش وهي الجرائم التي تتسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فجرائم القتل والضرب المفضي الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ في القطاع الحضري . ومعنى ذلك أن هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضري تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد الفش . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة أعلى منها في المناطق الريفية ٦٠ ٪ من العينة يقيمون في أحياء شعبية . ٢٨٥ ٪ يقيمون في أحياء متوسطة ، ١١٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في أحياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والمكويينة وغيرهم ممن تحتم عليهم الإقامة في هذه الأحياء . وقد قسمت الأحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة في هذه الأحياء ومن الواضح ان الأمية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الأحياء الشعبية عن غيرها من الأحياء ، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . أن ٢٨٥ ٪ من مجموع أفراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى أن المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري . ويتبين أن هذا التباين بالإضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد أدى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه أن تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين أعلى منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين أن الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالإضافة الى صعوبات كثيرة في الوطن الاصلى ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع أسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الأحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى أن ٩٢ ٪ من مجموع مهاجري العينة قد أقاموا

عند هجرتهم في أحياء شعبية ، وتبرير ذلك أن الأحياء الشعبية قد تكون قريبة الشبه لقرية المهاجر من حيث المستوى الاقتصادي ، كما قد يرجع ذلك الى أن الأحياء الشعبية غالبا ما تتسم بالطابع الديني وهي سمة تشترك فيها هذه الأحياء مع مجتمع القرية . وقد يرجع ذلك أيضا الى أن الإقامة في الأحياء الشعبية - حيث يتيسر تأجير الغرفة الواحدة الى عدة أشخاص - أسير من الإقامة في الأحياء المتوسطة أو الراقية التي لا توجد فيها هذه الظاهرة . أن أسباب ارتكاب الجريمة طبقا للمعلومات التي أدلى بها المجرمون هي قلة الدخل وعدم وجود عمل ، وهما العاملان الرئيسيان لارتكاب الجريمة .

ويبين الجدول التالي ما يتميز به اجرام المدن الكبيرة من الطابع المادي عن غيره من المدن أو الريف . ويتضمن جنايات تزيف المسكوكات وتزوير الأوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضم محافظات الوجه البحري في مجموعة ومحافظات الوجه القبلي في مجموعة أخرى .

الجريمة	التزيف	تزوير أوراق مالية	الرشوة	الاختلاس
القاهرة	١	—	٣٧	٤٤
الاسكندرية	١	—	٩	٤٣
الوجه البحري	—	٧	٣٧	٨٠
الوجه القبلي	١	١	١٥	٣٢

هذا وتكشف الإحصائيات بسبب المادية التي تطفئ على حياة المدينة والإمكانيات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد في جنابات الرشوة والاختلاس . وكذلك الشأن بالنسبة للجرائم التي تتعلق بالآداب العامة ، فالحياة في المدينة الكبيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم أكثر وقوعا فيها ، أما في الريف فنظرا للتقاليد المرعية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عواصم المحافظات ، وهو في الوجه القبلي أقل عددا منه في الوجه البحري ، كما يبين من الجدول التالي عن أحصاء الامن العام سنة ١٩٥٢ .

الجرائم	الجنايات	القاهرة
منازل الدعارة السرية	١٢٣	١٢٣
تخريب على النفس من النساء	٣٧٦	٣٧٦
معاكسة بالطريق من شبان	١٢٢٢	١٢٢٢
التواذون	٤٩	٤٩
جرائم فنادق وبنسيونات	١٧٥	١٧٥
جرائم محال عامة	٤٨	٤٨
العاب قمار	١٠	١٠
مراهقات خيل	١١	١١
مطبوعات مخلة بالآداب	١١	١١
زنا	١	١
فصل على فاضح	١	١
تسول	١٠٠	١٠٠

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة في الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنایات القتل بكل محافظة مرتفعة في القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة في باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ في القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٢٣٪ والغربية ١٠٫٧٪ والدقهلية ٢٤٪ والقليوبية ٣٨٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٦٫٢٪ . وقد لوحظ ان اسوان ١٢٫٥٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنایات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنایات قتل الاطفال اثنتان فقط .

ويترتب على التضامن الاسري الموجود في الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد في القرية الا نادرا ، وتتركز في المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفي الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد في المدن - لاسيما الكبيرة منها - فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما نقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	البحيرة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	اسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	اسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية في الريف يجعل انحراف الحدث وسيره في تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي :-

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام في مصر :

١ - ان محافظات المدن تتميز عن غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية في جنائيات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ - في محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنائيات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنائيات القتل في محافظتي الشرقية والقليوبية وجنائيات السرقة في محافظة الشرقية وحدها .

٣ - في محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنائيات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل في الوجه القبلي فالحال لم يتغير ابدا الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام في الريف عنه في المدن ببلادنا ، لما هو ممدون من بسط التقدم الحضاري في بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنائيات القتل والشروع فيه لكل

عشرة آلاف نفس في السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،

١٩٣٣ في بعض مديريات مصر

اسم المديرية السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢٠٤	٢٦٠	٢٦٥
البحيرة	١٤٢	١٤٧	١٢٢
الغربية	١٤٨	١٦٨	١٥٩
المنوفية	١٢٣	١٣٥	١٤٦
الشرقية	١٠٧	١٤٠	١٧٧
الدقهلية	٨٧	٨٨	٨٣
بني سويف	٢٦٧	٣٣٤	٢٨٦
الفيوم	٣١٢	٣٦٢	٤٠٢
المنيا	٢٣٨	٢٥٩	٢٥٩
اسيوط	٤٤٣	٣٠٥	٣٥٥
جرجا	١٦٠	٢٠٢	٢٢٢
قنا	٨٨	٧٧	١٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة ادى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادي ، فان هناك تفرقة اخرى مترتبة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة في ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجرى تنفيذها بوسائل

تتسم بالعنف والتسوية وتمثل انعكاسا لفرصة العدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف أنواعها ، أو بالآلات الحادة التي يستخدمها الفلاحون أساسا في أعمالهم اليومية كالقاس وما إليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلة دون أن يتنبه إليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب في المدينة فلا تحتاج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاء المجرم الذي يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الأشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الاحصائيات الجنائية عن أن غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة النارية والآلات الحادة ، في حين أن جرائم القتل تنتشر في المدن والاماكن المزدحمة والسرققات من المساكن في غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالكرس والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالإضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى أنها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها . ومن هذه الظاهرة ما يشاهد في تجارة المخدرات ، حيث يقوم أفراد جماعة معينة - وعلى ما هو معروف - باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبر الخروج عنها جرما في حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذي تراه في مواجهته .

على أن أخطر التقاليد الموجودة في البيئة المصرية هو ما كان متعلقا بالثأر (٢٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن أكثر الجرائم وقوعا في الريف هو ما كان موجها ضد الأشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديمة . وتأتي بعد هذا جرائم آتلاف المزروعات والحريق ولا تكون مبالغين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الاساسي وراء الاجرام في الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفي قوة العقيدة . فأخذا من الاحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نغنى بهذا أن الجهل يؤدي الى الاجرام ، وانما المراد هو أنه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح في الريف يعيش أسيرا للتقاليد والمعتقدات التي أصبحت راسخة في نفسه ولا قوة أعلى من القانون .

وفكرة الثأر تتمثل في أن الاعتداء الذي يقع على فرد في الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازي الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعي كذلك أن تقع إحدى جرائم القتل فيبلغ عنها ولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٢٤) احمد ابو زيد - الثأر - دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلا من الطرفين - أهل القتل وأهل القاتل - يدري بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القتل تتحين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع أن الثأر ما يزال متوارثاً في بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثأر تقاليد المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الأخذ بالثأر ، بل أن من يكون موضوعاً له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز أن يكون موضوعاً لها الاطفال ، وما كانت تقام المآتم الا اذا تم الأخذ بالثأر ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٢٥) حكم فيه بالادانة ، حيث لم يشاهد القاتل أحد وقت ارتكابه فعلته ، ولكن في اليوم التالي للجريمة أقيم المآتم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى رأسه ورفع القناع عن وجهه ، واذا درست المحكمة قانون الثأر وفقاً للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجاني لفعلته .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثأر قصص البطولة التي تحكى في مختلف المناسبات ، وتصور الأمر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الأخذ بالثأر قائماً مهما امتد الوقت ولولعدة سنوات . والاعتقاد السائد أن روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد أهل القتل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة أن تتدخل في الامر لان الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثأر لدى الفلاحين ، أن وجد فريق من المجرمين الذي احترقوا الاجرام الانتقامي وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القتل من يتمكن من الأخذ بالثأر لصغر السن مثلاً ، فتلجأ الأسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يثير جدالاً أخطر أنواع الاجرام ، ولا شك في أن الجبل هو الذي يوصل الى هذه الحالة حيث أبقي كثيراً من المعتقدات سائدة في أوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جزاء له الا القتل أما أحكام المحاكم دون الاعدام - ولو بالاشغال الشاقة المؤبدة - فانها لا ترضى مشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية أخرى فان استخدام الاشقياء يبعد عن أهل المجنى عليه من فرض الاتهام ، اذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفاً ، كما أن الاشقياء أنفسهم يحترفون اعداد أدلة النفي قبل اعدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا أن نسبة كبيرة من جنایات القتل والشروع فيه ينتهي فيها الامر باصدار قرار بأن لا وجه لاقامة الدعوى .

وقد عنيت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التي يكون الدافع اليها الثأر ، فمراجعة الجداول الخاصة ببواعث ارتكاب جنایات القتل تبين أن الغالبية منها كما يلي : -

الانتقام والثأر ، رفع العار ، استفزاز ، نزاع على حد أرض . واذا استعرضنا في ذاكرتنا تاريخ القضاء المصري لوجدنا أن هذه البواعث كانت غالباً دائماً . ويؤيد هذا أن جنایات القتل

التي وقعت مع سبق الاصرار والترصد كانت أعلى مما وقع منها بدون سبق أصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطوري أساليب الحياة في مصر الا أن التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة في كثير من النواحي . وأكثر من هذا ما زالت الوسائل المستعملة في جريمة القتل على ما هي عليه . الأسلحة النارية الآلات الحادة ، الخنق ، العصا الخ .

جدول خاص بالبواث لجريمة القتل

السنة / البعث	الثار	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد ارض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام أحيانا مختلطا بالثار .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر بدراسة لظاهرة الجريمة في قرية طهواي (٢٦) ، حيث تبين أن سكان القرية تتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان . ويعيش جميع أفراد مجتمع الفجر ذكورا وإناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشية ، والسرقه بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا عن جيل ، ولا يتخرجون من ذكر أنهم يحترفون السرقه ، وهم يحترفون السرقه دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التي يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقه بالتنشئة الاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقه كان نتيجة لضغط الأسر عليهم ، وأن ممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) من المبرقات شخصيا أو في نطاق الأسرة ، ويتميز مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الافراد ، حيث أنهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذا ما قبض على أحدهم أو أودع السجن فانهم يقدمون له ولاسرته العون سواء كان في صورة عينية أو مالية .

البيئة واجرام المرأة :

انه وان كان اجرام المرأة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل - كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية - الا ان علاقة البيئة باجرام المرأة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم أن كثيرا من نشاط المرأة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظرا لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل أن طبيعة المرأة ووضعها فى الأسرة العربية يجعل أفعالها ودواما مما يتسم بالجنون والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الأمر فى كثير من وقائعها الى قيده ضد مجهول .

ووضع المرأة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم افعالها أقل بكثير من حجم افعال الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة أو كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا أمر لا يختلف فيه الدول العربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ أن عدد المتهمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المرأة كأنثى ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئة التى تعيش فيها ، فالمرأة أقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى أن حجم افعال المرأة لا ينبغى أن يتعدى نصف حجم افعال الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية أن الجرائم التى ترتكبها المرأة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل أن جريمة القتل غالبا ما يستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله سبحانه وتعالى المرأة لتكون أما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الحنان والرحمة والشفقة مما يتماشى مع رسالتها ، وهو ما يتنافى مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها أى معنى من هذه المعاني ، فان هي أقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان افعالها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد أن الظروف الاجتماعية ومكانة المرأة من الأسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المرأة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينية والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمة تأمينا لمستقبلها .

والمرأة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء كان أباً أو أخاً أو زوجاً أو أى عائل آخر ، بل أن كثيرا من الرجال يابون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد أدى هذا الى بعد المرأة عن الاحتكاك بالناس ، وأصبحت أكثر ميلا للعزلة ، مما يعدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى أن المرأة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتمادا كلياً . أما فى المدينة فانه وإن كانت المرأة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس ، الا أنها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل أن الملاحظ هو أن الغالبية العظمى من النساء المجرمات من الأميات . أى أنه كلما تعلمت المرأة

وتشقت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية في مايو ١٩٥٩ الذى قام به المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (٢٧) أن أغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشغلن بأى مهنة أو عمل ، وأن هذا لا يخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجى فى المجتمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل، وأنه وان كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمرأة فانا نحاول أن نحيط بصورته على قدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو أن نسبة الجنايات التى تقع من المرأة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الاشخاص ، أى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المرأة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب افضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، أى أن جملة جرائم الاعتداء على الاشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنايات . واذا اردنا تحليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الأول منهما هو أن المرأة فى غالب الاحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها ، أما اجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى أقصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة أن فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والآخر يتمثل فى باعث المرأة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تتركس له كل جهودها ، فاذا قام فى سبيله عائق فانها تزيحه عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المرأة بالريف جعلت أخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الفرة ، ذلك أنها بمجرد أن تنتقل الى منزل الزوجية ترى أنه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وانها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فان أى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقائها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب اشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غيرة المرأة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لآى سبب من الأسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع أن تصب غضبها على زوجها لأنها فى قرارة نفسها تعتقد أنه يستعمل حقا مشروعا له فضلا عن انها فى حقيقتها ليس بمقدورها أن توجه اجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المرأة الدخيلة على حياتها وتبقى صورها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنها يسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، وأحيانا قد تندفع المرأة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما أحست أنه قد ينصرف عنها الى الزواج من

أخرى . ويندر في مصر أن ترتكب المرأة جريمة القتل لأسباب عاطفية ، كصورة تخلق الشخص عنها وانصرافه الى غيرها لأن التقاليد ما زالت لا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الأسباب العاطفية ان دفعت الى المساس بالحياة فانما يكون هذا في صورة انتحار .

واذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدنا في ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المرأة لا تختلف عن الرجل في هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المرأة فيها دورا هاما تحت تأثير عادة الثأر ، سواء بنفسها أو بتلقينها اياها لاطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المرأة أحيانا الجريمة ضد النفس تجنباً للفضيحة في البيئة كما في حالة جريمتى الاجهاض وقتل المولودة حيث أن الحمل سفاحا يمثل عيبا خطيرا هو في الريف اشد منه في المدن ، حيث تعرف الفتاة أن جزاءها اذا ما كشف أمرها لن يكون الا اذهاق روحها ، لا سيما وأن سبيل اخفاء أمرها ليس بالامر السهل حيث لا توجد اماكن لايواء اللقطاء ، كما هو الحال في المدن - وقد تقارف المرأة الجريمة قتلا دفاعا عن العرض وذلك ان تفريط المرأة في عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الى ازالته الا بقتلها ، وقد تأصلت هذه التقاليد في نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أن الام تتغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الام أمها أو الأخت أختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن في صدد بحث الجريمة وعلاقتها بالبيئة أن نفصل اثر العامل الاقتصادى في هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتها تتلون ظروفها وفقا لسلوك أفرادها ووفقا لاقتصادياتها ، وانه وان كان العامل الاقتصادى من أدق وأهم ما تتصل به الظاهرة الاجرامية ، وهو في حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الا أننا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر في البيئة وقتيا في السلوك الاجرامى فلا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الأقل بالنسبة الى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صاحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء ، وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشئ عن عدم استقرار الائتمان والاجور والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل إيجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعوامل الاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الى الموضوع الذى تتعلق به أو بالنسبة الى وقت حدوثها ، وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبة الى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولة كلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلة مناسبة . ثم أخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفترات الازمات وأوقات الرخاء (٢٨) وبالإضافة الى ما تقدم فإن جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الاحصائيات الجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، وأخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء أو جرائم الخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتعكس آثارها عليها .

ولقد أصبح الشائع ربط الجريمة من الناحية الاقتصادية بالفقر (٢٩) ، ولكن هل يؤدي الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصود بالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين من الطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقير هو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر ، فيكاد لا يوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعى الموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الإنسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ، وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . وإذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه من الفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فإذا قيل بأن الإنسان الفقير هو من لا يوجد لديه ما يفي باحتياجاته لكانت المسألة نسبية تختلف من حالة الى أخرى ، ومن ثم لا يمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الاجرامى . . . ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناك دليل على وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا أنه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأن مؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وان كانوا لم يدخوا السجن بعد فإنهم فى الطريق اليه ، حقيقة أن بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وان لم يدخلوا السجن ؟!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالاجرام فى صلتها بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر أن يوصل الى عوامل أخرى كثيرة متداخلة فى التكوين الاجتماعى ، وهي التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائم الاموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات أكثر من الحاجات الاقتصادية التى تؤدى الى السلوك الاجرامى . والفقر فى المدينة الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الايجار المنخفض ، حيث يعزل الناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للاجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذج السلوك الاجرامى . والفقر بوجه عام يعنى مركزا

(٢٨) راجع اثر الازمات الاقتصادية والرواح الاقتصادي- ستيغاني وآخرين ص ٨٧

(٢٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقة الاجتماعية والاجرام (جون كلارك وآخرين ص ٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام أو ما يخشى عليه من الضياع أما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة أفضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفًا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعنى أن الوالدين يبعدان عن المنزل خلال أغلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام أيضا أن الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادي . وقد يصحب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المصاحبات .

وبعرض برنس (٤٠) الى أن الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى أنه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها أكبر وقوعا في اوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة أقل لديهم ؟ أو ان هناك جرثومة إجرامية أسهل انتشارا في هذه الاوساط عن الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في اوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى أن الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه في الجماعات التارفة . وباختصار فان هذا يعنى انه اذا عرض فرد الى مؤثرات اكثر إجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون أكبر . ويرى برنس (٤١) أن اعتبار الجريمة أكثر وقوعا في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة أجريت سنة ١٩٦٧ ثبت أن المذنبين الصغار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وأن الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى أخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهور الجريمة ومداهها في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي أجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة - رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات - قد وصلت الى نتائج متضاربة . ففي احدى الدراسات وجد ان معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع أنهم من أسر كانت في فقر اشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف . . . وفي دراسة اخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد اشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية وفي انجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

في المجتمع المصري - لاسيما المجتمع الريفي - لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة في هذه الحالة (٤٢) . وفي اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر أو غيرها . ولقد ثبت في دراسة بأمريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون في فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة في مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في مصر اذ جاء به انه من المؤكد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك في توجيه الحدث نحو السوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشي للأسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخذ فيه الأسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه أسرة الحدث بحكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي أجريت في هذا المجال . ففي دراسة عن اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط افراد مجموعة الاحداث جامعي الاعقاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للأسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للانفاق على الأسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كان متوسط الانسبة منخفضا في المجموعة الاولى عنها في المجموعة الثانية ، وفي بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة في مستوى منخفض جدا .

ولا بد لنا من التسليم بان للعوامل الاقتصادية اثرها في الظاهرة الاجرامية سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثير سير الاجرام بالعوامل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولا نهامتشابهة يؤثر بعضها في البعض الآخر ، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لها . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قد تؤثر بدورها في العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهبط لتأثيره في ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهو امر ملحوظ في حياتنا العادية . وقد يكون للجو

(٤٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٤٣) اثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث

(٤٤) السرقة عند الاحداث

(٤٥) ستيغاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا في انتفاء السلوك الاجرامي او وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمل المناسب لامكانيات الشخص ويكون متوائما معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له على ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من اثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان قفزت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض وبسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بان للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفع الفقر لارتكاب بعض الجرائم كالسرقة ، نرى الثروة - على الاخص الفجائية - تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي الفلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصادية كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألة ترجع الى الاستعداد الشخصي للفرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحدث امر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتعد له المؤتمرات والحلقات الدراسية من فترة الى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكرة يخرج الى الحياة المليئة بالمناقضات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالمعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على اية صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان اخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للحدث يتمثل في جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدأت في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه اشد اتقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحياة في القرية المصرية تبعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنتفي في القرية ، نظرا للترابط العائلي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحداث في الريف يجري نظرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليدها مرعية ،

(٤٦) يبين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالآتي : الضرب ، السرقة ، ركوب المواصلات بدون اجرة ، الاتلاف ، القتل والاصابة الخطأ ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنح .

ومن ثم لا يدرك شيء من أمر الجريمة . والامر الاخر هو ان الارقام المظلمة في الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فالملاحظ في البيئة المصرية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورافة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشئ عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث في حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد ينتقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو في كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة اخطر الادوار في تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وينمذجها السلوكية ، سواء اكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فلكل اسرة تقاليد وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها في مراحلها ، الامر الذي قد تختلف فيه اسرة عن اخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية في المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان في القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل في حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للأجرام فان الحدث سوف يقتدى بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع في ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، أي منغمسا في الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي في ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث في الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الاب او الام يكافيه الصغير او يعاقبه حسب ما يرى في تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير أيهما بصرف النظر عن المقاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه في مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والديه حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشأ الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البغي قد تقوم بتربية صغيرها في وسط يبعد عما هي منه ، وتقرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي اول مؤسسة لضيافة السلوك الاجتماعي ، عن والديه يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه في الحياة ، فاذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٢٠) .

وللقواعد السلوكية في تربية الصغير أثر عميق في سلوكه واحتمال أو عدم احتمال انحرافه .
 اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربية الصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن
 السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهو الذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا
 الى قلة الكتب التي تتناول أسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع
 ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن أخطر العوامل المؤثرة في
 سلوك الصغير هو جهل أحد الوالدين بأن من شأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف
 الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصل الحال
 الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاي سبب كان ، لان التفاضل عن
 أخطاء الصغير او التهوين من أمرها قد يكون من أثره استمرار الصغير في سلوك يؤدي الى
 انحرافه . وقد يكون الإهمال بدوره من عوامل الانحراف ، لان معناه افتقار الصغير للرعاية
 والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك ، يستوي في هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما
 يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفي بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم
 الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ، وهو شعور اذا عززته عوامل أخرى قد يؤدي
 بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولاشك في ان القدرة الاقتصادية
 للأسرة تكون سعيًا في تحديد كثير من العوامل المؤثرة والتي قد تؤدي الى اجرام الاحداث (٤٩) .
 وأول ما يتأثر بالظروف الاقتصادية هو المسكن الذي يقيم فيه الحدث ، ذلك ان رب البيت
 يتخير المكان في الحي الذي يتماشى مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية في تحديد
 مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية أثائه واتساعه وكونه صحيا من عدمه ، ولهذا اكبر
 الاثر في استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهرب منه الى الطريق لا سيما في اوقات
 الفراغ . ولعلنا نلاحظ هذا في انطلاق الاحداث في كثير من الاحيان الى الشوارع في تجمعات لقتل
 الوقت وهي في ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرمومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم
 السرقة عند الاحداث (٥٠) ان حالة أسر الاحداث المهنية في مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الأب والأم لها أثرها الكبير في سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل
 بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره في صورة صريحة فينعكس هذا في
 صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقد يرجع انتفاء الهدوء في المنزل الى ضعف أحد
 الزوجين ازاء الآخر ، على أن أحد الطرفين - لاسيما اذا كان الأب - يعطي امثلة للأولاد فتطبعهم
 بأحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو أمر لا تحمد عواقبه . ومن الأمور الملحوظة في حياتنا

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث في الشرق الاوسط ص ٢٤

(٥٠) بحث السرقة عند الاحداث .

أن ضرورات الحياة اضطرت كلا من الأب والأم إلى الانطلاق في سبيل الحياة كسباً للعيش .
ويترب على هذا أن يفقد الطفل الرعاية الأبوية له ، ويترك في بعض الأحيان في مجتمع الطريق
لدى بعض الجيران ، بل أنه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت أو
الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف أن ما يؤثر في سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ إما
عن وفاة أحد الوالدين أو هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل
للأب أو الأم .

وللتعليم اثره العميق في الارتفاع بالمستوى الفكري والثقافي للإنسان ويساعد على تكوين
شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتدل الإحصائيات الجنائية سواء في مصر أم في
الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين -أحداثا وبالغين - هي للأميين ولمن لا يحسنون
القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادي للأجرام . والمدرسة من أولى
الجماعات المنظمة التي ينضم إليها الطفل في خارج منزله في السنوات الأولى من حياته ، وإذا كان
الصغير يجد في المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فإن مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج
عديدة متألفة أو متنافرة ، وهو في حد ذاته قد يجد نفسه أزاء تلك النماذج ، ولا بد له أن يختار
بعضها سواء بمجرد دافع التقليد أو انسياقاً في تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره في
عملية الاختيار (٥١) . وتأتي أثر هذا أهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت
والمدرسة في تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده أو على المدرسة
وحدها أمر غير مقبول ، وإنما الخير في المعاونة بينهما في تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل أن
تؤدي إلى انحرافه والعمل معاً على إبعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت إلى العمل مباشرة ، لاسيما في الأسرة التي تحتاج اقتصادياً
إلى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة في المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق
بأحد الأعمال ، وفي العمل يلتقي الحدث بأفراد متعددين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف
مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالأخير يحوي الحسنى إلى جوار السوء ، وإذا كانت المدرسة
تهتم بالناحية السلوكية فإن رب العمل لا يعني إلا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك إلا ما
يؤثر في سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها أثر كبير في
النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء أكانت إجرامية أو معادية للأجرام ، وقد تفرض
ظروف العمل على الحدث أن تكون له صلة بأفراد معينين لا خيار لهم في انتقائهم . ومن هذا قد تبدأ
بلدرة الجريمة في الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثراً بفريرة الجماعة دون أن توجد نماذج أخرى
معادية للأجرام تساعد على مقاومة عوامل الإجرام .

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطاً يعمل أما للخير أو للشر ، سلوك الفرد (برنس ص ٤٠)

واخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الفريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه او يكبره او يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيأ له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة امر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من اثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بأن هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقا للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، أما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كاد مغاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمنشآت الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فبقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام ؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفتقر الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغيير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . واكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

(٥٢) راجع الكتاب السنوي للاحصائيات العامة لمصر الذي يصدره الجهاز المركزي للتعبئة .

صامته فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحوي دراسة عنها وتقليلا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية - لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام - لوجدنا ان الجرائم - وعلى الاخص الخطيرة منها - تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا أم يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرأ على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحققة لاثار التحول يجب ان تبدأ بالريف أولا .

والبحت فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصري ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذي عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الراى لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادي في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام من الحضر والارقام من الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضري وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المضمون الاجتماعي وراء هذه الارقام ، وهو مضمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقرها المؤتمر ما يأتي (٥٢) :

١ - ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادي ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى نقص الجريمة . وتعبير الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادي فحسب .

٢ - الاجرام الذى قد ينشأ عن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التى لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ - قد ظن خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التى تقرر عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من أسباب الاجرام ، والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شأنه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق أيضا بالنسبة الى ظاهرتي التحضر والتصنيع .

٤ - ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو امر وان كان من الممكن تبريره الا ان الحكمة تقتضى أيضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار اثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التى تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضرى .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايئة بدراسة التحضر والجريمة فى مصر (٥٤) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لما توافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التوبى والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهى من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة ان جرائم الجنايات والجنىح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنايات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشى فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . اما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنىح تزيد الجنىح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشى واتلاف المزروعات . اما الجنىح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرذم ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

(٥٤) بحث التحضر والجريمة فى مصر - ص ١ وما بعدها .

وفي محاولة معرفة اتجاه الجريمة في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الاتي :

١ - ان جرائم الجنايات بصفة عامة أخذت في الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات في المناطق غير الحضرية أكبر من نسبة انخفاضها في المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ - بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة في الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذي زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ - كانت جرائم الجنايات بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق الحضرية عنها في المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

٤ - جرائم الجناح بصفة عامة أخذت في الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين ان الجناح بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

والذي يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن الجرائم التي يمكن ان يطلق عليها الجرائم الانتقامية - لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص - تغلب دائما في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب في المناطق الحضرية عنها في المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ ايضا ان مختلف أنواع الجرائم - الجنايات والجناح - تتجه دائما نحو الارتفاع . هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن أثر التحول الذي حدث في المجتمع على سير الاجرام ، لانها اعتمدت على احصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناحية بدراسة أخرى عن ظاهرة الجريمة في أسوان (٥٥) وذلك في المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ . وقد جاء في مقدمة هذه الدراسة أن مجتمع أسوان كان - الى حين تنفيذ مشروع السد العالي - مجتمعا محتفظا بأصالته الريفية وباللاقات الاجتماعية التي تنمو في كل مجتمع زراعي ، وقد ترتب على تنفيذ مشروع السد العالي ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

العالي ، وقيام بعض الصناعات التي يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون أساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم وأخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والأخلاقيات والعادات الاجتماعية التي تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وانه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع أسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالي الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التي يتسم بها هذا النوع من المجتمعات ، ومن الظواهر التي تأثرت تأثيرا كبيرا بالتفسير الجدرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التي وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

السنة	الجريمة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣	
١٩٦٠	١٠	١	٢	٣	٢٥	٣٩	
١٩٦١	٥	٢	١	٢٧	٢٠	٣٤	
١٩٦٢	٥	١٠	٢	٣٩	١٥	٦٩	
١٩٦٣	٤	٢	٣	١	١٧	١٣	
١٩٦٤	١٤	٣	١	١	١٧	١٣	

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٣١٩٩ ٪ ، ٢٧٢٢ ٪ ، ٢٥٥٥ ٪ ، ٣٢٣٣ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

السنة	الجريمة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	١٧	١٣	٨
١٩٤٨	١١	٨	١٠	١	٢
١٩٥٨	٦	١٠	٦	١	١
١٩٦٨	١٢	٦	١١	١	١
١٩٧١	١١	١١	٤	١	١
١٩٧٤	٧	٤	١	١	١

فهل يمكن ان نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، فى رأينا انه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالقياس الى عدد السكان في محافظة اسوان الذي تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدي الى الانخفاض في نسبة الاجرام لا في زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثاني حيث تكاد تكون جنيات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع في سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الامر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعي عليها ؟ والامر لا يختلف بالنسبة الى الجنع حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الامر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضاري وله اثر بالغ في سلوك الفرد على أية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هو اثر اجهزة الثقافة والترفيه في الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذي يعيش فيه الفرد ويتاثر به (٥١). فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا في الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكي ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يشير الفرائز الكامنة في الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامي . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام في نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادي دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين في صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامي .

ونستطيع القول بأن الآثار الخطيرة التي ظهرت لوسائل الاعلام في بعض البلاد الاجنبية لم تصل اليها بعد ، وذلك للصورة المقبولة التي ينشرها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التي اعترف فيها المهتمون بانهم رسموا طريقهم في ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه في بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التي اجريت قديما وحديثا بيان تأثير ادوات الاعلام في السلوك الاجرامي لا سيما بالنسبة الى الاحداث .

خاتمة :

راينا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدي الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورة فهي في ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الامر تحديد الجريمة التي نستحث الباحث على الاهتمام بها

ومتابعتها وتقصي عواملها وتتبع آثارها ، ثم لزم تبعا لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن أى حدود لمعنى البيئة اتسعت أم ضاقت - لابد وأن يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على أية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا أن كل ما يراه العلماء عاملا من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب أو بعيد ، واقتضانا هذا أن نتناول تلك العوامل واحدا بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من اثر في السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك في أن كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلا وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ، ولكننا أردنا في هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين أن يكون في اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .



المراجع

أولا - اللغة العربية :

- ١ - احمد ابو زيد الثار ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية - القاهرة ١٩٦٥ .
المجلة الجناية القومية ، نوفمبر ١٩٦٢ .
- ٢ - احمد على المجدوب - دراسة للقاهرة الجريمة في قرية طهواى - المجلة الجناية القومية - يولية ١٩٧٣ .
- ٣ - احمد محمد خليفة - الوقاية من الجريمة الناشئة عن التنفير الاجتماعى المصاحب للتنمية الاقتصادية في البلاد الاقل نموا - المجلة الجناية القومية . مارس ١٩٦١ .
- ٤ - حسن المرصفاوى - الاجرام والعقاب في مصر - الاسكندرية - ١٩٧٢ .
- ٥ - حسن المرصفاوى ومحمود السباعى - مبادئ علم الاجرام ، مترجم (سترلاندو كريسي) القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦ - زكريا طه - جريمة الخطف في جمهورية مصر العربية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧ - سمير الجزورى - النزلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى - المجلة الجناية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .
- ٨ - سيد عويس - حجم مشكلة جناح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة - المجلة الجناية القومية - يولية ١٩٦٥ .
- ٩ - سيد عويس ، شهيرة الباز - ظاهرة الجريمة في محافظة أسوان - المجلة الجناية القومية - يوليو ١٩٦٦ .
- ١٠ - عبد العزيز محمد القطنى - سمات الجريمة في محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ١١ - محمد الهسابلى - الاجرام في مصر - اسبابه وطرق علاجه - القاهرة ١٩٤١
- ١٢ - محمد خيرى محمد على - الريف والحضر وظاهرة الجريمة - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٣ - محمود عبد الرزاق عبد العال - نوعية الجريمة في بحيرة المنزلة - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٤ - منصور غيث قنديل - الامن العام في الجمهورية الليبية - معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٥ - الأمم المتحدة - دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .
- ١٦ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصرى - المجلة الجناية القومية - مارس ١٩٥٩ .
- ١٧ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية السرقة عند الاحداث - من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية .
- ١٨ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناية العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث ، المجلة الجناية القومية - نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانياً - اللغة الأجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminolilé astuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Strechure, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et sience penitentielle 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairtz & Norman Johston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

★ ★ ★

محمد عبد الرحمن الشرنوبى *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن جنسا واحدا من اجناس الكائنات الحية العديدة التى تحيا حياة الارض ، يمكن أن يعمل بجد - سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد - على دمار هذا الكوكب أو تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت فى صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذى يطوف اجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التى ضوعفت فتضاعفت المخاطر التى تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت فى هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الاداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الأدوات التي استخدمها الإنسان آنذاك في تكوين أسرة مدربة تدريباً راقياً على مطاردة الحيوانات والإيقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الإنسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أى نوع من أنواع الكائنات الأخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماماً مع مسيرة التاريخ الإنسانى الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الإنسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من أهم الأحداث التي عاصرت خروج الإنسان من أسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادئ مع عناصرها . فليس هناك أى كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الإنسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة - النار - ازداد استخدامه لها ، فأحدث بذلك الكثير جداً من التأثيرات الإيكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الإنسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيًا للمبادئ الإيكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، إلا أن إثبات ذلك يعتبر أمراً عسيراً ، وإن كان من الثابت أن ذلك الإنسان لم يكن يميز - كما يفعل إنسان العصر - بين ذاته كإنسان ، وبين العالم الطبيعى المحيط به .

لقد أطلق علماء الأنثروبولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجري الحديث Neolithic Revolution ، رغم أن اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماماً مع التغيرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في أزمنة متباعدة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي أجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الإنسان آنذاك - رغم اعداده البسيطة - أن يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الإنسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير أدوات صيده وأسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفاً في ذلك إلى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات إلى الشراك المختلفة وإلى الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلّة أعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الإنسان في البيئة تأثيراً محلياً ومؤقتاً . فالأرض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الإنسان يعود إليها ليمارس نشاطه من جديد وكأنها أرض جديدة حل بها .

(١) Marston Bates : „ The Human Ecosystem ”, Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٢ ، ص ص ٥٥ - ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على أن ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجري الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجري الأوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجري الحديث عندما ظهر الإنسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع في غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجري الحديث في البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب في ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية في قرى أكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع قووسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطمي لصناعة الاواني ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنتقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذي استلزم تمهيد بعض الطرق لبتيسر الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقي لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شيء ينبغي اخضاعه لكافة متطلباتنا في الوقت الحالي ، وليس شيئا ينبغي ان نتعايش معه في وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذي يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التي سبق ان تعايش معها وفي ظلها ، بل قدسها وعبدها أحيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتمادى في استغلال الارض والغابات ومصادد الاسماك في البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، في الوقت الذي استأصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني جوردن تشيلد Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجري الحديث انحصر في حدود ثورتين : الأولى هي الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل في الامكان ظهور المدن والتخصص في العمل

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon ان حضارة العصر الحجري الحديث اكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباعد عنها ربما يكون من اصعب المشاكل في العالم . (راجع : Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثورة الصناعية Industrial Revolution ، والتي قامت على أساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وان كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسمها بالثورة العلمية Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التي جاءت عن اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التي اتاحت للانسان زيادة درامية محزنة في الطاقة خلال هذا القرن بما في ذلك الطاقة النووية الرهيبة، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الاخيرة بالذات ، سببا رئيسيا في تلك التغيرات الايكولوجية على نطاق عالمي أكثر من أى تغيرات أخرى .



ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي ترخر بها بيئة هذا الكوكب في حياة ذات نظم وقوانين محكمة أيماحكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « أغلفة » الكرة الأرضية الأخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثل وحدة واحدة مترابطة أثبتت الثورة العلمية المعاصرة ان له تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (٤)

وأهمية هذا الغلاف تتمثل في أن الانسان ، وهو أحد عناصره الرئيسية ، قد أصبح يدرك جيدا الآن أن هناك نوعا من « التكافل » الفرزى بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذى لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم أنه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الأنواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التى تتكوّن الغلاف الحيوى توضح وحدة حقيقية بالفعل . فالحياة فى كل موقع منظمة وقائمة على مبادئ أساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الأحياء جميعا - من نباتات وحيوانات وكائنات أخرى - والتي تعيش فى منطقة ما ، وتكوّن مجتمعا بيولوجيا مميزا ، مترابط فيما بينها فى شبكة من العلاقات المعقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديه لأفراد المجموعات الأخرى . ويميز علماء الأيكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التى تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التى تحيا مباشرة على النباتات

(٤) أغلفة الأرض تبدأ حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، وأمكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه أطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وإيونوسفير Inosphere ونلاحظ أن الغلاف الحيوى Biosphere قد سقط من هذه التقسيمات فى شتى الدراسات رغم أهميته وارتباطه بالأغلفة الأخرى .

بيئة العمر : بين البقاء والفناء

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحللات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها في تحليل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « مع العناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجى Ecosystem » ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتمثل هذه العلاقات الوظيفية في سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك في الطرق والمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة في ذلك النظام البيئي أو ذاك .

ولا شك ان الامام بطروف هذه العلاقات والوظائف أمر حيوى للغاية لفهم الآثار التى يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى من اجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . وإذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي عن غير قصد ، فليس اقل من أن نتصرف بنفس المنطق ، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالته ينبغي الا نظل على اسرافنا في اتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية : استثمارا أو استغلالا أو ثراء أو رفاهاً . ان كل ما يلصق بزيادة السكان أو بالثورة التكنولوجية كمعامل ساهمت في تلف البيئة لا بد أن يوضع تحت المجهر ، ولا شك ان الادراك الواعى للانسانية ، والذي لن يتحقق في عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقة اللازمة لبقاء الانسان مع الطرف الآخر ... البيئة .



انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٣.٦ بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطة ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف على حافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلال الـ ٦٠٠٠ سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الالتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهة بقارات بأكملها) قد هددت أو عرضت الحياة على سطح الأرض للفناء ، مثلما تفعل الآن ظاهرة الانفجار السكاني الذى نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعة من الدول ونمو سكان مجموعة أخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة في تزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتتعرض لمشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة أخرى بمعدلات أقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ، نستطيع على أساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انه من المعتقد ان جملة عدد السكان في زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت أعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة في عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة في عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت أعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون في عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة أعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثاني خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان في عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط . (٥) ويعنى هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالى ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو رأس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، اى كما يربح المال من ذاته ربحا معيناً ، ثم يربح هذا الربح ربحاً آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاماً وليس ٥٠ عاماً . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم في فترة اقصر (٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** اول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان في عام (١٧٩٨) اى في الوقت الذى كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا ايكولوجيا سليما . فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة أعدادهم كل ربع قرن ، في الوقت الذى لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا في هذه الزيادة ، فان أعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية ، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه Dismal Thorem هي يؤس الانسان . (٧)

ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها أكثر من مرة ، ففي ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت في مجاعة كبيرة عام

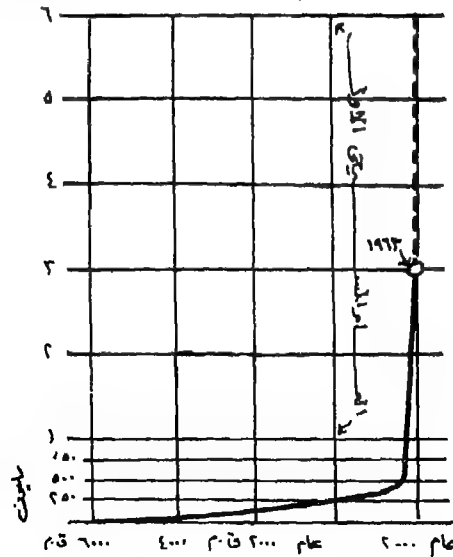
(٥) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « المشكلة السكانية في الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم الثقافي للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية - العدد الاول - ١٩٧٦ - الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

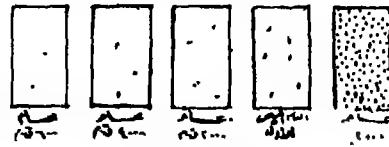
(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.

بهمة العمر : بين البقاء والفناء

السكان بالبلدين



تضخم السكان (نمو ديمو)



النمو السكاني الخطير

شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدريجية في أعداد السكان منذ آلاف السنين حتى حدوث الانفجار السكاني الهائل في الوقت الحاضر والمتنظر عام ٢٠٠٠. لو ظلت الزيادة الطبيعية العالية على ما هي عليه . ففي خلال القرن الماضي تضاعف عدد السكان في العالم ، وفي مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة أخرى حتى وصل إلى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير أصبحت كثافة السكان العامة في العالم ١٢٥ نسمة في الميل المربع مقابل ٦ نسمة في العام المسيحي الأول . والحالة تبعا لذلك لا تبشر بالخير ، فالأراضي التي يمكن زراعتها على سطح الكرة الأرضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما أن معظم أراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التي يتركز فيها نصف سكان العالم .

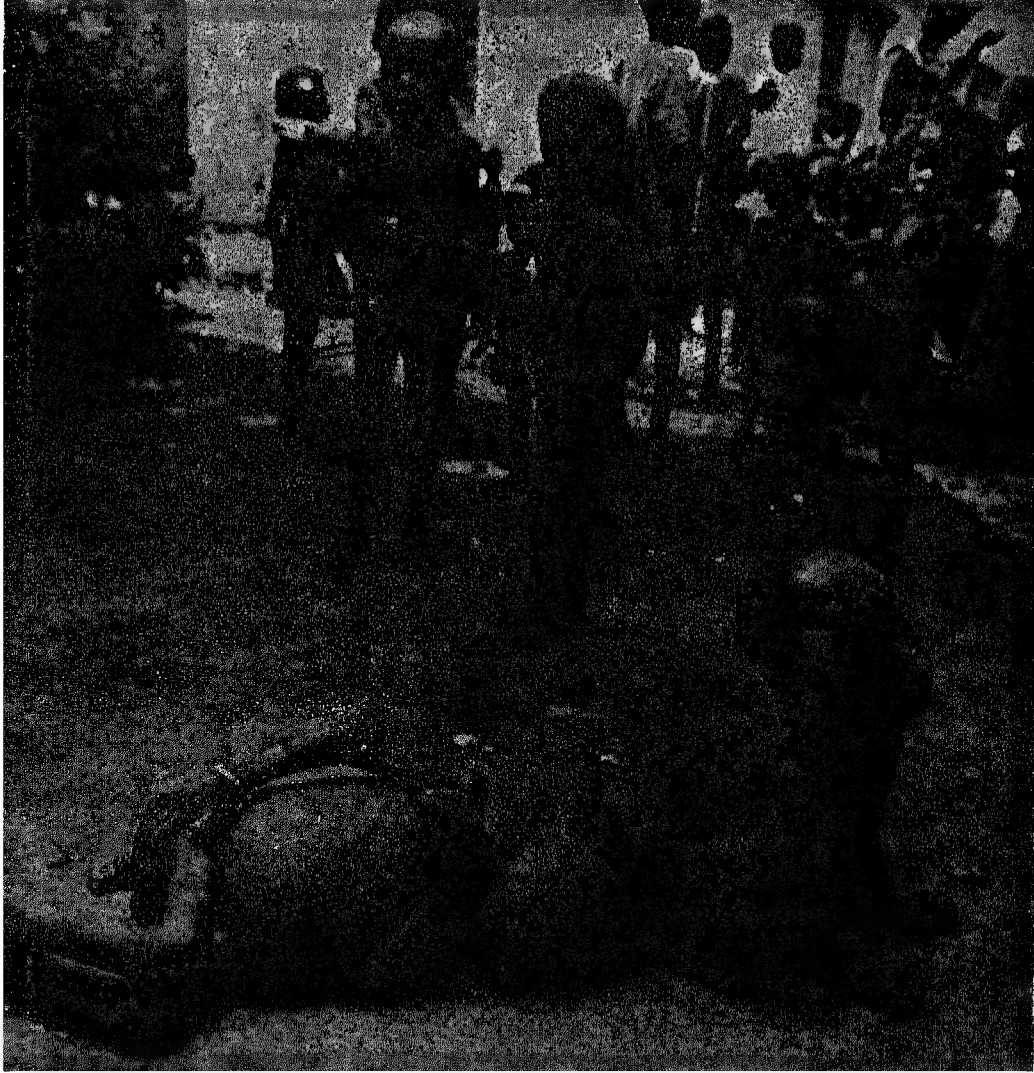
١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة في الهند في الآونة الأخيرة ، الى عجز البيئة عن مسايرة النمو السكاني هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعاً أو بسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرى واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال اكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع . (٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بأن المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هي التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها فى الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الدهول الشعب الأمريكى الذى يقود ويوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء فى الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة فى قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا احد يدري تماما الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه «سعة حمل» Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان فى المستقبل سوف يزيد من التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الأخرى . فهى فى غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهدا جهيدا من أجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الإنسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الامراض حتى لا تتعرض أعداد السكان الى تقلبات عنيفة كتلك التى حدثت فى العصور الوسطى ، عندما أدى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم فى أعداد البشرية . والانسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الأقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامتداد أعداد المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم فى الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء فى البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهى على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة . . ومجرد أمل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم فى أعداد البشرية .

بيئة العمر : بين البقاء والفتاء



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعاً أو بسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يومياً ، أن أكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة من وكالات الأنباء من اقليم بيافرا خلال المجاعة التي حلت به أخيراً) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفراغ امام هذا التزايد الفريد ، وبديهي اننا في ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة في تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة (٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه وتلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والآخر ايكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضاري وغيره تاريخي ووراثي وهكذا . وليست هذه العوامل يؤرة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة عن هذه الزيادة والتي انعكست على ذلك التلف الذي اصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيثة ولا هي خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت في حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلمية الحديثة ، في التدهور العام الذي اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك ان اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية في النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء في الوجود تقريبا الآن . فقد لوثنا مياهانا وارضا وهواءنا وحياة مدننا وهدوءها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القلبي» (١٠) الذي لوث كل شيء حوله ؟ ونجح في استعداد الطبيعة ثقة منه في قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي في ذلك بغير حساب من الطرف الاخر ؟



مظاهر التلف البيئي :

في القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزي **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن مأساة عصره آنذاك بحسه المرفه تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل في عالمه المحيط به ، والذي غيرته يد الانسان فيقول :

Nature's polluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A (٩)
Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Conditions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Joseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصريح من United Press International في كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ - ١٢٢) انظر المرجع .

هكذا . . كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الإنسان أصبح يعيث فيها فسادا ، في كل ركن من أركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله حقيقي ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن أن نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له أن يعيش حياة الأربع الأخير من القرن العشرين ؟ أننا نعيش الآن عصرا يحاول الإنسان فيه جاهدا أن يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا أن تتوالى « الصراعات » المخيبة للآمال في كثير من أركان العالم الغربي المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . انهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضي البدائي البسيط ، أو يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة أو نائية منزلة ، ما زالت ترتبط في توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش أفرادها في صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب كالذهب البوذي يصون الحيوانات ولا يقدم على إيذاءها بأى صورة من الصور ، لأن « بوذا » كان يحترم كافة أشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الأراضى المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رائعة من الأرض التى تحتضن فعلا الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل أن مذهب اليانية Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة أشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكنسة) صغيرة معه دائما لازاحة ما يصادفه من حشرات خشية أن يدهمها صدفة . أن هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا الفئران ترتفع في المخازن وأصروا على ترك المياه لها لى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الإنسانى الدكتور ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر أن الخطأ الأكبر الذى ارتكبته كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الإنسان بالإنسان .

فالى أين ذهب ذلك الإنسان فى تماديه وتحديه للروابط والنظم الايكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى أن حالة الإنسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالعرفه والايمان وحسن السلوك .

Peter Farb, : op. cit. P. 15.

(١٢)

عشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماء المتخصصون وخبراء الشؤون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival

The Rap of the Earth

Our Plundered Planet

The Geography of Hunger

The Limits of the Earth

The Prevalence of People

Man Versus Nature

The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة في البيئة الطبيعية ذاتها - كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغيرات التي تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان في حالات كثيرة مزق فرص التجديد هذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا في هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلات طفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقى سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدأ في تغيير البيئة تغيرا فيزيائيا . فقد جاهد ضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيوانات جعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها في بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاء نفسه ، والبقرة التي تهجر السهول تقع فريسة في وقت قصير للحيوانات المفترسة خارج السهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صفاره الى مصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدما في عصره الصناعي ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محل النظام الطبيعي ، ولقد ارتكبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسع عشر خطأ فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة في ذلك الحين ، وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل في نهب موارد الثروة الطبيعية في العالم . ولقد ترتب عليها تغيرات خطيرة في مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلق الانسان صحارى جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة في جنوب شرق تينيسى Tennessee بسبب مناجم النحاس ، وصحراء سدبرى Sudbury في انتاريو بسبب دخان النيكل . وفي سعيه لتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدث السدود التي تقام عبر الانهار ، ففترت نظام الصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية رأسا على عقب ، بالإضافة الى العديد من مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة المواد الرخيصة حقاً ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاد موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحن الآن « نسرَق » حق الاجيال القادمة ليس فقط في الاخشاب والفحم ، بل ايضا في ضرورياتهم الاساسية في الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم في حاجة ماسة لحركة « صيانة » تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .



ماذا عن المياه :

لم تنشأ الحضارات وتنمو وتعطى بسخاء الا مع وفرة المياه ، وما توارت عبر سطور التاريخ الا بتأثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكمن حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه في كل اجزاء العالم : غرب امريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق انهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه الينابيع في آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيدا عنها . وحديثا اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيدا وهناك ست كلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو اكثر اهمية من الاكسوجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للاكسوجين في الهواء الذي نحيا به ونننفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارض انما نشأت اصلا في البحار القديمة او الاولى Primitive Seas قبل ان يكون هناك أي أثر للاكسوجين في الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان - عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والاكسوجين في الهواء . ويأتي ٧٠٪ من الاكسوجين كما يقول كول Dr. Lamon Cole من النباتات الدقيقة الخضراء في البحار التي تستهلك - شأنها في ذلك شأن نباتات الارض - غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتقذف بالاكسوجين كناتج أشبه ما يكون بنفاية له . (١٢)

تتوفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر في احواض البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

الارضية ، اما الباقي فيتمثل في المياه المجمدة بصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ ألف ميل مكعب تصبح مياهها عذبة كل عام ، بالإضافة الى ١٥ ألف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الارض بعيدا عن البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ ألف ميل مكعب تتحرك منذ الازل في حركة سمردية رائعة بين السماء والارض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، واذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب بأقدامه على سطح الارض عامة او يضرب بجذوره في تربتها ، الا انه لكائنات اخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . فماذا اعد لها الانسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه انهار الارض وبحيراتها . لا شك ان الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالانسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لا يتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما أحدثه الانسان لاتلاف وتلويث هذه المصادر تعدد صوره ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات ، والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والاملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع ، والمنظفات ومبيدات الاعشاب والمبيدات الحشرية ، بالإضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع الذرية ومولدات الطاقة . ان كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة ان الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الاحصاءات ، وانما تستعمل كصندوق قمامة للتخلص من النفايات ، حتى أصبحت انهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد أشار دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg رئيس لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، ان نظم الانهار الانسى والعشرين في الولايات المتحدة الأمريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (اى ستموت) في نهاية هذا القرن اذا استمر التلوث على معدلاته الحالية . اذ يتسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتأثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقي بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاد الاكسوجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد ..

(١٤) لدراسة الموضوع بتفصيل اكبر يرجع الى :

محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « الانسان والبيئة » القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٦ ، ص ٢٢٩ - ٩٢٣ .

وليس غريبا ان نتحدث عن تلوث المحيطات. فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة ال-D.D.T. بتركيزات مختلفة في الكائنات البحرية في كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت برابرة في كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « توري كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطئ الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة في تدفق ١٢٠ ألف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطئ الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز انفاق ٢٠ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه أسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل في قاع المحيط محدثة خلاا بيولوجيا محققا لكونها سموما خائفة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندينا فيانصيبا من تلوث المياه ، وبدأت اسراب الاسماك تموت في انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد الباراثيون في الدانمرك الاسماك على شواطئ البحر ، وألقت بجثثها على الشاطئ على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق المانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه في سخرية مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما في اليابان فقد ظهرت أعراض ارتخاء في عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف في المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بفيبوبة ووفاة، ذلك في خليج « ميناماتا » بتأثير القاء أحد مصانع الرئبق بمخلفاته في ذلك الخليج : مرض ميناماتا!! وفي السويد حرم صيد الاسماك في أربعين نهرا وبحيرة لتركز مركبات الرئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدية قد اخذت تنفسي بدرجة مزعجة حقا في كثير من الدول الأوروبية والأمريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما في الوادي الاوسط بـ كاليفورنيا، فان الأطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المغلي فقط . ولقد اضطرت مدينة الجن Elgin بمنيسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد في المحصولات الزراعية ، والنترات في حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا في الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نترات (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملوثة (الحاملة للاوكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الإصابة بمرض الميثيموجلوبينيemia ، واهم اعراض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

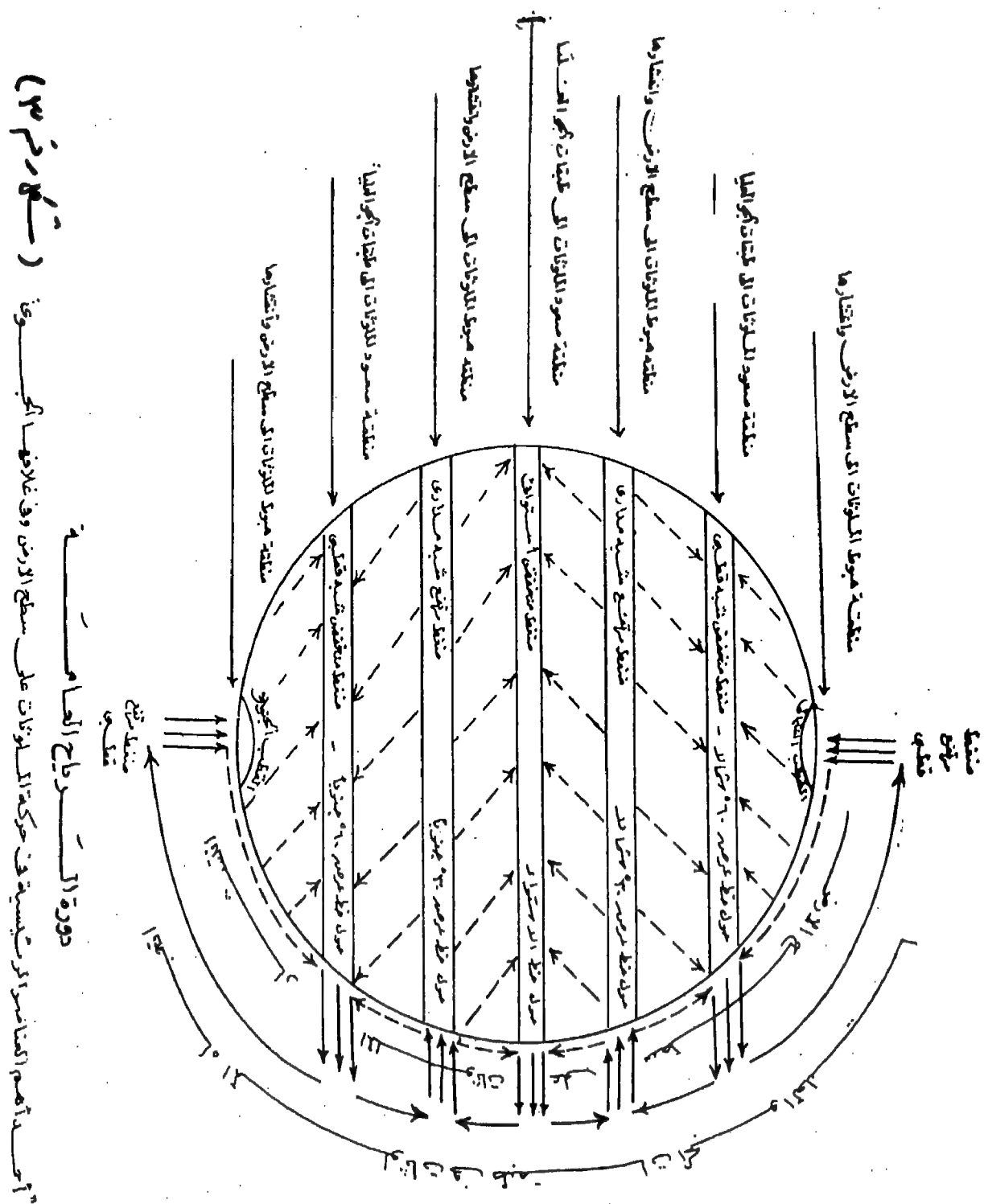


وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الفلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكبرا في كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن في تلك الوقفة لا بد ان تؤمن بأن تلوث الهواء في المناطق الصناعية ليس قصرا عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض في حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة في الرياح السطحية . كما تغذي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن في نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذلك في دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظواهر المحلية كسلاسل المرتفعات والمسطحات المائية الكبرى ، بالإضافة الى التغيرات الموسمية لموقع الشمس في حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أو حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقا . ويعتبر تلوث الهواء من اقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ويلمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا او يهيج رئتنا ، ويشعر سكان المدن - والمدن الصناعية بصفة خاصة - بوطاة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سريعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكئيب المظلم بتأثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ في نيويورك و ٤٠٪ في شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من اول اكسيد الكربون نفتتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة في الولايات المتحدة ، غير ملايين اخرى من اكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع اثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ عنه من كوارث اودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تتكرر في وادي الميز ببلجيكا وبوزاريا في المكسيك ، آلاف التقارير العلنية الرسمية وغير الرسمية مع آلاف اخرى سريفة مرفوعة الى المستويات العليا في الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات في الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل في العطاء السلبي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء بأول اكسيد الكربون - وهوامر قائم ما بقيت السيارة والطائرة وأية آلة في اي مصنع و مزرعة - يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين



الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين أقوى من اتحاد الاكسوجين .
ويسبب اول اكسيد الكربون اختناقاً وتسمماً لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن
البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism)
- او مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما في الخلايا . وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين
فان القلب يرفع معدل خفقانه وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذلك يتسببان في
توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز اول
اكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة
١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءاً من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم
الشوارع بوسائل النقل المختلفة في اوقات الدروة ، فان محتوى الهواء من اول اكسيد
الكربون يبلغ ٤٠ جزءاً في المليون . لذلك كثيراً ما يصاب سكان المناطق المزدحمة بالمرور باعراض
التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، ونقص في تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير
من الآلام الباطنية ، وفي الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بفقدان للوعي ،
ووفاة أحياناً .

وهناك غازات أخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولاً عن
زيادة معدلات الإصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، أما تلوث
الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من اهم مضاعفاته الإصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى
الوفاة . كما ان هناك غازات أخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واكاسيد النيتروجين وغيرها
كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء . ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل
المثال ان انبعاث غاز ثاني اكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠
مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترفع بالنسبة لأكاسيد النيتروجين من ١١
الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتأثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم
الى الهواء ، والذي يقدر بأربعة أضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع (١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى
الآن ، كما ان تركيز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافاً جغرافياً ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

(١٥) هناك ملوثات أخرى للهواء ولكن لا تدخل للإنسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين
التصاعد من البراكين واكاسيد النيتروجين الناتجة عن التلويغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج
من تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الأوزون المتخلف ضوئياً
في الهواء الجوي ، او بسبب التلويغ الكهربائي في السحب ، وتساقط الهباء المتخلف عن احتراق الشهب والنيازك نتيجة
احتكاكها بطبقات الجو ، والأملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والعواصف والأشعاعات الشمسية على المحيطات
والبحار والبحيرات الملحة ، والأتربة التي تثيرها الرياح والعواصف او تأتي بها الجبهات الجوية وتيارات الحمل
الحرارية من التربة المفككة ، وجسيمات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة في الهواء منبعثة من التربة او لتغفن
الهواء والطيور الميتة والفضلات الأدمية ، وأخيراً المواد ذات النشاط الإشعاعي كتلك الموجودة في بعض تربيات وصخور
القشرة الأرضية او الناتجة عن بعض الغازات الجوية بفعل الأشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات أضرار جسيمة
لان معظم ألوان الحياة قد تأقلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٣)

تلقى الطائرات بمئات الاطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائل النقل الاخرى على الارض في تلوث الهواء .

ليس قصرا على مكان ، ولكنه أكثر تركزا في مكان عن مكان آخر . كذلك فان وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال في كثير من المناطق غير كافية بالمرّة ، كما ان التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل أخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاق على سبيل المثال ، وعلى السكان في مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السن والاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فان البحث العلمي في حد ذاته معقد للغاية في موضوع كهذا ، لان عنصرا واحدا من عناصر التلوث قد لا يعطي مردودا سيئا ، او يسبب مشكلة في حد ذاته لو وضع تحت الاختبار عنصر مستقل ، في حين انه لو ارتبط بعناصر أخرى لاعطى مردودا في غاية الخطورة ، ولهدد حياة الافراد والمنشآت في منطقة ما . لذلك كان عزل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزا عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .



التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيدا من الكم الحضاري الماضي الذي - من المقروض - ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي يسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة القت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت في شكل غازات او نفايات صلبة او نصف صلبة او سائله ، الى الهواء او على الارض او في المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة ، وهي حينما لا تجد في هذه النواتج الثانوية قدرا من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن اهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد عولجت قبل القاؤها خارج المصانع . وليس من المعقول ان تظل هذه النفايات يجوار المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلقى قريبا منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقي بها في الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبها وشرورها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعا كبيرا بين صناديق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية أخرى تتخلف عن المواد المصنعة ، كقشور الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الانسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان. ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بفبار احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبريتيك بكفر الزيات ، او بفبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي ياتي على الثبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمعصرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقيه مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، ومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع التسييج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلوية واملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلوية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالإضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيماوية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تسبب في كثير من المشكلات المتعلقة بالملاحة والانتقال في هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات في هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها في كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنتقل الى الهواء قبل ان ترسب على الارض او في المياه . ولا تكاد تخلو أي عملية صناعية من مواد غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالمقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للأمطار او تصلها المياه من أي مصدر لفترة طويلة - تعمل - بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة - على تلوث المياه الجوفية . وفي دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج امر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي في حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (١١) .





شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالتوائج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت المتصاعد يقتل الحياة في الاشجار على طريق القاهرة - حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

أخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الأعشاب :

أمدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة من المركبات الكيميائية التي أسرفنا في استخدامها أيما اسراف ، حتى أننا أصبحنا نعمل على تدمير ذاتنا بخطى حثيثة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكlor والرصاص والزئبق والفلوريدات، وهذه تصل إلينا في مجموعها كملوّثات للبيئة ، ومن هذه المواد تلك المادة التي اصطلح على تسميتها *Decoloro-dephenyl Trichlorethane* ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ *D.D.T.* وهي أخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل إلى مفعولها العالم السويسري بول مولر فنشطت مصانع الضخمة في إنتاج العديد من الأنواع والمشتقات . ولقد أسرف الإنسان في استخدام هذه المنتجات منذ أواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تركيزات قد تبلغ ١٢ جزءا في المليون في الدهون البشرية ، وأكثر من خمسة أجزاء في المليون في لبن الأمهات، رغم أن التركيزات العادية تتراوح بين (٠.٥ ر.) جزء في المليون و (٢٦ ر.) جزء في المليون . ويحتوى لبن الأمهات في كافة الدول الآن على تركيزات تختلف باختلاف استخدام هذه المادة في المنتجات الزراعية التي تستخدمها (١٦) . كذلى تتركز في اللبن الإبقار لدرجة أصبح معها يصل إلى الأطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية .

ولا شك أن مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد أصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد أنها تستخدم وتتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالأسراف منها في إبادة حشرات الزراعة أمر مقبول إلى حد ما ، ولكن أن يقوم بعض الجهلاء من أصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الأرفف جنباً إلى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الأمور الغريبة التي تضاعف من أحكام الحصار حولنا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب أو تداول هذه المبيدات فقد أصبح من الصعب تقدير مدى التأثير الذى تحدثه هذه الملوّثات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان أى منطقة أن يدركوا آثار ما يمكن أن تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم في كثير من الأحيان، أن يدركوا مقدار التفيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التي تحدث نفس الاثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التي أجريت على الحيوانات أدلة قاطعة على خطورة تأثير تركيزات هذه المواد في جسم الأحياء . فقد دلت الدراسات على أن الجرعات الكبيرة من مادة الـ *D.D.T.* تتسبب في الإصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفي حالة وجود نسبة تركيز تبلغ ١٠ أجزاء في المليون يحدث تنشيط

(١٦) هناك مواد أخرى هيدروكربونية مثل الالدرين Aldrin والديلدرين Dieldrin وكلوريد البترول السداسى قد وجدت بتركيزات مختلفة في لبن الأمهات .



شكل رقم (٦)

تفذية الحاصلات الزراعية الغذائية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية بعد العودة الى المنزل كتناول الطعام ؟

لانزيمات معينة في الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذي يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير ، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقير مفعولها . ويذكر ريتشارد ويلك Richard M. Welch أحد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلمية الأمريكية ان مادة الـ D.D.T. تسبب في زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاج هرمونات الجنس (الايستروجين) لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة الـ د.د.ت تؤثر في هرمونات الجنس عند الفئران والطيور ، الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية في الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيرات ان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثل الـ D.D.E. و الـ D.D.D. توجد بتركيزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا في وفاة بعض المرضى . ويذكر ستينباك Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة الـ د.د.ت « عبارة عن سم عصبي من المتعذر التخلص منه أو شفاء المصاب به » (١٧) .

ان تأثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه في النباتات التي تقاوم آفاتنا من أجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته في مكافحة البعوض ، ولقد اثر ذلك في اختفاء هذه الحشرة فعلا في بحيرة كليز بكاليفورنيا الذي كان يتكاثر فيها لتلوثها بالنفايات ادمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسبب في اختفاء اسراب من الطيور كانت تتغذى على اسماك هذه البحيرات بعد ان ثبت وجود تركيزات شديدة في انسجة الطيور الميتة من هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الأمريكية بيانا اعلنت فيه ان هذه المبيدات قد ابادت ٣٢٪ من اسماك المياه العذبة في كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورة من ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التي اكتسبت مناعة ضده ، حتى اننا أصبحنا في انتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من أمورنا وبشجيعنا . ويقول إيرلش ان الزراعة الحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكولوجي فوجت William Vogt في كتابه « الطريق الى البقاء » ان ١٠٪ من النباتات الزراعية في الولايات المتحدة تلتف كل عام ، وأن الأمل ضعيف في استمرارنا على معدلات ما تلقى به من اطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضي الزراعية ، وان الفدان الواحد من الاراضي القريبة من مستنقعات مصب لونغ آيلاند بالولايات المتحدة والتي تم رشها بمادة الـ د.د.ت منذ ربع قرن ، يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

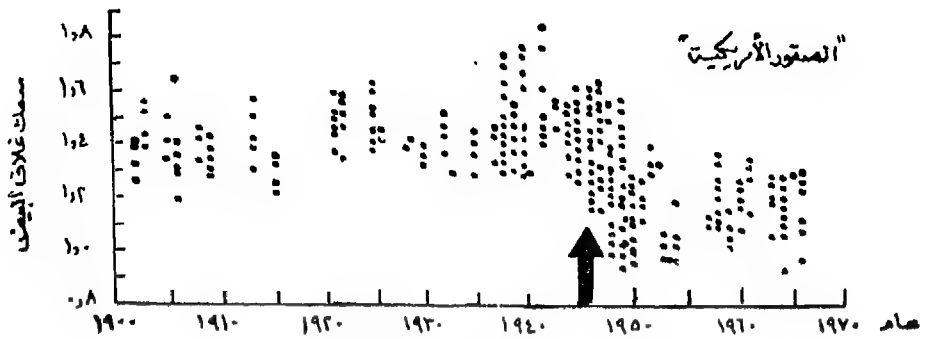
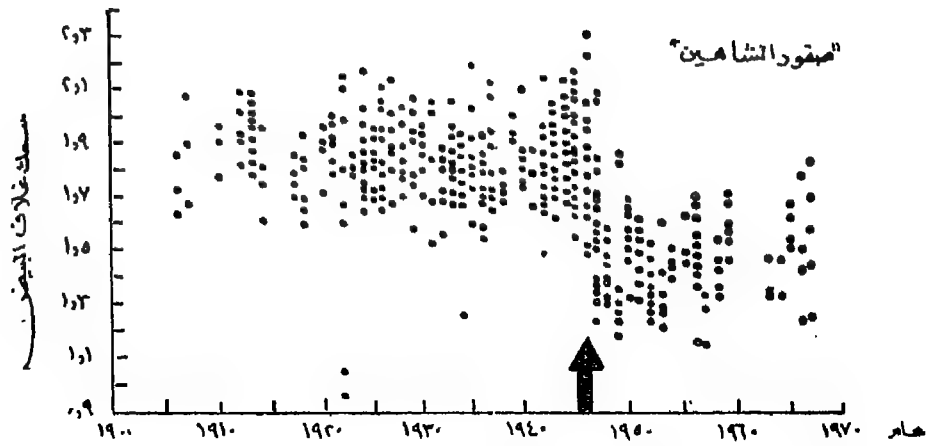
وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجة خطيرة في مقدرة الطيور على انتاج (البيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها في أغلفة رقيقة للغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد اجريت التجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد في سُمك قشر البيض في الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهي الفترة التي

انتشر فيها استخدام مادة الـ D.D.T. كذلك فإن أسماك السلّمون في بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركيزات منها في عينة أخذت من أسراب هذه الأسماك والتي ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صفار السلّمون) في عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذه المادة . وحدث نفس الشيء لبعض الأسماك البحرية التي تصدر مثل التونا والماكريل والقند . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم الايكولوجية واختزالها ، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فآفة أو الحشرة التي تبدو في بادئ الأمر وقد وقعت تحت تأثير هذه المبيدات أو حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد أكبر بكثير من ذي قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين في وادي كانيت الساحلى في بيمو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتار عام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خيّل اليهم ان مزيدا من هذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادى كله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الاشجار لكي يتمكنوا من رش المبيد بالطائرات فماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كما اختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات ، وكانوا يقومون باستخدام هذا المبيد في فترة مبكرة عن فترة رشه في العام الاسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض له محاصيلهم من الآفات ، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها في عام ١٩٥٤ عندما فشلت في القضاء على دودة ورق الطباق . وبلغ البلاء اقصاه من دودة القطن في موسم عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عندما ظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل في هذا الوادى ، بالإضافة الى زيادة في مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك في الموسم المشار اليه الى ٣٣٢ كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلة التي استخدمت من المبيدات ، وبالتالي حلت كارثة بالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن عندما أعطت نتائج عكسية تماما .

وتحدث هذه المبيدات تأثيرات أخرى على التربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الايكولوجي المحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضى هذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسؤولة من تحويل النيتروجين الى صورة ملائمة لتناول النبات له ، وهى مسؤولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية ولازمة للنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل او التلف الذى تتعرض له بعض الدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون في الطبيعة . . انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره . . اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات . . (انظر الشكل رقم ٨) .

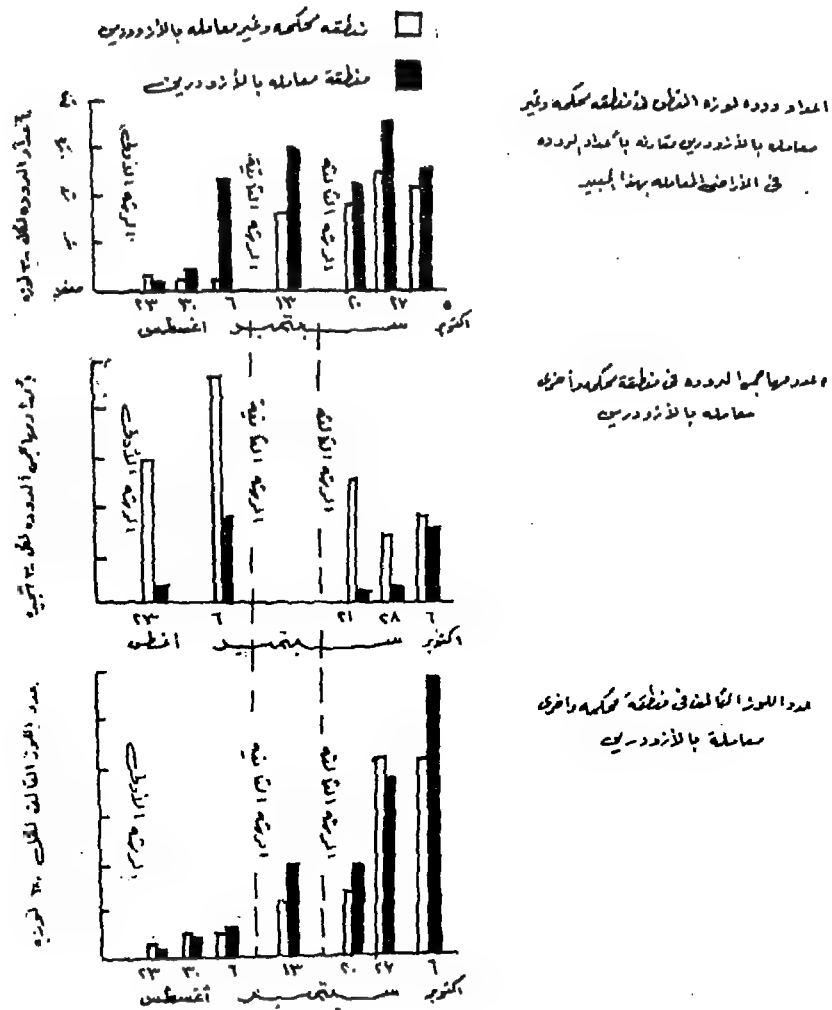
بيئة العمر : بين البقاء والقاء



(تأثير الطير على الطير الجارح)

الطيور التي تطير على سماء أعاليها، يبعد المستور (في بريطانيا) وتتراها
السيدة إلى فترة الاستعمار الذوات لماره الـ ١٠٠٠٠

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التي أجريت لاستعمال مادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن على أن لهذه المادة فاعلية وتأثير واضح على مهاجمي هذه الدودة أكثر من فاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثم قلما ازداد استعمال الأزودين كمبيد حشري ازداد تلف الحصول .

اما مبيدات الأعشاب Herbicides فقد زاد استخدامها في السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعية الميكانيكية والأيدى العاملة ، وذلك للمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية، وارتفع معدل استخدامها حتى عن معدل استخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تأثيرها على قتل النباتات إما عن طريق التفريز التي تحدثها في خلال هذه النباتات فتموت وتسقط أوراقها ، أو عن طريق حرمانها من مقومات اتمام حصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموت أيضا . ومن أهم هذه المبيدات مادة (2-4-D) ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الأمريكية المسلحة في فيتنام لآبادة الأعشاب التي كان يلجأ إليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقها أو هوى في طريقها الى الموت . وينبغي ان نلاحظ ان ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمل على انقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الفطائف النباتية .



مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الى عالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization ولقد قام كنجزلى ديقز بأجراء عدة دراسات خاصة باتجاهات التحضر واسقاطاته ، وتوصل الى ان نصف سكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضر على ما كان عليه عام ١٩٥٠ . اما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فإن سكان العالم كافة سيكونون سكان مدن ، بل ان حوالى نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفي عام ٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع في ضوء هذه التوقعات ان يصبح تعداد أكبر مدينة في العالم ١٤ بليون نسمة . (١٨)

قد تكون هذه الأرقام مزعجة في الواقع ومثيرة . لكن الأكثر ازعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل في ضوء ما هي عليه مدن العالم . لقد فقد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد في الواقع . ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة عدة دراسات حول ما يعرف بالتلوث الضوضائي Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الأخلاقية التي انحدر بها بعض سكان هذه المدن فأضفت على المدينة ستارا كثيبا من الحياة ، واصبح السكان في كثير من المدن الكبرى اليوم في حالة قلق دائم ، مع تزايد الجريمة وتشويه حياة المدن بالاصوات المزعجة لوسائل النقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذي يعم المرافق العامة فيها .

اما عن الضوضاء ، فما أقبح ان يمزق سكّون المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مغادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت في الشعورين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعاً لذلك بين صوت التنفس العادي وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل أى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريباً منه عند الاطلاق .

وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقداناً مؤقتاً لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء اقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملاً هاماً من عوامل الاصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التى أجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تأثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات بشتى أحجامها وأنواعها مختلطة بأصوات الدراجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصفارات عربات الاسعاف والمطافئ ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون في المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق اوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما في داخله ، فبالاضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكائن الكهربائية والخللاطات والفسالات وماكينات الحلاقة والحيافة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وتردداتها ، كما تختلف التأثيرات السيكولوجية تبعاً لمفردى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصوت محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقاً ومدمراً للاذن ، ولكنه في نفس الوقت قد يعطى تأثيراً نفسياً مفعوراً بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماماً كما يعتمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب في مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيراً فريداً عليهم حقيقة .

- اما وسائل النقل الجوية ممثلة في الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنفصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانئ الجوية التى تستقبلها . ولقد ثبت فعلاً ان الصدمة التى يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديداً مباشراً وخطيراً للاسماع . كما ثبت فعلاً اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة في مواسم الطيران الزائد .

وبالاضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيء على السكان القريين منها ، كما ان أصوات



شكل رقم (٩)

(التلوث الضوضائي بمدينة اليوم)

لاشك أن وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حدود المعقول في تأثيرها الضوضائي .

موسيقى الجاز الصادرة من أجهزة الصوت المجسم تعتبر هي الأخرى ، وقد بدأت تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الإنسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التي هي فن وجمال ، ننسى تأثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآتية .

ويؤكد صامويل روتن أحد رواد البحث العلمي في الاصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدي الى تضيق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الضوضاء في الإنسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة تلف الخلايا الشعرية المجهرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذي قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها ، واما يضاعف السمع ضعفا مزمنًا . .

وبالإضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الضخب والضوضاء التي تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التي بدأت تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتوضح هذه الصور في العيّنات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى اقصاه . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وتلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة في المدن ، انما يؤدي الى عدم تقارب الافراد والأسر ، وضعف في العلاقات العامة والتعارف بين الافراد ، مما يتسبب في توترات نفسية .

وفي هذا المجال يقول العالم السيكولوجي زيمباردو P. G. Zimbardo ان الضغوط الحضارية في المدن انما تعمل على تحويل الأمريكيين الى جماعات من القتل وسفك الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التي أجراها حول العلاقة بين ما يعرف بالغفلية Anonymity والاعتداء Aggression ، وعن طريق الدراسات الميدانية لما يعرف بالوندلisme Vandalism وهي التخريب المتعمد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلقد رصد في الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالي ٢٣٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكر ان المخربين قد قاموا في عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠) جهاز تليفون عمومي في نيويورك فقط . بالإضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شبكات مدرسة ، واتفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات في نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة ايام بلا سبب وامام المارة وفي وضع النهار (١٩) .

ومن دراسات أخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية في المدن ، ولقد اوضحت الاحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الأمريكية (وهي اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقه والقتل والجنس ذات ارتباط واضح بمناطق الكثافات العالية في هذه المدن . هذا بالإضافة الى ان هناك أعراضا أخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكاني في المدن .

ففى اواخر الستينات أجريت عدة دراسات فى مانهاتن عن تأثير الازدحام على السكان ، فوجد ان هناك حوالى ١٨٥ ٪ من السكان يعانون بدرجة أو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياء الفقيرة او المرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى او الطائفى من أهم العوامل التى تقترب بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن أهم امراض هذه الاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ، وإساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذا بالإضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشريان التاجى وارتفاعات ضغط الدم. ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشديد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلك يستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصير .



البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكل رقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافة فى هذا العالم . وتضيف الاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وعن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٣ آثارا لا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلك نتيجة لتلك التجارب على تفجيرات القنابل الهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما أعقبها من ترسب لسحباتها المحملة بالضخمة على سطح الارض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجة عن هذه التجارب انواعا جديدة من الدرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددت فى الهواء والمياه ومصادر الغذاء واستقرت فى اجسامنا . وتبعها لخواص بعض هذه المواد فقد تركت فى اجزاء حساسة من اجسامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للقيار الدرئ المتساقط عن تجارب القنابل الدرئية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرّة .

وخلال التجارب النووية التى أجرتها الولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدثون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظر عنصر معين من عناصر القنابل الدرئ المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونتيوم - ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحوث مستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذات مدى زمنى طويل ، وهو من الناحية الكيميائية يشبه الكالسيوم ، أى انه يتركز فى

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بدء الحياة السرنوع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة من الصخور بدرجة طفيفة تأقلم معها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

تفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار
الذرى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

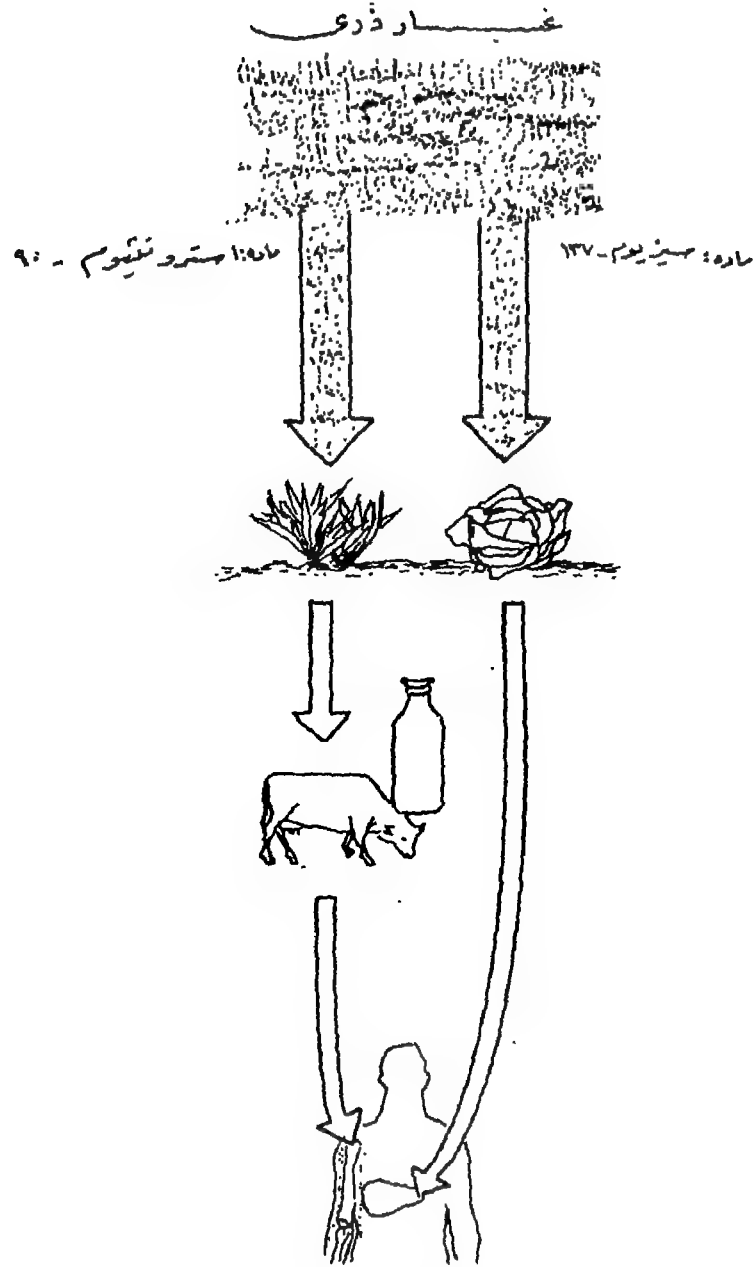
العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنة في الأرحام والأطفال الصغار ، ويصل الى هذه العظام عن طريق ترسبه في الأعشاب والنباتات التي تغذى عليها الإبقار ، وبالتالي يتركز في البانها . وقد يسبب عنصر الاسترونسيوم - ٩٠ هذا مرض اللوكيميا أحد أنواع الأمراض السرطانية ، فهو - أي هذا العنصر - يهاجم الأجنة فيسبب تشوهات خلقية للأطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم أحيانا . ولما كانت مثل هذه الأعراض تحدث نتيجة لأسباب أخرى ، فإن تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الفبارالدرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، إلا أن من بين التجارب العديدة التي أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية تحت الأرض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الإشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما إلى كندا . (شكل رقم ١١)

ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فإن سباق التسلح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية . فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانعها إنما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الأرض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الأمطار لها إلى باطن الأرض ، ومن ثم تسرب إلى مياه الأنهار لتلوثها بالإشعاعات .

والأخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والتريتيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث أخطارا إشعاعية مباشرة وكثيفة ، وتكفي في نفس الوقت لخلق أخطار تستمر عشرات السنوات أن لم تكن مئات . فعنصر الاسترونسيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، أي أن ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة إشعاعية ذات أخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الإشعاعي الذي ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المعدنية في قلب المفاعل . وبعد سنة أو سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل إلى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الإشعاعية منه في محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا ربما إلى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الإشعاعي ، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة . وينبغي عدم نفاذ هذه المواد إلى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الأرض ، ويتسع كل خزان منها لحوالي مليون جالون ، ولو أن ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الأرض لوصلتهم جميعا ، وعرضت أجسامهم إلى نقطة الخطر الإشعاعي . ومع هذا فإن مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذري المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذري المتساقط لا تكمن أساساً في الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى في الطريقة التي تصبح فيها الجزيئات الإشعاعية مركزة في مجرى السلسلة الغذائية ، ومن هنا فان مادة الاسترونشيوم - ٩٠ للنظير الإشعاعي تمتصه الماشية أثناء تغذيتها بالأعشاب الملوثة ، ثم تنتج هذه المادة الى الإنسان من خلال تناوله اللبن والجبن ، ثم يتسبب في إصابة الإنسان بسرطان العظام . أما مادة السيزيوم - ١٣٧ الأقل ذوباناً ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الإنسان حيث يتركز في الأعضاء والأنسجة الدقيقة مثل الكبد والغدد التناسلية وفي هذا خطر جسيم على كل المورثات (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقتطع . بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل في أحد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ ألف جالون من تلك المادة المهلكة أخذت طريقها المجهول في التربة . (٢٢)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تتسرب من العناصر الإشعاعية الخطيرة .
وتحدد كذلك الجرعات الإشعاعية المسموح بها للعاملين في المصانع الذرية وللعمامة من الشعب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي للفئة الأخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الأولى ، وهو بذلك أقل من مستوى الخطر الإشعاعي . إلا أن الدلائل تشير إلى أنه في حالة استمرار العمامة من الشعب الأمريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الإشعاعات ، فإن ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنوياً بسبب السرطان . وإن كان هذا العدد ضئيلاً بالنسبة لسكان الولايات ، إلا أنها نسبة كبيرة لأفراد من الجنس البشري يموتون بسبب تفرات متعمدة في الظروف البيئية .

أما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فإن الأخطار ستظل تتهددهم ، كما أن إنتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والثرثيوم واليورانيوم تنطوي على إنتاج نفايات إشعاعية تستعمل في إنتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الأنهار والبحيرات بدرجة تؤثر في الحياة المائية . ولا شك أن التخلص من هذه النفايات الإشعاعية إنما يعد من أخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع أننا لم نتحدث في كل هذا عن أخطار الحرب النووية لو أنها - لا قدر الله - قامت . ويبدو أن المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع . . أو هكذا نتوهم . فبالإضافة إلى القتل الفوري للأرواح البشرية ودمار الممتلكات ، فإنها سوف تؤدي إلى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

إن ما يمكن أن يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين ودول أوروبية نووية أخرى له تأثير خطير على كل أجزاء العالم . سوف تتوقف فوراً مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة إلى الدول الأخرى . وسوف تمتنع الأولى عن مد الدول الأخرى بالبذور ذات الإنتاجية العالية والأسمدة والحبوب الغذائية . والجرارات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة لكون العالم اليوم في ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفي حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل زراعة المحاصيل في مناطق عديدة ، كما أن اندلاع النيران الهائلة في نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدي إلى إرسال كميات هائلة من الحطام والهباء إلى الغلاف الجوي إلى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعاً لذلك تفرات جلدية للظروف المناخية في سائر أنحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كنطاقات الغابات الهائلة في عروضها المختلفة

شمالا وجنوبا ، ولتولدت عواصف نيران رهيبه ، تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينما قامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طنا من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة همبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ ألف قدم ، وبلغت درجة حرارة المناطق المغطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهايت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلا في الساعة ، وسخن هواء الملاجئ المحفورة تحت الارض لدرجة كانت تشتمل فيها المواد القابلة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجئ لدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتح للتهوية مرة كل عشرة ايام عادة في الظروف العادية .

لا شك ان حربا كهذه سوف تتسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الفطاء النباتي هو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عقما جزئيا او كليا ، كما ستعمل الامطار على جرف الطبقة العليا منها . ولنتخيل مثلا تجرد تلال كاليفورنيا من غطاءها النباتي وسقوط الامطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف من القارات الشمالية الى المياه بعيدا عن الشاطئ . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على اليابس المجاور ، وسيتدفق فحواها الى مياه المحيطات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٢)

اما الاحياء الذين سيبقون بعد اي حرب كهذه فسوف يعيشون في بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما ستركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعات البشرية الى اشقات مبعثرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثة المعقدة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءا ضئيلا فقط من المتغيرة الوراثة للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقداكثر لهذه المتغيرة ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقية التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصرا على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقيا ومدمرا لمن سيبقى على الارض من بعدها .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت في احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفي خلال الربع قرن الاخير استنفدنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفد في كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا في أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها في سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا في ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو الممكن حصره في هذا المجال . فهناك تهديدات أخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتعرض له البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدهان واللحم وبعض اواني الطبخ وانابيب المياه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالإضافة الى الخل الذي يمكن ان يحدث في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية في مقال واحد او لتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثات المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا في الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيرتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفالنا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث في القرن التاسع عشر ، الا اننا لا زلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم في ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، أم ان الزمام قد فلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى في المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعاققت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل في بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٤)

See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

(٢٥)

نظرة اخلاقية للمشكلة :

يبدو أن العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بايجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، فكثيرا ما تعرض العلم للهجوم والظقيان عندما يصبح جريئا في المناقشة، نزيها في البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادئ الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادئ . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت في العصور الوسطى ، كما تعرض لضلال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا في الماضي - وخاصة في نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة في الدين ان نضرب المثل بمبادئ الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك في مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفي روما تحت حكم الاباطرة ، وفي الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة في المجتمع . وحديثا - وللأسف - اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادئ الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والمذاهب الدينية الاخرى ، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على أعلى مستوى ، ولقد أصبح من العسير في هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية في حدود السرقة او الايذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر في الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق اصبحت الان تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايا احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا في الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الروتجينات والميجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي ويعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الايكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وأن الجريمة الاخلاقية الكبرى في وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها في تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر تحتاج الى اعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي في البناء الاقتصادي الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية في تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

وهكذا نصبح في حاجة لمظلة عقلية او غلاف عقلي Noosphere نتفحصه جيدا ،
لانه سوف يعطينا الفرصة للوصول الى حل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف
عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف او البنوك التي تحل
المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضة ، ولا يمكن ان
نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش في مجتمع أبسط وحياة أكثر اشراقا ، بل ان طبيعة الانسان
هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض
دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا في الختام لا نستطيع ان نعثر لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم في نظم البيئة والمجتمع،
تلك النظم التي هي اساس التوازن في تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى
جنب مع العديد من المبادئ الايكولوجية الاخرى، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس
بيكون في القرن السابع عشر عندما ذكر اننا لا نملك حق اصدار الاوامر للطبيعة، بقدر ما نملك
من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢١) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل افرادة ، ومن الحكومات والاجهزة
التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعالمتها
في مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمال موارد الثروة في ضوء احتياجات المستقبل . .
وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان
العالم . . فهل يكون الحل في الحد من تزايدنا . . ام في ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجية
والنظم البيئية التي تعمل في توازن دقيق ؟



أهم المراجع

أولا : مراجع عربية :

- جـوزويه دى كاسترو « جغرافيه الجوع » ترجمة زكى الرشيدى ، القاهرة (الالف كتاب - رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .
- عبد المحسن صالح (دكتور) : « المذنية الحديثة ومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .
- محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت (١٩٧٥) .
- « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٢) .
- « الانسان والبيئة » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٦) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

- Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.
- Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.
- Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.
- Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.
- Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.
- Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.
- United Nations : " The Determinantseon Conseu nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.
- Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.



الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

* منصور احمد منصور

مفهوم دوافع العمل

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work حول دراسة طبيعة الانسان العامل Human Nature وسلوكه او تصرفاته Human Behavior . والفرض من هذا هو التعرف على حاجات الانسان ، ورغباته ، ثم محاولة اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات . والهدف الامثل Ultimate Objective الذي ترمى اليه المنظمات العاملة ، هو

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقا لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل أو الترغيب فيه ، باعتباره أسلوبا انسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، وبذل طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق أهداف المنظمة ! .

* دكتور منصور احمد منصور استلا مساعد بقسم ادارة الاعمال - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث في الإدارة العامة واللائى العاملة .

١ - تنادى النظرية المذكورة بخمس مبادئ :

(١) مبدأ اعتبار النظام نظاما اجتماعيا ، (٢) مبدأ القيادة ، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية قدرات العاملين .

أو معنوية ، في الحال وفي المستقبل ، ومن ثم فإن الإجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالإجابة عن السؤال الأول ، من وجهة نظر الحوافز التي تحرك دوافع الإنسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكريس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق أهداف المنظمة .

السلوك الإنساني

ان دراسة السلوك الإنساني Human Behavior في العمل ترتكز أساساً على قدرة الرجل الإداري في فهم طبيعة الإنسان وبفرض توافر هذه القدرة ، فإن فهم طبيعة الإنسان تتطلب أن نعطي المدير قدراً من الوقت أو الزمن . ومن ثم فإن الجهود التي تبذل في اختيار الأفضل من الناس مقدرة وسلوكاً ، لا تكفي في حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة . وهذا لا يتأتى إلا بالممارسة الفعلية لواجبات ومسؤوليات الوظيفة من جانب الموظف . ولهذا أخذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعييناً « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ أشهر إلى سنة) يمكن دراسة سلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة أبقاؤه أو إبعاده دون مسئولية في تعويضه أو التزام بقبوله عاملاً .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الإنسانية على أن نشاط الإنسان هو تعبير مادي لسلوكه ، ومن ثم فإن السلوك الإنساني يعبر عنه بمجموعة من الأنشطة الإنسانية . وتتمثل هذه الأنشطة في طريقة سير الإنسان

تحقيق أهدافها عن طريق إشباع حاجات القوى العاملة ، وتحقيق رغباتها الأمر الذي يدفعها إلى العمل والانتاج Productivity

وهذا يعني سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالأسلوب الذي يحرك قدراتهم الفنية والعلمية والعملية ووسعها في خدمة الأهداف .

ومد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل ، أو ترغيب العامل في العمل والاستمرار فيه بأنه الرغبة الإنسانية Willingness في الاستجابة إلى متطلبات المنظمة ، أي تحقيق رسالتها أو أهدافها (٢) - (The Accomplishment of Organizational Missions)

وأحد المفاهيم العالمية المختلفة لدوافع العمل أو ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسة هذه المفاهيم وتحليلها فإنها جميعها تدور حول الإجابة على الأسئلة الآتية : -

الأول : ماهي الوسائل الفنية أو العلمية التي تمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الانحاء من الناس للالتحاق بوظائف المنظمة ؟

الثاني : ماهي الحوافز ، المادية أو المعنوية التي تمكن المنظمة من تطبيقها للابقاء على الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الأمثل من الكفاية والانتاجية Productivity ؟

ولاشك أن السؤال الأول يعني الاهتمام بدراسة السياسة الإدارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه السياسة وبين الحوافز التي تقدمها المنظمة للعاملين لديها . إذ أن اختيار وترغيب الكفاء من الناس ، يقتضى « اغرائهم » بما تقدمه المنظمة من مزايا أو حوافز مادية كانت

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه في العمل،
واسلوبه في أداء الواجبات والمسئوليات
الخاصة بعمله ، وقد يؤدي الانسان اكثر من
نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل في
العمل اثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة
بعمله .

ولا شك ، أن الانسان له قدرة على احداث
تغيير مفاجيء في سلوكه ومن ثم في نشاطه ،
كما أنه يستطيع التوقف عن نشاط أو انشطة
معينة وتبديلها بغيرها . . كما أن للانسان
قدرة على الإبطاء في ممارسة نشاط معين ، أو
تأجيله أو انهاءه بصورة أو بأخرى . هذه
الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما
هو الدافع أو الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط
معين دون غيره ؟ ما هي الاسباب في تغيير
الانسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم في نوع
نشاطه أو الانشطة التي كان يزاولها ؟

وتكون هذه التساؤلات اكثر اهمية ، اذا
ارتكزت على سلوك الانسان وتصرفاته في
العمل . ومن ثم فإن مناطق الصعوبة ، يتمثل
في ايجاد الوسيلة أو الوسائل التي تمكن
الرجل الإداري من فهم سلوك العاملين تحت
رئاسته أو اشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا
السلوك واخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق
اهداف المنظمة ، والطريق الى هذا الفهم ،
وخلق هذه القدرة أو تنميتها لدى المديرين
يتمثل في ضرورة الإلمام بالدوافع أو الحافز أو
الحاجات Motives or Incentives or Needs
البشرية التي تؤدي الى تكوين السلوك المرغوب
فيه في وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين دوافع
الانسان واشباع رغباته أو حاجاته . فالدوافع
تدفعه الى سلوك أو تصرف معين ، ويقوم

الانسان بالتعبير عن السبب .
ممل معين ، الامر الذي يولد
حاجاته أو رغباته أو اهدافه
ذلك بالشكل (رقم ١)

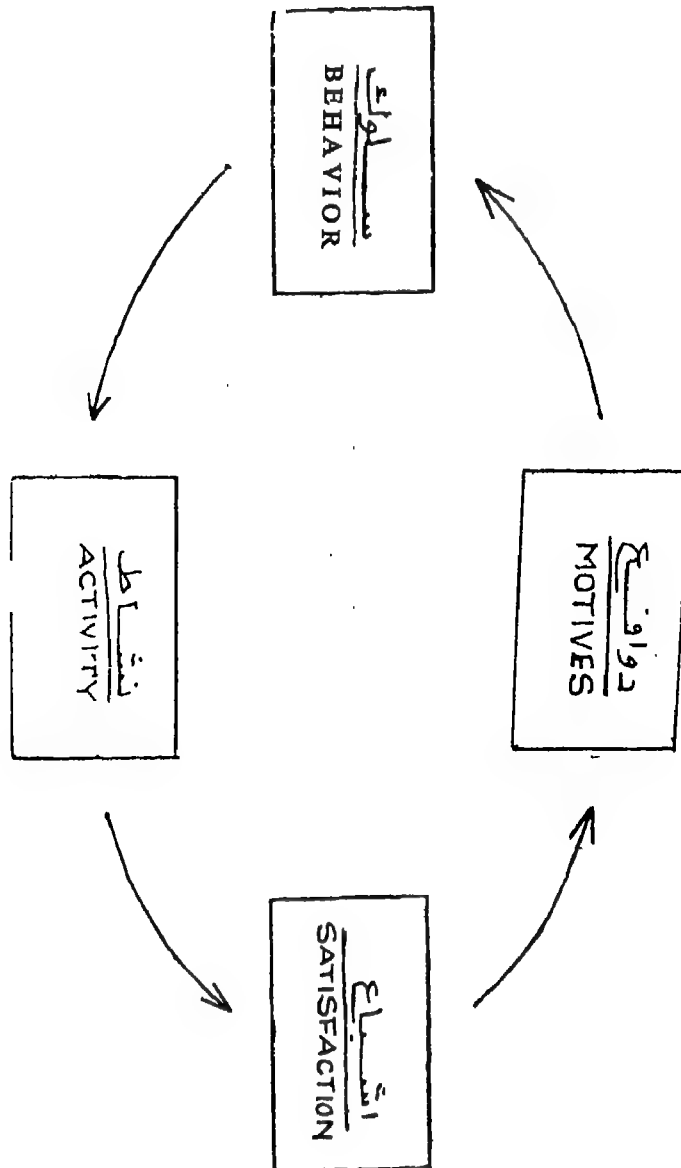
من الشكل رقم (١) سبب
الاسباب (whys) الحقيقية
المحركة للأنشطة ، وبها يسير
السلوك ، وتلك الأنشطة .
مرتعا للأبحاث السلوكية بدء
التي ينطلق منها أنواع السلوك
(Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى يرى سبب
أن الرغبة أو الحاجة (Desire)
تمثل الغاية أو الهدف (Target)
يسعى الانسان الى تحقيقه أو
بالدرجة أو المستوى الذي يراه كافيا
نفسه منها . ومن ثم يمكن الفصل بين
الى اشباع حاجة ، أو تحقيق غرض
المحركة لدوافع الانسان المحظوظ
وتحديد نشاطه ، الذي قد يجعله
الحاجة أو تحقيق الغاية .

الخوافز

وتطبيقا لما تقدم فإن مودرن الذي
كيفية اختيار «الحافز» أو الخوافز
التي تحرك دوافع الانسان
وأدائه لنشاط أو انشطة معينة
أو بالاسلوب الذي يحقق له اهدافه أو رغباته
وبمعنى آخر يتعين إقامة صلة مباشرة
بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرعدة

ومن ناحية أخرى فإن اسباب
الانسان العامل أو تحقيق رغباته أو حاجاته
المنظمة يقتضى أن يحدد مسبوقة



شكل رقم (١١)

إشباع حاجات ورغبات الإنسان

نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية في تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية) ،توصلا الى تحقيق رغباتهم وآمالهم الدائمة .

ولهذا فانه قد يكون من الضروري للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقوة فاعلية (Intensity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما انه من الضروري اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها او تنوعها تبعا للتغيير في رغبات الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق اجراء الابحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات العديدة على انه يتعين توافر شروط محددة في تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للاجر مثلا فانه يتعين تحديده وهو احد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، العدالة ، والمساواة والكفاية . اما الحوافز المساعدة او الاضافية ، فيجب توافرها ما يلي عند اختيارها واقرارها :-

١ - سهولة فهم السياسة التي تقررها المنظمة في تقريرها للحوافز (Easily Understood) .

٢ - عدالة الحوافز وكفايته (Equitable)

٣ - ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية او البدنية او السلوكية التي يبذلها العامل في تحقيق الحد الامثل للانتاجية (Directly related to effort)

٤ - اقرار صرفها او ادائها للعاملين فسي مواعيد محدودة ومتقاربة (Based on short Payback period)

٥ - ارتكاز الحوافز على اسس ومستويات مقبولة . (Based on relevant standards)

الى تحقيق اهداف المنظمة ، ومن ثم فانه يتعين اقامة صلة اخرى وثيقة بين اهداف المنظمة وأهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والاقتناع الانساني بأن تحقيق أهداف المنظمة ضرورى لتحقيق أهداف الجماعة في المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الاتي رقم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) الى ان اشباع حاجات الانسان العامل وتحقيق رغباته مرهون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبطة بها ، بمعنى أن تحقيق الاهداف شرط لازم لامكان اشباع حاجات الانسان ورغباته . واذا اردنا اعادة صياغة هذا في اسلوب اكثر دقة وسهولة، فانه يمكن القول ان الحد الامثل لانتاجية العامل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهري في اشباع الحاجة او تحقيق رغبة الانسان العامل .

على ان ما تقدم لا يعنى قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة او تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها في الوصول الى الحد الامثل في الانتاجية . بل انه تجب التفرقة بين ما يسمى بالحاجات او الحوافز الضرورية او اللازمة (Primary Incentives) وبين الحوافز المساعدة (Auxiliary Incentives) . ويتمثل النوع الاول في الاجر المحدد للوظيفة ومشتملاته ، ويتمثل النوع الثاني في كل المزايا او الحوافز ، التي تقررها المنظمة مادية او معنوية بالاضافة الى النوع الاول تشجيعا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ومن ثم فان النوع الاول من الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضرورية التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة الا في الاحوال التي يجوز فيها ، او يتعين معها اتخاذ أمر يؤثر على صفة الاستمرار أو الانتظام في ادائها ، اما الحوافز المساعدة ، فهي التي تقررها المنظمة لجميع العاملين او لبعضهم بشروط معينة ، تشجيعا لهم ، لتوجيه

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة،
تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم في
تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح
اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى
جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية
(Group Incentives) او بصورة فردية
(Individual Incentives) .

ويصور الجدول (رقم ١) اهم المزايا
الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة في
الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كإطار لقطاع
الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .

الاستمرار أو الانتظام في

(Continuous rather than Sporadic)

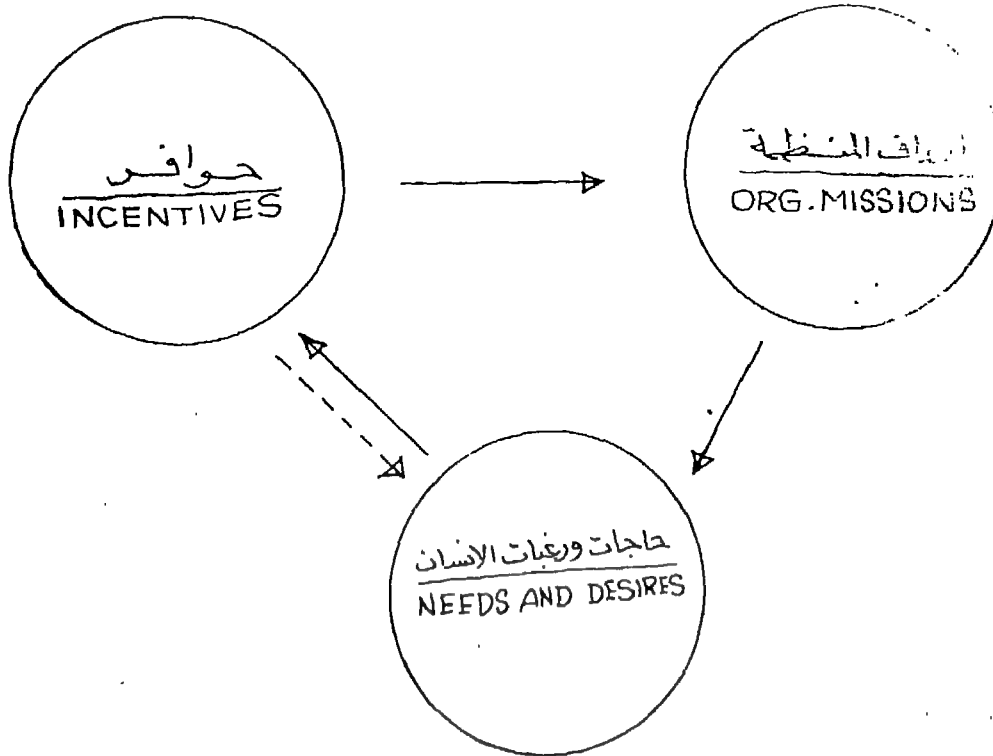
ارتباطا مباشرا ووثيقا برسالة

(Related to Organization's Purpose)

بمجالها اتصالا مباشرا

اعثه Drives (٢) .

تتمتع المزايا الاضافية في



شكل رقم (٢)
تحقيق أهداف المنظمة

- Robert A. Sutermeister, *People and Productivity* (New York : McGraw-Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, *Job Evaluation* (New York : McGraw-Hill, Company, 1963).
- David W. Belcher & R. H. Leukert, *Job Evaluation* (Englewood Cliffs, N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق

جدول رقم (١)
اهم المزايا الاضافية التي تمنحها بعض
المنظمات العاملة

امثلة	نوع المزايا الاضافية	مسلسل
<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للاجازات الرسمية - المزايا المالية الاضافية في النوبات الليلية . - المزايا المالية عن عمل وقت اضافي - البديل النقدي للعمل في الاجازة الاسبوعية 	مزايا اضافية مقابل عمل يؤدي	١
	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	٢
	مزايا نقدية غير مرتبطة	٣
<ul style="list-style-type: none"> - مكافآت الاعياد السنويه - مكافآت المواظبة على الحضور - مكافآت الجودة في الانتاج - مكافآت اتباع تعليمات الامن والصيانة - مكافآت الخدمة الممتازة - مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . - مكافآت نهاية السنة المالية 	مزايا نقدية غير مرتبطة	٣
	<u>بساعات العمل :</u>	
<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للاجازات غير الرسمية - الاجر المدفوع للوقت الذي يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للادلاء بصوته في الانتخابات او الادلاء بشهادة في المحكمة ... الخ - الاجر المدفوع عن اوقات الراحة اليومية . - الاجر المدفوع عن اوقات تناول الغداء - المزايا المالية المدفوعة في حالات وفاة احد افراد الاسرة . - المزايا المالية المدفوعة للوقت الذي يستغرقه العامل في تغيير ملابسه او الاستعداد للعمل . 		

تابع جدول رقم (١)

امثلة	نوع المزايا الاضافية	مسلسل
<ul style="list-style-type: none"> - اقساط التأمين التي تدفعها المنظمة لصالح العامل . - المزايا المالية الاضافية في حالات العجز . - المزايا المالية الاضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . - اقساط التأمين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . - الضمانات المالية التي تؤديها المنظمة لصالح العامل . 	المزايا الاضافية في نطاق حماية العامل :	٤
	مزاي اضافة للخدمات	٥
<ul style="list-style-type: none"> - توفير المطاعم في مكان العمل - توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية - توفير المساكن للعاملين - تقديم منح دراسية وتدريبية - تقديم استشارات فنية وقانونية 		

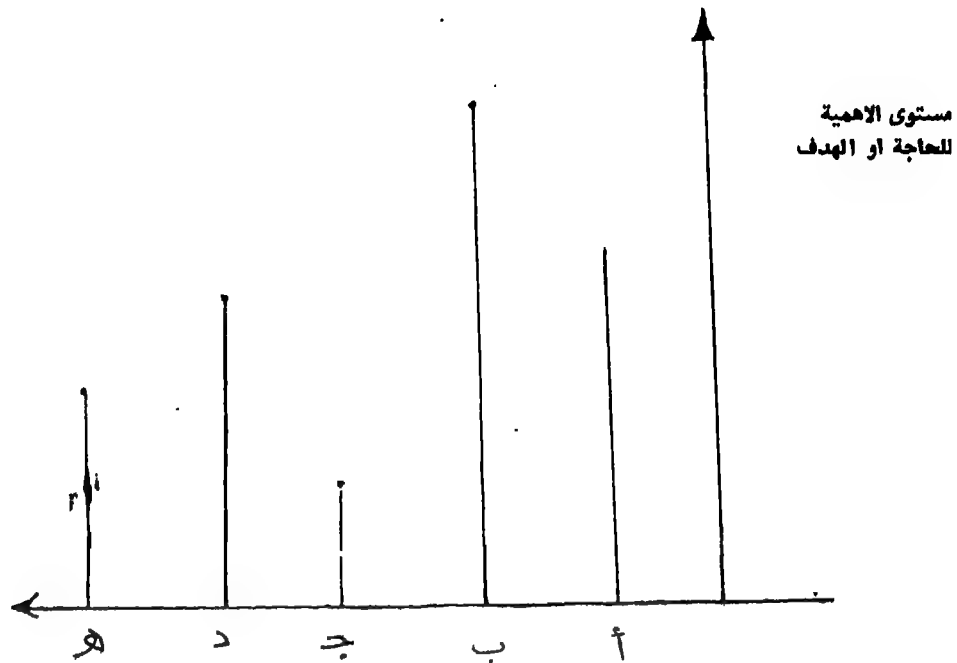
الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها في وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه في اتجاه تحقيق أهداف المنظمة . وتتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الأولى تتمثل في اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظرا لتعدد حاجات الافراد في وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات التي تمثل

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التي تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التي تمثل الحاجة أو الرغبة الملحة والهامة والقوى لدى العاملين . ومعنى ذلك ان حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة في اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث أهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة أن تختار الحاجة أو الهدف الذي يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين في وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) ان الحاجة أو الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الأهمية لدى الانسان في وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة أو تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق أهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل



شكل رقم (٣)
أهمية الحاجة أو الهدف

آمال وأهداف النسبة الغالبة من الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق الابحاث العلمية في مجال الحوافز .

الثانية تتمثل في ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الافراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة باشباع هذه الحاجات أو تلك الرغبات وضمان ذلك في المستقبل . ولا شك في أن هذه الصعوبة تقع مسؤولية حلها على الإدارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل في الشعور العام للجماعة أو الافراد بتوافر امكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها في مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في أن السياسة المعلنة في مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة في مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة في مجال سلوك الافراد في المنظمات العاملة على أن البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وأهدافه ووسائل تحقيقها

ابحاث الدوافع :

تعددت الابحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتمطيها ركيزة الاعتماد عليها في المجالات المختلفة في المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا الى

أسباب عديدة منها أن هذه الابحاث تحتاج الى وقت لوضعها موضع الاختبار العملي في مجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالابحاث السلوكية في الدول عامة والنامية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للابحاث والتجارب في ميدان العلوم السلوكية (٥) .

على أنه مما لا شك فيه أن هذه الابحاث قد أرسيت مبادئ هامة وأساليب فنية ، وافكارا تركز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية في مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن أن بعض هذه الابحاث نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للمزيد من هذه الابحاث وتلك التجارب (١) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بداها ماسلو (Maslow) من النظريات التي أخذت مسارها في التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب في ابحاثهم وابتكاراتهم في مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو أن هناك خمس حاجات للانسان لها أهمية تصاعدية أو هرمية . هذه الحاجات تتمثل في:

(١) الحاجات المادية أو الضرورية

(٢) الحاجة الى الامان والضمان

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة الى التقدير (٥) الحاجة الى الاحراز أو تحقيق أقصى الآمال أو الطموحات .

٥ - د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي وأهميته في مجال الادارة ، الإدارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، أكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الإدارة اتحاد جمعيات التنمية الادارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ - تدل الدراسات على أن أهم نظريات الدوافع والحوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الإنسانية ، (٤) نظرية التفصيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة (التكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس ..

١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتبارا من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، وأجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين في العلوم النفسية .

وتتلخص أهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ - يتطلع الانسان لاشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئا بالحاجات الضرورية (الاجر والامان والطمأنينة في العمل) .

٢ - ليس بالضروري ان يستمر هذا الاتجاه ، اي تسلسل اشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لاشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ - بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع أولئك الذين حققوا نجاحا في عملهم ، لاشباع المستويات العليا عن الحاجات (الرغبات) تاركين أو غير عابئين بالمستويات الدنيا منها (كالاجر والامان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع اساسا الى ان هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها في التسلسل الاداري ، ما يضمن لها الاجر والامان والطمأنينة في العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحا ملموسا في العمل ، الا ان الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحا ، يتمثل في ان الفئة الاولى تكون اشد حماسا واكثر اهتماما باشباع هذه الحاجات .

٤ - اظهر المديرون (الناجحون منهم والاقل نجاحا) اهتمامهم باشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والانجاز ، وكانوا اقل اهتماما بالاجر والامان والطمأنينة في العمل مثلما كان الامر عند بداية خدمتهم .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على ان نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نمودجا رائدا في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وابحاث بناءة في مجال الدوافع والحوافز ارتكازا على الحاجات الانسانية الخمسة التي جاءت في النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها في ايجاز .

الحاجات المادية : اجري العديد من الابحاث لمعرفة مدى وأهمية الحاجات الضرورية أو المادية لحافز أو دافع للعمل . وقد اشارت هذه الدراسات والابحاث الى انه غالبا ما يرتبط اشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس الخ بوفرة النقود . على ان الافراد لا يهتمون بالنقود في حد ذاتها ولكن نظرا لكونها اداة (Tool) تمكنهم من اشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فاشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) . الا انه مما لاشك فيه ان للنقود وظائف اخرى قد تكون اكثر أهمية ، واعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الابحاث التي اجريت في مجال النقود كأداة لاشباع الحاجات الضرورية ، انها باعث أو دافع معقد ومتشاك . كما ان أهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعيا لاشباع حاجات اخرى طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا ان النقود تلعب دورا هاما وحيويا في اشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الاهمية في التناقص كلما ارتفعنا في سلم درجات الحاجات .

واجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختبار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفا عينوا بالادارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية عام

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :

ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان او يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانية ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة في اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومة الفرد (Resistance) للمنظمة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معها (Uncooperative) .

وتشير هذه الدراسات الى ان الانسان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا في حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات او اهداف اخرى ، فقد يرغب الانسان في الانتماء الى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها في مسائل او آراء او معتقدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قد تختلف فيما بينها من حيث المبادئ التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة في خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق أو الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركونهم نفس الشعور ، وقد أكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

الحاجة الى الامان : تمثل هذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية في اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتمثل هذه الحاجة في محاولة او رغبة الانسان في ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد أسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة في حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميول الانسان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على أهمية حاجة الانسان الى الامان وأثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانية أمر يرتكز على الواقع وتؤيده الدلائل . ولاشك في ان الدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامان والطمانية . وتمثل وسائل اشباع هذه الحاجة في التأمينات الاجتماعية

(Social Insurances) والمساعدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال في اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما في بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العمالية ، على اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال في الدول المتقدمة وعلى الاخص الرأسمالية منها) .

في مثل هذه الظروف المشار إليها تبدأ الجماعات غير الرسمية في الظهور والتكوين بالمنظمات ، وتأخذ في النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها على الإنتاج . والانتماء الى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الإنتاج (Restriction of Output) ما هي الا أحد الامثلة لنشاطها في مجال الإنتاج . على أنه ليس بالضروري أن تكون هذه القيود وليدة كراهية أعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لادارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على أعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول الى أهدافها .

وجدير بالملاحظة أن الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين أعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفذ حدود معدلات انتاجها أو أدائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدي الى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة افرادها والاهمية التي يجب أن تكون عليها .

وخفض الإنتاج ليس بالضرورة أن يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . إذ أنه يمكن للادارة الواعية أن توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستخدامها كركيزة تنطلق منها لتحقيق أهدافها ، وذلك إذا استطاعت الادارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك أنه إذا ساد الشعور لدى أعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين أهداف المنظمة وأهدافهم الذاتية ، فإن انتاجهم تميل الى الانخفاض . أما إذا كان تحقيق أهداف المنظمة سيعمل على تحقيق أهدافهم الشخصية فإن انتاجية الجماعة سوف تميل الى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فإن المنظمة سوف تتمكن من تحقيق أهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة او مسيرتها نحو

على أن تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) إنما يرجع أساسا الى شعور الجماعة بالسأم (Boredom) واحساس أفرادها بعدم أهميتهم في العمل (Insignificance) وافتقارهم الى الخبرة او المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، او نظام العمل الذين يرتبطون به .

على أن الجماعات غير الرسمية المشار إليها لا تضم جميع الافراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على أن هناك من الافراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء الى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة في الانتماء الى الشعور بالشك (Suspicion) في هذه الجماعة او نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالها contemptuous او أن يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق أهدافه دون حاجة الى الانتماء اليها .

وهناك من الدلائل ما يشير الى أن الادارة في المنظمات العاملة تنظر بعين الشك الى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد اشارت بعض الدراسات الى أن القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الإنتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة أعمالهم ، لاسيما إذا كانت الادارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في اصدار القرارات الخاصة بهذه الاعمال، ويبدو أن مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materialized) عندما تكون أعمال هذه الجماعة مملة ، او روتينية (Routine) لا تحتاج الى أية مهارات . وقد يزداد تأثير هذه الجملة على الإنتاج سواء إذا أحكمت الرقابة عليها ، أو حرم أفرادها وسائل الاتصال المناسبة مع ادارة المنظمة .

تحقيق أهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات أو أهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الأهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة بأهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ - حاجته الى الاعتزاز بنفسه ، وقيمه واعتباره كعضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة أو الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة أو المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ - حاجة الانسان الى الشهرة أو السمعة الطيبة أو المكانة المرموقة (One's reputation) وتمثل في احقية الانسان في أن ينال من الجماعة تفضيلاً أو تمييزاً عن غيره لخدمات أداها أو مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان في تحقيق منزلة معينة أو مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) أو تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول أن الحاجة الى التقدير تتمثل في رغبة الانسان في أن يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة في اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها في تحقيق أمرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لأعمال أداها أو خدمات ساهم في انجازها Prestige (٢) القوة التي يملكها الانسان في شخصيته أو لقدراته العلمية أو الفنية أو العملية (Power)

ويسمى الافراد لاشباع هذه الرغبة أو الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان

طريق أداء خدمات مرموقة أو انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى أعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز أو مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش أو يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فإن حاجة الانسان اليها أمر يركز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة أن بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis في تقييم انفسهم . ومن ثم فإنه يمكن القول بوجود ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فإن تقييم الفرد لذاته قد يركز على مستويات مقبولة تتفق وأقصى ما يمكن أن يحققه من مكانة أو مركز في المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقاً لهذه المستويات فإنه يحاول جاهداً المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات أعلى . وذلك هو السبب في رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام في المنظمات التي يعملون بها ، على اعتبار أنهم وصلوا أو حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضي (Preconceived Level) أما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون لاشباع حاجتهم على المستوى القومي أو العالي غير مراعين لحدود طاقاتهم أو مستويات قدراتهم ، أو الظروف المحيطة بهم ، ولا شك أن نتيجة هذه الحالة هي الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التي تمت على أن هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها أو التعرف عليها أو تحديد آثارها ، بسبب أن الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة . وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الفايات

تمكن الفرد من الموازنة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش أو يعمل بها ، وهي موازنة تأخذ شكل مبارزة تتسم بالتحدي والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التي تعطى الانسان الفرصة للدخول في مثل هذه المبارزة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالإضافة الى ما يمكن أن يحصل عليه من حوافز مادية كانت أو أدبية . ولذلك نرى أن الأعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لظهور براعته الوظيفية أو قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يضخى هذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : وإذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achievement) فإنه يتعين الإشارة الى أنها لاتعنى مجرد جهود علمية أو فنية أو مبتكرة يبذلها الانسان ، بل انها بالإضافة الى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ما قد يوجد من صعوبات أو عقبات يمكن أن تحول دون احراز هذه الثمرة .

فإذا توافر لدى بعض الافراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فإن قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا أو ادبيا . ومع ذلك فإن هدف الافراد في هذه الحالة ، تجسم اساسا في احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز أو مقداره ، ونتيجة ذلك ان النقود - باعتبارها حافزا - لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لادائهم ، وتقييما لجهودهم ومابدلوه .

البيئة كمصدر للدوافع (Motivating Environment) : يتضح مما سبق أن حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات الى الحركة

الانسانية التي تتدرج تحت الحاجة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور أو تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتمثل هذه الكفاءة في قدرة الانسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية أو اجتماعية . ويبدو أن الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الامكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم أن هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان في ماضيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه أو فشله في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي أكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة أكثر ايجابية (Positive Outlook) ويرى في كل مشكلة جديدة تحديا ممتعا لكفاءته في التغلب عليها . وبالرغم من أن الحاجة الى الشعور بالكفاءة تظهر وتنمو مبكرا في حياة الانسان ، الا أنه ليس من الضروري أن تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على أن نجاح الفرد مرة او عدة مرات ، رغم توقعة للفشل ، غالبا ما يدعم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بامكانية التنبؤ بامكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة ، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على امكانية النجاح . اذ للانسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه أو فشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل أحد المجالات الرائدة التي

والاشباع مختلفة ، كما أن قوة ودرجة الاشباع تختلف من فرد الى آخر ، والادارة الناجحة هي تلك التي لها قدرة التنبؤ بدوافع الانسان ، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب .

ولا شك في أن استخدام الحوافز في العمل انما يهدف الى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذي يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هي قادرة على اعطائه ، اذ أن الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على أنه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية ، ارتفع الاداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت أو أدبية ، تساعد على استخدام أفضل لهذه الطاقات ، عن طريق تحريك دوافع الانسان واستخدام طاقاته المعطلة أو الكامنة .

وقد أجريت في إحدى قطاعات الصناعة الأمريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي : ماذا يريد العاملون من أعمالهم (What do workers want from their jobs?) في هذه الدراسة طلب من طبقة المشرفين Supervisors أن يضعوا أنفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) واعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون أن العاملين يتطلعون الى اشباعها من العمل على أن يراعى في ترتيب هذه الحاجات وضعها حسب أهميتها لهم . كما طلب من العاملين أيضا اعداد هذه القائمة ، التي تبين الحاجات التي يتطلعون الى اشباعها من عملهم .

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب أهميتها ، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الأهمية والرقم ١٠ يعنى الأقل أهمية

جدول رقم (٢)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

الحاجات	المشرفون	العامل
تقدير الادارة للعمل الذى يؤدي	٨	١
الشعور أو الاحساس الداخلى للعامل	١٠	٢
التعاطف وفهم المشاكل الشخصية	٩	٣
الامان والطمأنينة في العمل	٢	٤
أجور ممتازة	١	٥
عمل يثير اهتمام العامل	٥	٦
الترقية والتقدم مع نمو المنظمة	٣	٧
ولاء أو اخلاص الادارة للعاملين	٦	٨
طرق وظروف عمل جيدة	٤	٩
عدالة وحساسية نظام التأديب	٧	١٠

ويمكن اعادة ترتيب الحاجات ، بالشكل الذى يبين وجهة نظر المشرف ، ووجهة نظر العامل في الجدول الآتي (رقم ٣) .

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقا لاهميتها	المشرفون	الحاجة طبقا لاهميتها
١	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدي	١	أجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمأنينة في العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفي
٤	الامان والطمأنينة في العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	أجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء واخلاص الادارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفي	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء واخلاص الادارة	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدي
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التأديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

تعتبر من الحاجات أو الرغبات الهامة لدى العامل ولو أنها ادرجت تحت رقم ٤ بدلا من رقم ٢ طبقا لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني امرين :

الاول أنها تضيف امانا اكثر وطمأنينة في نفس الانسان نحو بقاءه في الوظيفة .

الثاني انها تعني زيادة في الاجر أو المرتب ، وفي كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وان كانت تعطي الانسان الاحساس بأهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الادبية .

وقد ادرج العاملون الترقية في المرتبة السابقة من الاهمية ، وان كانوا قد اعتبروا ان تقدير الادارة لعملهم هو اول ما يتطلعون اليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الادارة لامعمال الانسان ، غالبا ما يؤدي الى ترقيته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ - أن طبقة المشرفين غالبا ما تعتبر أن الاجور المرتفعة تمثل الحافز الاول لزيادة انتاجية العامل . فان الدوافع الاساسية للعاملين ، تتمثل في فرص الكسب الاقتصادي ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التي تضمن أن يكون الكسب المادي هو النتيجة المباشرة لزيادة انتاجيتهم .

٢ - ان طبقة المشرفين اضافوا الشعور بالطمأنينة والترقية والتقدم الوظيفي باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولاشك في أن الامان والطمأنينة في العمل (Job Security) اعتبرت في المرتبة الثانية من الاهمية في نظرية ماسلو السابق الاشارة اليها . وقد جاء في الجدول السابق أن هذه الحاجة

٣ - أدرج العاملون تقدير الادارة للعمل ،
والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ،
والتعاطف وفهم مشاكلهم في الاهمية القصوى
بالنسبة لهم . وهذا يفسر أهمية العلاقات
الانسانية في العمل .

٤ - يتضح أيضا من الجدول السابق ان
الحاجات التي اعتبرها العاملون من أهم
متطلباتهم ، ويتطلعون الى اشباعها ، رأى
المشرفون انها اقل أهمية من غيرها . وهذا
يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او
الرغبة في فهم الحاجات أو الرغبات التي تمثل
الاهمية القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي
الى اختيار الحافز الخطأ أو استخدامه في وقت
غير مناسب .

٥ - ما زال بعض أو أغلب المديرين يعتقدون
ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من أهم
الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثل
للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في
النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشار
اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا
في الدول النامية، نظرا لضعف الاجور وانكماش
فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يتمثل الهدف من هذا البحث في شرح
ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ،
والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على
استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة
وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب
الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة

بمقتضاها اختيار وترغيب الكفاء من الافراد ،
والالتحاق بالوظائف واستمرارهم أو بقائهم
عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية
التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على
الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم
في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد
حقائق محددة نوجز أهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان طاقة اذا احسن استخدامها
تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اوضحت
وسيلة لتحقيق غاية أو غايات . لكن الطاقة
الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها
او استخدامها ، واذا احسن توجيه قوة
الانسان نحو هدف ما فانه في الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويتمثل
أهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته
مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب
التنبؤ بسلوكه او تصرفاته أو اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة أو استحالة في تواجده
تماثل بين انسان وآخر في الطبيعة والسلوك
والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك
قد ينشئ صعوبة في المنظمات العاملة نحو
ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ،
والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية
مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في
امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

الأفراد تحت إدارة واحدة . وتضحي هذه المهمة أكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة أو في مكان واحد. ومن ثم يضحى التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الإدارة في مجال إدارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق أهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

عمق اهتمامه أو مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ أو في تفسير ما يطرأ على سلوك الإنسان أو تصرفاته أو اتجاهاته من تغير أو تقلب في المستقبل .

وأزاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في إدارة الإنسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة إذا اجتمع هذا الإنسان مع غيره من



المراجع

- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة . الكويت - وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .
- د . منصور احمد منصور ، الدوافع والحوافز في قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور، تطور مفهوم تخطيط القوى العاملة في الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط وظائفها وتقويم ادائها، الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (تحت الطبع)
- د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، الشؤدة الادارية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، اكتوبر ١٩٧٤ .



عقوبة الاعدام بين الابقاء والالفاء

عبد الرهاب حوسد

من بين المشاكل التي ثار حولها جدل طويل، واصطُرعت فيها الفلسفات والعواطف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصة من دموى ، يفلق النقاش الهادى بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً في بحثها عن الحل الامثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

لمن روعتهم الجريمة ، دون ان تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هى الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون . .

ومما يزيد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يمتلئ في نفوس ذوى المقتول ، وطمانة

وينقل احد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليوناني هيرودوت "Herodote"، « أن الفرعون "Sabacon" » احد مؤسسي الاسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ - ٧٠٣ ق . م) الفى عقوبة الاعدام ، وابدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله في الاعمال العامة . فاذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، اول نظام منظم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية في حيرة امامها حتى اليوم .

وقد اعيدت هذه العقوبة فيما بعد ، واصبحت تطال ، في عهد مصر البطلموسية وهي الفترة التي تمتد ما بين الفزو الماكيدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م والفزو الروماني عام ٣٠ ق.م - ، كما يتضح من اوراق البردي اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الافعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف في الميزان ، والتعدي على اموال المعابد . .

ولقد اجبرت كليوباترا ، بمرسوم اصدرته عام ٥٠ ق .م . التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها الى الاسكندرية وعاقبت مخالفى هذا المرسوم بالاعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين ، وضعت قوانين متكاملة ، من اعظمها ، قانون حمورابي عام ١٧٠٠ ق .م ، الذي يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصباً . . واذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب افعالا كثيرة بالاعدام ، كالسرقات الكبرى ، واخفاء المسروقات ، التي استلبيت بواسطة العنف ، وازالة الوشم عن وجه العبد لاخفائه عن مالكه ، والقتل ، وزنا المرأة واغتصابها ، والشهادة الزور في جريمة القتل ، والبلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

ولقد عاقبت البشرية انمطا من المجرمين بالموت ، منذ فجر تكوين المجتمعات الاولى ، اذا لم اغامر بالقول ، منذ تكون المجتمع الاول . . ولا يذهب بنأ الخيال ، الى ان هذه العقوبة كانت قاصرة على القتل ، الذين يرهقون ارواح الناس . لانها ، في حقيقتها ، كانت تطال غير القتل . بل ربما كان اعدام القتل لم ينشر الا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضارى .

فقد عاقبت مصر الفرعونية جرائم كثيرة بالاعدام :

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة ، والسحر ، وعدم افشاء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية ، وعدم اغائة من تعرض لهجوم الاشقياء ، في الطريق . . .

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل اباه ، كان يعدم بفرز قطع حادة من القصب في جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعاً صغيرة بألة خاصة ، وبعد ذلك يلقي به على كومة من القش ، ويحرق ببطء . . وكانوا يحرقون الزانية . . .

وكان يدخل في سلطة القاضى اختيار طريقتة اعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، او الاغراق او التقطيع ، او النار . .

ومع الزمن ، خفت حدة الغرائز البدائية ، فادخلوا في مفهوم المسؤولية الجماعية تقييدا أساسيا ، هو ان تنفيذ العقوبة اصبح قاصرا على الفاعل وحده ، وان المرأة الزانية ، اصبحت تعاقب بجذع الانف ، لحرمانها من محاسنها التي كانت تفرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجى المقدس . . .

وقد عرف التشريع اليهودي القديم
المسئولية الجماعية ، ففي سفر التكوين ،
(الاصحاح الرابع والثلاثين ، الآية ٢٦ - ٢٧) ،

ان Sicheim ابن Hémor خطف امرأة
تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه
يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا
الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ، بدأت
تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ،
وأصبحت العقوبة تتجه الى الفاعل وحده .
ففي سفر ال Deutéronome ، الاصحاح
الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا من آبائهم » ،
« ولا يعاقب بالموت الا من ارتكب خطأ شخصا »

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة في
جريمة القتل ... اما في الجرائم العامة ، فان
الاعدام كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب
بالاعدام السحرة ، وعبداء الاوثان والمرتدون ،
والذين يحرقون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام
كل يهودى يشتغل يوم السبت « لأن اليوم
السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة
ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزاني ، والزانية ايضا ، وتعاقب
بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست
عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي
بالمحرمات ، واللواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة
ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما
يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم
بالحجارة ، في جميع الجرائم . وكانوا يعلنون
ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

مكدوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة
العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات
مدهشة :-

الأولى : - انه قلص الجرائم الدينية كثيرا
حتى اصبحت قاصرة على جريمتي السحر ،
وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : - انه اشترط وجود العمد في
القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص
في المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : -

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ،
واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه
يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة » « Sicles » (٢) ،
اذا كان المقتول مواطنا ، وعشرين مثقالا اذا
كان المقتول لا يتمتع بالمواطنة mesquin ...

والثالثة : - انه الفى صيغة الماثلة ،
(La talion) الا في حالة واحدة ، هي
حينما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد
دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من
جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم.

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق
والقتل بالسيف ، والاغراق والحرق . يضاف
الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخاروق ،
وكانت المرأة التي تقتل زوجها او تشترك في
قتله تعدم بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول
المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان
العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس
هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش في
أور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى
العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ،
كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .

مبرية ، وهو يؤن عند العبريين » ١١

Sicle

(٢) في لاروس انسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة

غراما وكيسور « وعند البابليين ٨٤٠ غرامات .

الشعب كله هو الذى ينفذه . وأول من يبدأ بالرجم ، شهود الاثبات ، ثم يليهم الحاضرون حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة طيابة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا الا فى حالتين : تعهر ابنة الكاهن ، والاتصال الجنسي بالأم أو الأخت .

وعرف المجتمع العربى الجاهلى عقوبة الاعدام وطبقها ، بطريق العرف الذى كان ينظم علاقات الافراد ، وتوارثوه كابرا عن كابر ، دون ان يكون للتشريع اليهودى أو النصرانى اى اثر فى تكوينه أو تعديله . ذلك ان اليهود الذين فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ، لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا فى عقلية الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم الاجتماعى ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ، وان المستوى الاجتماعى لم يكن يختلف عن مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ، واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ، تهودت (٢) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على حدود الجزيرة الشمالية ، تسلت اليها من اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض الاتباع فى اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ، هي التي كانت تحكم الجزيرة وأهلها ، ولم يكن يسيرا على جماعة غافلة ، مغلقة الابواب والبصائر على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او تبدل من مفاهيمها الأزلية .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على اثارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم القانون ، وتنفلد فيهم العقوبات . . . لانهم كانوا مجموعة من المجتمعات المتوجة ، الفت احكام الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما برغ عليها فجر عهد جديد ، جاء ينقدهم من الضلالة الى الهدى فى دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد للسلوك القويم ، على اساس من التساند الاجتماعى والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة وسلوكا . . فقال تعالى :

« يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا ان يكفروا به » (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذى كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن والعارفة دور كبير فى اقامة البينة وتقرير العقاب . .

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة عندهم ، لفقدان التنظيم الدولى .

فقد كان من حق الأب ان يقتل اولاده الذكور ، ويثد بناته . . وفى ذلك يقول الله : « قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم » (الانعام ١٤٠) .

ويقول : - « واذا المؤودة سئلت : بآى ذنب قتلت » (التكوين الايتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ، او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

(٢) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ، القسم الدينى ص ١ - ٥ . و « Margoliouth ص ٦١ .

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، وأدام إليه باحسان . »
(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : —

« من قتل له قتيلاً ، فهو بخير النظرين ، أما ان يفتدى وأما ان يقتل . »

٢ — الحراية : — وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسمون في الأرض فساداً ، ان يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » (٤)
(المائدة آية ٢٢) .

٣ — الردة : وهي الخروج من الإسلام بعد أن كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء في امر المرأة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تجلس حتى تنوب . ولم يرد في القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : —

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فإميتوه وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . »
(البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : — من بدل دينه فاقتلوه . . .

الدم ان يثار في الحال ، او في خلال ايام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكماء لبذل المساعي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وبراءة ، والدهر قلب فيهم ، والحرب سجال :

فيقوم علينا ، ويوم لنا : ويوم نساء ويوم نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفاً من اختلاط الانساب ، ودفاعاً عن الشرف والسمعة . . .

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون في حديثه عن العرب . . ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير أنهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام في بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ — جريمة القتل العمد : —

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون في تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني في البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتثنية ، وهو مذهب ابن عباس ، أي أنهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق آخر الى أن النص يشير القاصي بين احدي العقوبات ويفوض اليه الامر في كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذي صدر مؤخرا ، في المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت أوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقشعريرة تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين في الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، في حين انه في ظلال حكمهم السمع جدد ابن ميمون الديانة اليهودية في عاصمة الملك قرطبة ، وفي اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصاييح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف في اوربا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذها تدل على سادية لا مثيل لها ، كالا حراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا في كفن من الشوك . . وقد يمدون للمحكوم عليه ، في حفرته ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعانا في تعديبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدموا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، في كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروى مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للابقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامة الافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وامر ؟

وفي الراجح من المذاهب ، ان المرتد يستتاب ثلاثة ايام (ابو حنيفة ومالك واحد قولين للشافعي) .

ويرى علي أن يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ - البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتأويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيين في الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين في اجتهادهم . . لذلك جاز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بداوه ولم يقاتل علي الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من القى سلاحه ولا من اغلق بابه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ - وتبقى لنا كلمة في جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ما عز والغامدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضحات وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

لدراسة هذه القضية ومن أبرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعي والاقتصادي اتخاذ الاجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسألة عقوبة الاعداد ، ونتائج الفائها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين في الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر ابريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسي أنسل "Ancel" الذي قدم تقريره عام ١٩٦٢ (٦) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية في جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرار في الموضوع من جانب الامم المتحدة ، فهو اذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٤٠٥ من ميثاق الامم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية أو وحشية أو محطة بالكرامة الانسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على أنه توجد ظاهرة تستأهل أن أسجلها الآن ، وهي تقهقر عدد الحالات التي تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التي تعاقب بالموت في انجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينها بعض السرقات العادية (٨) وكان عددها في فرنسا في ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

هذا هو السؤال الصعب الذي انكبت ، للإجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرات الوقائع وسبرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقعا محددا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالفائها ، وقال فريق آخر بابقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات ايضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع انجلترا التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال اربع سنوات حتى عام ١٩٥٣ ، وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحادية لجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعداد ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ . وشكلت كندا والولايات المتحدة لجانا مماثلة وانكب فقهاء الاتحاد السوفيتي بدورهم على دراسة الموضوع ، في اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي . وعقدت في فرنسا عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت في فرنسا عدة محاولات لالغاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب في الجمعية الوطنية في اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفي السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا

(٦) وزع التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٧) وزع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط
بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة
باسم "La convention" كانت صوتت في ذلك
الوقت على الفاء الاعدام ولكنها حلت ، وظلت
العقوبة باقية .

وقد كان أحد القضاة الالمان في القرن
السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر
بانه أصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء
عشرين ألف حكم بالاعدام (٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية في النصف الاول
من القرن الحالي جاءت كآثرة عظمى على التطور
الانساني .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين
تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث
بها ، لانها ، في فلسفته ومفاهيمه ، السلاح
الذي يرهب به المجتمع أعداءه الشريرين من
القتلة والخونة وخاطفي الاطفال ، وتيار يقابل
التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهى
الى المطالبة بالفاء هذه العقوبة .

ومن الامانة ان لاحظ انه لم تقم في البلاد
العربية ، من اقصاها الى اقصاها ، حركة
جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذي الفناه،
ونمنا على هدهدته ، ووقفنا نرصد الصراع
الفكري ، لدى غيرنا دون ان يتاح لنا ان ندلى
بدلونا في الدلاء ...

انام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هي حجج الإبقائيين والالغائيين ؟

اننى اود ، فيما يلى ، ان اعرض حجج

الفريقين ، ليستطيع كل منا ان يكون لنفسه
عقيدته الخاصة ، مدعمة بالحجج والمنطق ،
وليس بمجرد العاطفة التى تستمد كيانها من
المألوف ، الذى آن لنا ان نعمل على هزه من
سباته .

١ - التيار الإبقائي :

يقول أنصار الحفاظ على عقوبة الاعدام ،
انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة
وأمنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج
التالية :

١ - هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من
المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذى
فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعى .
فالفردي الذى قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع
المجتمع ، ان يتخلى عن الانتقام الفردي ، مقابل
حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلى
عن حياته ، فيما اذا فصم هذا العقد ، واعتدى
على حياة شخص آخر ، وقبلها لمبروز وغارفالو
وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص
المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم
بالفطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين
المعاصرين ، كبار أساتذة القانون الجنائى
الفرنسى مثل غارو وغارسون ودونديودوفاجر .

ب - انها عقوبة تكفيرية ، بمعنى ان الذى
قتل آخر في ظروف فظيعة وحرمه من حياته ،
بدون وجه حق ، يجب ان يكفر بدمه عن
خطيئته .

فهى اذن عقوبة عادلة ، يتساوى فيها تماما ،
الاذى الذى أوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى
الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان
تتساويان أمام القانون ، وفي مفاهيم الناس ،
الذين يقولون : « يذاك أوكتا وفوك نفخ » .

للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله
بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن
أن تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كمقوبة
بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، أن
يبقى مجرم سجيناً طيلة حياته . . فهو يحلم
تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو
مرسوم عفو خاص . . يقصر مدة سجنه ،
ثم يجد نفسه حراً ، خارج القضبان ، يزرع
الدعر والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ، أنني عملت مرة على استبدال
عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالاعداد ،
لشقيقتين ، كانا يستحقان في نظري هذا
الابدال ، ولكن لم تمض الا سنوات لم تبلغ
العشر ، حتى كانا طليقتين ينعمان بالحرية . الا
أننى لم أسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلاً ، يقول أصحاب هذا
الرأى ، أن المحكوم عليه بقى في زنازته طيلة
حياته ، فانه سيكون في غاية التعاسة ،
لا ينفعه أن يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

ج - انها عقوبة مخيفة ، يهلع من هولها
قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع
الامن ، فليس أمراً بسيطاً أن يعرف القاتل
ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من
احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها
واحبابها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون
تنفيذ الاعداد أو تبلغهم أنباءه . فاذا نفذت
احكام الاعداد على فترات متقاربة ، بقيت
العظة ماثلة في كل نفس . .

د - ولماذا تبنى عقوبة الاعداد ، ولم يقم
دليل قاطع على أن الفاءها قد ساعد على
انخفاض الخط البياني للجرام ، أو حتى على
الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان
كانت مقنعة ، فاننا سننحاز الى رأيكم ، اما
أن نغامر بقذفه في المجهول ، ونعرض كيان
الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا امر لا يمكن
أن يقبله رأى حصيف .

هـ - هذه العقوبة ، هي الوسيلة الوحيدة

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الأقوال عن محكوم عليه بالاعداد :

« لقد طال انتظاري شهوراً ، لذلك فانا أعيش في جحيم . .

وفي كل صباح أنظر لأرى هل نصبت لي المشقة ام لا ، ولكنى لا أجدها . .

وفي كل صباح يجتاحني قلق أشعر به كأنه يضغط على حنجرتي ويجعلني ارتجف . .

أن شعورى بأننى سوف اعدم يكاد يمزقنى . . .

ومع ذلك ، فان الاوهام تراودني أحياناً . . .

انى اعترف بأنه لولا الكاهن الى جانبى يعطينى القوة ، لكنت قتلت نفسى لاتخلص من هذه الصباغات المشنومة . .

ونقل عن محكوم آخر قوله :

« بصراحة انى أريد أن اعدم . .

فمنذ احد عشر عاماً ، لم ألقى كلمة من والدى ، فهل تراه صلح عني . . ؟

ووالدى ، حين يحدثونه عني ، يرفض الاعتراف بى . .

وزوجتى تزوجت . . وبذلك تهمت الأسرة . .

ليس هذا عقاباً كافياً ؟

أن الرغبة في الحياة لا تزال تنقصنى » .

لإعادة تأهيله ، مادام سيظل قابعا في مكانه حتى الموت ... أنها حياة عذاب نفسى لا يطاق ، لأنها لا يلوح على آفاقها طيف من أطياف الفرج ..

و - أن الراى العام قد ألفها ، واطمان اليها . والبحث في الفائتها سيثير أعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية ، من أجل عدد ضئيل من القتلة والاشراة ؟

ولقد رأيت أن أحوار طلابى وطلابى من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهن فى إبقائها أو الفائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالفاء ، وأجمع الآخرون على الإبقاء .

أما الطالبات ، فكن ، باجماعهن ، مع الإبقاء ...

ز - ويضيفون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفاكا سنين طويلة ، ويتكبد المجتمع نفقات حراسته وأطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ ليس من حق دافعى الضرائب ، أن يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعها فيها ؟

ولكنى أود أن أعلق على هذه الحجة ، بأن حياة الفرد تظل دوما أئمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفاعا عن مبادئها ، ويمكنها أن تشغلهم مقابل ذلك .

ح - ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم أنه

نظام ديموقراطى، أى أنه يخضع لحكم الاكثرية، فإن من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، أن يستشير الشعب فى قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره اكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فانها ستقف الى جانب عقوبة الاعدام .

ط - لا ريب فى أن الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الاعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية فى الخطورة . وقد قال الله تعالى فى محكم التنزيل : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) .. وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه أن يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب فى العفو بقوله : « وان تعفوا أقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) » .. وقوله « .. فمن تصدق به فهو كفارة له » .. (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به أبو حنيفة القصاص . فعنده أن القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وإنما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسهم ، وهو من أفثك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية أبى داود عن النبى عليه الصلاة والسلام : « إلا أن فى قتل خطأ العمد قتل السوط والحجر مئة من الإبل » ..

التنزيل قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب - وأنها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ، لأنه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتاً فورياً ، ودون ألم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالألم

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى أن استقرت اليوم على المشنقة والرصاص ، والجلوتين ، والسيف ، وغرفة الغاز ، والصق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج - أنها عقوبة غير منطقية ، لأنها « قتل منظم » كما يقول بكأريا ، تضفى عليه الدولة الصفة الشرعية . فالمجرم يرتكب جريمة ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد تحت أى دوافع اندفاعية أو مرضية ارتكبها ، فى حين أن المجتمع يقرر اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادئ النفس . فالدولة حين تعدم شخصاً ، فإنها لا تمحو آثار جريمته ، وإنما تعاود ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى ، وكأنها تكرر مع الشاعر قوله « ودأوني » بالتي

كانت هى الداء » ...
د - أنها عقوبة غير مفيدة ، خلافاً للزعم القائل بأنها رادعة مانعة .

فلم يثبت أن البلاد التى ألفتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت أن دولة النمسا

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع فى جرائم القتل العمد بين ذوى الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الأزواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك (١١) ، ولا القتل الواقع فى أثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وأبى حنيفة والصحابيين . وإذا رجع هذا الراى ، فإنه يقدم لنا حلاً شرعياً لمسألة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى باللاتانازيا ...

٢ - التيار الالفائى :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى أنها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولاخير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجج جديدة ، يرونها كافية لزعة البنيان العقابى القديم وتهديمه . ويأتى فى مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعى الجديد ، على لسان أحد رؤسائها المستشار آنسل (١٢) .

وفيما يلى ما يعرضون من الادلة :

١ - يقولون ، أن الذى منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق أن ينوب عن الخالق فى انتزاع روح مخلوق آخر . فهى مخالفة للمبادئ الفلسفية العامة .

ولكننا رأينا أن الفقهاء المسامحين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه فى محكم

(١١) انظر فى ذلك ، محمد ابو زهرة ، الجريمة والعقوبة فى اللغة الإسلامى ص ٢٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذى كتب يقول :
« اننا نود أن نجيب فوراً وبصرحة ، بأن مذهب الدفاع الاجتماعى ضد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسسها الثلاثة : التكفير expiation ومساواة الخطأ retricution والردع intimidation »

و - وهى عقوبة غير زاجرة ولا رادعة . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ أمد بعيد . والواقع أن الإنسانية بدأت تطبيق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقا زاجرة ؟

فقد أعدم في إيران ، عام ١٩٧٠ ، على مسيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة . . . ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشانق فيها ، تجتذب أعدادا متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

واذكر ، بهذه المناسبة ، أنه أعدم في الكويت قاتل منذ سنتين ، ولم تمض أيام ، حتى قرأنا في الصحف عن جنائية قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية اعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما . . . فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى أن يكون بطل حفلة مشنومة ، يستقطب فيها انظار الحشود ، وهو التافه الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه أحد ؟ . . . إذن يكون اعدام في هذه الحال ، محرضا لبعض الشواذ المغرمين بحب الظهور ، والسيئى التقدير ، على ارتكاب أفظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجرا وردعا ، . . .

ز - لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزي شائن فيها . فالوقائع تدل على أن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء اليوساء ، ان لم يكن كلهم . أولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون أخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانيا لان

حين أهادنها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الاجرام ارتفع فيها كثيرا . قد رأى النائب العام الاميركى رامسى كلارك Ramsey Clark أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الاميركى يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هذه العقوبة « قد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به - وطالب بجرأة بإلغاء عقوبة الاعدام . ومن أبرز سوءات هذه العقوبة في نظره ، أنها تتوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة اعادة تأهيل المجرم ، وعنده أنها لا تصلح لمجتمع متمدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ - وانها عقوبة ظالمة ، لان القاضى مهما أوتى من المقدرة العامة لا يستطيع هو ، أو أعوانه من أصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لانها شئ مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يدركه الا الله سبحانه وتعالى .

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الإرادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite ، وهى تقصد بذلك ، أن المرء يعتبر مسئولا عن فعله ، اذا كان يريد ، ويدرك مداه . فالادراك والإرادة هما ركنا المسئولية الجزائية . وليس من شك في أنهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metap-hysiques وبهذه الصفة لا يستطيع أحد أن يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وان سلامتهما شرط لقيام المسائلة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئا وهميا لا وجود له ، ويكون الحكم بالاعدام ، من ناحية اقرار المسئولية ، قرارا لا يستند الى سند أخلاقي صحيح ، ينزهه من المطامع .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل ثرى والقاله في بئر ، وتمرست به اكف الصابطة القضائية وعصيتها ، حتى ادلى باعترافات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن أحد المسؤولين ، لم يرتج ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة أحد أصدقاء القتل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداده ، وأنها عاوثته في نقل الجثة الى البئر .

ويقولون أيضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة بشهود عيان ، يحررون ضمائرهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول؟

ان الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز أن تأتي في المؤخرة من قافلة البينات . . . فقد اثبتت الدراسات الجديدة الحديثة ، أن كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها . . فالشاهد قد يخطئ ، لضعف في الذاكرة أو في حاسة الرؤية أو السمع ، وقد يخطئ لاصابته بعرض عصبي ، يشبه منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرق فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضل القضاء . . ولعل رجال القانون المدني يعرفون حقيقة قيمة الشهادة في العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لأبناة مبلغ صغير من المال .

واذكر اننى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم رأوه بأعينهم وهو واقف امام باب الجامع يطاق النار من مسدسه ميار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا امام باب المدرسة فقتله .

الاستعانة بمحاميين مشاهير ، وخبراء ماليين ، تنقل كاهل الضعيف ، وتأتي نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات في أمريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزوج فيها ينال القسط الأكبر من هذه العقوبة ، لأن المجتمع الأبيض مشبع ضدهم بالافتكار السيئة ... وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جديدة . فمئذ عام ١٩٣٠ نقل حكم الاعداد في ٢٠٦٦ اسود و ١٧٥١ أبيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان .

٨ - وانها لعقوبة خطيرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافى ، في حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن أن يتلافى فيها الخطأ . فاذا نفذ حكم الموت في شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارط يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع اخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الانساني .

واسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، أن المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وأنه سيد البينات . فهل تريدون عدلا أكثر من أن يدن المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك أن شخصا اتهم بقتل امرأة ، و«عولج» في دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها في النهر ، فأعدم وبعد عامين عادت المرأة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض أقاربها في منطقة أخرى .

اكتشف أن مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاواني الزجاجية بالكحول ، وأنه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها أداة جريمة وانتقد هذا الاكتشاف المتهم .. ولكنه اكتشف تم بطريق الصدفة .

بل أن تطور الفكر العلمى نفسه ، قد يلعب دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف أن أتهم صيدلى فرنسى ، اسمه Denval بقتل زوجته بالسم ، واكتشف التشريح وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فأدانتها المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالاعدام ، بل قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو في السجن ، أنه برىء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، أن جسم الانسان العادى ، يمكن أن يحتوى ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوى الحاد .

L'insuffisance surrénale ، تبدو أعراضه كأعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت إعادة محاكمته ، فتبرا وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة .. aigue .

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الاعدامات التى تتم ، في أعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك أن المرء ليشعر بالغثيان ، عندما يعلم أن ثلاثة من « الجزائريين » يسوقون الى حمامات الدم ، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد أو محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة أصدرت أحكامها باسم الشعب ...

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من أجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون عن ضمير المحكمة ، عبء اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة . وشاءت ارادة الله ، أن اكون عارفا بالمنطقة ، ورحلت اتجول فيها . فوجدت أنه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة أن تبلغ حالب الشرطى . فقد كان عليها أن تسير موازية للارض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة أعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الارض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الارض ، وتنتجه باتجاه الشرطى ، فتصيبه وتقتله ... وحين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتى ، وانما لمحض الصدفة المائلة بقيام بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق أن رجال القانون الجزائري يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الإثبات الأخرى ، ولكن الأخطاء في قراءتها كثيرة جدا .. هى أيضا . انها حقا لا تخطئ ، ولكن المختص هو الذى يقع في الخطأ ، فيضل القضاء ..

ففى قضية : اتهم زوج بقتل زوجته بالسم المزوج بالكحول ، ولما يمض على زواجهما غير شهرين ، كاتا فيهما ، على احسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وأرسلت احشاؤها الى التحليل ، فجاء الجواب ، أن كمية الكحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن المحامى

قللت به عدد الجرائم المعاقبة بالاعدام ، وأصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل العمد) ، ألغت بموجبها عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي وأصدرت قانونا عام ١٩٧٠ ألغت بموجبها عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحدث حدوها كندا ، فألغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت ألمانيا الاتحادية قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤ / مايو ١٩٤٩ على الغائها . وقد شكلت الحكومة الألمانية لجنة من اثني عشر عالما ، بينهم الجزائي وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الابقاء على الفاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ ألغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيوجيرسي ، بأكثرية ٦ أصوات ضد صوت واحد ، أن الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في أمريكا حكم واحد بالاعدام ، وفي ذلك التاريخ أعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته وأولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها مدام وولان ، وهي تصعد الى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية :

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة » ، وقد صرخ النائب بودو في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن نقتل حتى لا نقتل » ... وتباً لهذه العدالة ، وتباً لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذي لا شك فيه ، هو أن عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبتها ! ومن المحتمل جدا ، أنه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها أكثر ضعفا ، وكانت الافكار أكثر تقبلا لالغائها ، أو تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، ألغتها عدة دول من تشريعها ، منها رومانيا عام ١٨٦٤ ، والبرتغال عام ١٨٦٦ ، وهولندا عام ١٨٧٠ ، وإيطاليا عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، ألغتها الفاء قانونيا أيضا ، النرويج عام ١٩٠٢ ، والنمسا عام ١٩١٩ ، والسويد عام ١٩٢١ ، والأرجنتين والدانمرك عام ١٩٣٠ ، وإسبانيا عام ١٩٣٢ ، وكذلك ألغتها بعض ولايات أمريكا الشمالية .

كما أن بعض الدول ألغتها الفاء واقعا ، أي أنها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، بلجيكا التي لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، أصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ،

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بأنه في هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهى مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بأن أحكام هذه المحكمة نافذة في كل أمريكا ولكن يتضح من حكمها أنه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوت أربعة منهم ضد الالفاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذى عينهم . أما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بأنهم مع الالفاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى أن الجرائم المعاقبة بالاعدام في هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الفاء العقوبة . ويستمرى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في ألمانيا الغربية ، منذ الفاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الفاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، وأصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على أن الامانة في البحث ، تقتضى أن لاحظ ، بأن عددا من الدول التى ألفتها ، أعادتها بعد تجربتها ، فقد أعادتها إيطاليا عام ١٩٢٥ ثم ألفتها ثم أعادتها عام ١٩٣٠ ، وأعادتها فيلندا الجديدة عام ١٩٥٠ ، ثم

عادت فألفتها عام ١٩٦١ ، وألفاها الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من أجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، وأعادها مرسوم فدرالى صادر عام ١٩٦٢ من أجل جرائم الرشوة والافتراس والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى في العام الماضى استفتاء في ولاية جورجيا الأمريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على إعادة عقوبة الاعدام ، فأعيدت تشريعيا ...

وأود أن أسجل لهذه المناقشات والمحاولات أنها أثرت عمليا في واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التى لا تزال تحتفظ بها في تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا في تنفيذها .

ففى كندا (قبل الالفاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من أصل ٥٩ وفى الغرب نفذ ١٥ حكما من أصل ٤٣ وفى لبنان (قبل المأساة) نفذت ٤ أحكام من أصل ٣٠ ، وفى فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ أحكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفى انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفى مصر نفذ ٦٦ حكما من أصل ١٠٣ ، وفى تركيا نفذ الحكم في ٣٢ شخصا من أصل ٣٣ ، وفى اليابان نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الدهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التى تعاقب في أيامنا هذه بالاعدام ، وأى البلاد تعاقبها ... وقد رأيت اتاما للفائدة ، أن أذكر فيما يلي هذه الحالات ، وألى جانبها البلاد التى تتبناها .

الجرائم الموجهة ضد الاشخاص :

١ - **القتل مع سبق الإصهار :** وهو معاقب في الغالبية الساحقة من البلاد التي تحتفظ بمقوبة الموت ، وفي مقدمتها ، أستراليا وكندا والسيلي والصين وإسبانيا وبعض ولايات أمريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند وإيران ، وآنكلترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا والاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وجميع البلاد العربية .

٢ - **القتل العمد :** (أى العادى غير المقترب بالاصرار) ، وهو معاقب بالموت في بلاد قليلة ، أكثرها إفريقية ، ولكن لاحظت أن السودان من البلاد العربية وبولونيا من المعسكر الشيوعى ، والباكستان من هذه الدول القليلة .

٣ - **القتل أثناء مبلوذة :** وهو مقصور على عدد من الولايات المتحدة الأمريكية .

٤ - **جريمة الفش :** وهى موجودة أيضا في بعض الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ - **التسميم :** معاقب بالاعدام في فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض الجمهوريات الجديدة .

٦ - **قتل الأب أو الأم أو الولد :** ويعاقب بالموت في فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب والعراق واليابان وغيرها .

٧ - **القتل الذى يرافق أو يعاقب ارتكاب جريمة :** وهو معاقب بالموت في لبنان ومصر والعراق ، وآنكلترا وإسبانيا وغيرها (وأكثر ما يصادف هذا الجرم في أثناء السرقة ، أو قطع الطريق أو القرصنة) .

٨ - **قتل شرطى أو موظف أثناء الخدمة ..**

٩ - **ضرب أو جرح ولد بصورة عنيفة :** فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ - **الحريق العمدى الذى نجم عنه موت أحد ..** فرنسا ، مصر ، العراق ، إيران ، اليابان ، المغرب ، آنكلترا ، تركيا ، يوغوسلافيا وغيرها .

١١ - **الاشتراك complicité** في انتحار ولد أو مخدر أو مجنون .

السودان ، أركانساس الأمريكية ، الهند ، الصومال .

١٢ - **اجهاض امرأة تسبب في موتها .**

١٣ - **اغتصاب امرأة بالعنف :**

أ - إذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا والفلبين .

ب - أو الاغتصاب العادى : الصين ، بعض الولايات المتحدة ...

١٤ - **الخصماء الذى يعقبه الموت .**

١٥ - **التجارة بالمخدرات في بعض حالاته الخطيرة :** تركيا ، إيران ، الصين ، بعض الولايات المتحدة .

١٦ - **خطف القاصر :**

أ - بعض البلاد تشترط موت المخطوف : فرنسا ، المغرب .

٢ - بعضها لا تشترط ، وإنما يجب أن يتم في شروط خاصة ، كطلب فدية (السيلي وبعض الولايات المتحدة) .

ج - الجرائم الموجهة ضد الدولة والنظام العام :

- ١ - الخيانة : دول كثيرة .
- ٢ - التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالى) ، فرنسا ، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوسلافيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .
- ٣ - الاتصال بالعدو intelligence
أو التعاون معه . . . دول عديدة .

د - الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

- ١ - العصيان المسلح والثورة أو التآمر على الدولة .
 - ٢ - القتل المرتكب اثناء اضطرابات émeute
أو ثورة : بعض ولايات أمريكا .
 - ٣ - الاعتداء على سلامة رئيس الدولة :
(وبعض الشخصيات الهامة) .
 - ٤ - النهب pillage والقتل الجماعى massacre والتخريب Devastation
والافغان تعاقب الزنا بالموت .
- والآن ، ماهى الحكمة التى يجب أن نستخلصها من هذه الدراسة ، بالنسبة لتكوين رأى فيما يخص الفاء الاعدام أو ابقاءه ؟
هل كانت آراء الإبقائيين مقنعة ؟

أم أن آراء الالغائيين ، والتطور الذى حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ، واكثر ثقلا فى ميزان المقارنة ؟ أنا لاظن أن اية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع أن تنال

١٧ - الاعتقال التعسفى مع التعذيب الجسدى : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلافيا .

١٨ - الشهادة الكاذبة التى تسبب فى صدور حكم بالاعدام : بعض الولايات الامريكية وفرنسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ - العدد بعد الحكم بأطول عقوبة مائة للحرية ، أو اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلي ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ - الاضرار الخطيرة التى تسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب - الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنابات الاقتصادية :

- ١ - السرقات الوصوفة : أو المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرنسا ، اليونان ، افريقيا الجنوبية ، التوغو .
- ٢ - القرصنة مع العنف : او ستراليا ، كندا ، شيلي ، اسبانيا ، جبل طارق ، غواتيمالا ، وغيرها .
- ٣ - الاحتكار أو رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة : الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .
- ٤ - تزيف النقد والمضاربة على العملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .
- ٥ - الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .

منهن ، وعلى المصابين ببعض من شذوذ في التفكير والمحاكمة ، لا يصل الى درجة منع المسؤولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقروا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم عجوزا وقتلها بسبع عشرة طعنة من سكينه ، ليستلب منها ما اقتصدته لإيادها الأخيرة ، كما قررت اعدام امرأة تأمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتله ، وقطعاه وجعل جسد سعادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين أزهرت، وهما يقطفان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله الستر عنهما ، فأسلمت عنقاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ أخير ، باستعماله حق العفو في حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسؤولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، أبدلت ٨ احكام بالاعدام في استراليا من اصل ١٠ ، وأبدلت ١٧ حالة في فرنسا من اصل ٣٤ ، و ٣٤ في كندا من اصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق أى حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ أحد أن حبس الامن اضطرب ، أو أن الاجرام ازداد ... بل كنا نلاحظ أن المشائق تنصب في الساحات العامة ، في الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس .

ويتعبير اوضح انى أريد لهذه العقوبة أن تظل تظل في التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

اجماعا أو شبه اجماع ، في مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شأنها أن تلامس بقوة اوتار كل نفس ، فتحركها ، في الوضع التي هي عليه . فلا نحاول اذن أن يعمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكون كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولى رأى في الموضوع ، اود أن أعرضه ، كونه لنفسى بعد أربعين سنة في رحاب القانون ... ولست أزعج أنه نهائى بالنسبة لى ، فقد أغيره ذات يوم ...

انى أرى ابقاء عقوبة الاعدام في القانون ، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للفدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والعجزة ... طمعا في أعراضهن أو أموالهن ...

وأرى أن تتشدد المحاكم في قبول البيّنات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، أى ظل للشك في نفس القضاة ... والا يكون عليهم أى سلطان في قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وأن تقف في وجه الرأى العام ، اذا أثارته الصحافة أو الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تآثر أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، أن تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة أن تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل

وليس لتطبيق باستمرار . ولقد أتيح لى ذات يوم أن اتولى تنفيذ أربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام أربعة مجرمين .

أحدهم عيث بزوجة أبيه ، وعاشرها معاشره الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، وأخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد رأسه بحجر كبير ، ودفنه فى حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته ،

وثانيهما ، غريب استضافه محسن فى بيته ، قطع فى زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح اثنتين هبتا لنجدتها .

الثالث ، قاتل مأجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسيء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيباً انسانيا بأنه يعاون عليه خصومه فتربص به وقتله ، ثم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وأنا أوقع أوامر التنفيذ ، بالابرياء ، والثكالى والايتم ، وهم يذهبون ضحية بعض الاشقياء فى ظروف تدعو الى الرثاء والبكاء . وأمام دموع الصغار الذين لفهم اليتيم ، والنساء اللواتي فجعن ببيعولتهن أو أبنائهن ، لا يمكن للمشاعر الا أن تتحرك ، وللنقمة الا أن تشتد . وفى مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقة على ندوة تلفزيونية عرضت فى فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف

الاتجاهات ، ولفت نظرى جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم آثم ، وطالب بالفدية ، ثم خشى أن يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدى ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلنى بالاقتصاص له .. فاذا أفرج عن قاتله ، فانى سأثار لولدى ، وأقيم العدالة بنفسى » ...

ويتروى على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التى يمنحهاها الدستور والقانون وأنه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حُبّاً به ، ولكن زيادة فى الاحتياط ضد مزالق الزلل ، ورغبة فى التشدد فى اقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا تجاههم بواجب الدفاع على وجهه الاكمل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، أى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها أهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنايات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكلفهم وهم فى قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين ايديهم قبل مدة كافية ، فيقف المحامى ليقول : لما كانت التهمة غير ثابتة على موكلى ، فانى أطلب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة فى صميمها ، والاستخفاف بحقوق أشخاص قد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر أن هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم أشر الى عقوبة الاعدام فى الجرائم السياسية.

ولو أن الدين حكموا على تلك الزهيرات الحلوة من أصحاب العقيدة الوحشية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام ، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس ، ويعود الصفاء الى الأعصاب ، وترتفع راية العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسدية ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاء ، فإن كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الدميم ، القانون والسياف .

ويا بلادنا ، التي انهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيك القانون ، ويحترم الانسان ، وتسان الحريات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم » واحسن تكريم له أن تسان انسانيته ، ويذول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعري ، القائل :

ما دامت الخيل والانعام خائفة
فرسا ، فما صح أمر النسل للأسد

انى من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا أستثنى من ذلك ، الاجرمة الخيانة في حالاتها الفظيعة ، لأنها تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيائته الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصلاح وحرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى في وحدة قومية ، أو تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره أشمل من خطر المجرم العادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله في المدينة الفاضلة ...

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قاتمة ، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا ، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعاته حقد أسود



الراجع

- Jean Imbert** : La peine de mort.
P.U.F. 1972.
- J. Ancel** : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le problème de la peine de mort. in
Revue des sciences criminelles 1963.
- J. Graven** : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mémoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.
- Norval Morris**, Rapport publié par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10
- Vouin** : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Thorsten Sellin** : la peine capitale et le procès pénal, dans :
Problèmes contemporains de Procédure pénale, Paris 1964.
- R. Merle**, Les aspects théologiques de la peine de mort, dans :
"Travaux du Colloque sur la peine de mort Organisé à
Athènes en 1960.
- Oerton** : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Savey = Casard** : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.
- Vernet — Joseph**, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966.
- Thierry Lévy**, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائريين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .



ميخائيل نعيمة ناقداً أدبياً

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

١ - رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين أرسلوا اليه نتائجهم فيعرض نعيمة في هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهي كثيرة : بعضها منشور في الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ - المقدمات التي يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ - الأحكام والآراء والملاحظات في الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبي أو الفلسفي أو السيرة .

ليس النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة إلا وجهاً من نتاجه الأدبي المتنوع ، والذي يشكل ، في النهاية ، نظاماً تفكيرياً واحداً من حيث النوع والمبنى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما أن كل إنتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله - على بساط البحث لكي نتعرف بوضوح الى نظامه النقدي في صورته الأكمل . وعندما أردنا أن نبين نتاجه النقدي وجدناه متوزعاً في أربعة مناحر :

العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذة اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت » (٢) .

وعلى هذا ، لا ينطلق نعيمة في مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فني محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، في منتهىها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، واذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسرار القواعد الضيقة - مهما وسعت - ليكون وجه الحياة اذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضا بل (لو شئت أن أحدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكي تبقى الاشياء والحياة في قيمتها المتألقة المنشودة « فنحن مدعوون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار - أي الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، فالحياة هي الانتقاد والتجدد (٦) . انه بحث مستمر عن حقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سُنَّة من السنن التي تقوم بها الطبيعة والطبيعة أكبر مغربل ... الفربة سُنَّة الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

٤ - كتاب « الفريال » الذي يضم إحدى وعشرين مقالة توزعت في ثلاثة محاور :

أ - مقالات عن النقد البناء : الفربة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب - هجوم عنيف على الأدب التقليدي والتبحر اللغوي : الجباحب ، نقيق الضفادع ، وهجوم على العروض التقليدي : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جدا يدعو فيه للترجمة .

ج - النقد التطبيقي : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحاني في عالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، اغاني الصبا ، النبوغ ، شكسبير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف ، الفصول .

وهكذا فسمية تأليفه النقدي ، على الإطلاق ، هي المقالة . وكان أول مقال نقدي له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة اذ يقول : قرأت الرواية فاستفزني لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدي جبرته ، فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديداً مراراً بجمود اللغة

(١) دمج نعيمة قسماً من هذه المقالة في مقال « الجباحب » المدرج في الفريال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ - ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط ١ ، مطبعة لسان الحال ، بيروت ١٩٢٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ - ١٩٦٠) المرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الفريال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الأديب والناقد » دروب (ط ٣/ دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) الفريال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

محور الحياة - على حد اشارته - وأن قواه هي التي ترينا في دياجير الحياة وميض أنوار تحببها إلينا (١٠) ... وأن « لا قيمة لعمل يأتيه (الإنسان) إلا بمقدار ما يذنيه ذلك العمل من معرفة نفسه أو يقصيه عنها ؟ وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه فهو أبداً يقيس كل ما يأتيه بهذا المقياس فيهمل منها ما لا يريده بنفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهراً من مظاهر نفسه (١١) . وأما أن الحياة تنقدنا في كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهذا أيضاً إلا على أساس أنها مجال نشاطنا ، وإذا نحن سليل تفاعل مع أشياءها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل ، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الإنسان أساسه ومحوره ، إذ لا وجود للأشياء إلا بنا . كذلك تقف موقف الحذر من قوله « في حين أننا ننقد الغير وقلمنا نوجه نقدنا إلى أنفسنا » على أن هذه الظاهرة تبدو صحيحة وواقعة ، للوهلة الأولى ، لدرجة أنها تكاد تعمى وراءها حقيقة أبعد ، ذلك أن نقد الآخرين إنما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن في العملية النقدية لا يهمنا الناقد والمنقود ، بل الأهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات إنسانية ، فكل مظهر ذاتي ، بل أي مظهر ذاتي ، إنما هو في الحقيقة مظهر إنساني أيضاً ، وفي آن . فإذا كان مجال عمل النقد مكتبة فيهم وما انتجوه فإن مادة هذا المعطى وهذا النتاج إنما هي الحياة « أن النقد الحق يأخذ مادته وإلهامه من الحياة » (هدسن) .

وهذه هي الحلقة الدائرة التي ينهجها النشاط الإبداعي : الحياة الأدب النقد ، ليصب

يتحول نعيمة بمسألة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية إلى موقف أخلاقي ، يبين بالتالي خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتائجها « فالفن أخلاقي ولا بد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد - ككل إنسان - مفروض عليه « أن يصحح » ما يراه أو يعتقد أنه خطأ ، وعدته في ذلك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له أخيراً مجال الاختيار ، فيكون نشاط. النقد التزاماً للحياة وأشياءها ، وارتباطاً عضوياً بها . من هنا بان من الضروري التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والإنسان ... أن الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفيما لفرق شاسع جداً ، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . إذ ليس ما هو خارج عنها لتوجه إليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتها فهي تنقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين أننا ننقد الآخرين وقلمنا نوجه نقدنا إلى أنفسنا (٩) فيقيم المقارنة على مستوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو أمر يصدر عن خطأ مبين يغفل التمييز السوي بين النقد الإنساني وما سماه نقد الحياة . فالقول بأن الحياة تنقد ذاتها بذاتها لا يمكن أن يعنى عندنا إلا أن الحياة تملك من نفسها وفي نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير أننا نرى - في هذه الحال - أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تكون إلا بواسطة الإنسان ، فهو أولاً يعي ذلك ويقدره ، وقيمة الشيء في معرفتك به ، ووعيك له . وثانياً لانعرف كأننا آخر يملك الحس والإرادة والتمييز والاختيار غير الإنسان . فالحيانة لا تختار وإنما تعرض أشياءها عرضاً ، وبقاء الشيء والموجود رهن بحاجة الإنسان وإرادته له ، ثم أوليس الإنسان هو

(٨) راجع ستانلي هايمن : النقد الأدبي وممارسته الحديثة ج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع الفربال ص ٢٢ - ٢٥ .

(١١) الفربال ص ٢٥ .

النقد ، أولا وأخيرا ، في الحياة ، أي النفس الإنسانية بكل مالها وما عليها ، لأنها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق في الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغريبة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه أدبا . فمهمة الناقد اذا هي غريبة الآثار الأدبية لاغريبة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « أدبا على الأدب » أي أن مادة الناقد الأولى بدليل أن تكون من الحياة المشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلفة » والمعبر عنها بالدرجة الأولى من الشاعر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة ان لتبيان مكانة النقد بالنسبة للنتاج الأدبي علينا ان نعرف اولا حدود العمل الأدبي نفسه ، وحدود الاشكال الثقافية الأخرى والتي تمسه بشكل أو بآخر ، وعلى هذاتين وظيفة النقد ليعمل أنها غاية بذاتها بل « القصد من النقد الأدبي هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقبيح ، بين الصحيح والفساد » (١٤) فينهج بذلك نهج اليازجي خاصة والنقد العربي عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى ، عبثا - إلى حد ما - انها تقرر نوع المقاييس الأدبية والفكرية التي تسود ، في زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لمن يقرر

الناقد ذلك (او على الاقل يمهّد للتقرير) : للكاتب أم للقارئ ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا أيضا « عواطف وافكارا مشتركة هي نتاج مجهوداتنا الأدبية المشتركة . وغريبة هذه هي وظيفة الناقلين » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعنفا ومدى بتفاوت البواض التي تبعثه ثم بتفاوت القوى التي تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال والدوق والارادة . وهي لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بهذا تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكون علاقة الناقد بالكاتب ، فهو يعبر عن القلق الذي يشيره العمل الأدبي فيه ، ثم رغبته في التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تشيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من أوضاع يعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . ويأتي الناقد ليعبر عن القلق الذي يشيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . أي ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة أخرى هي علاقة إثارة . « فمن يريد ان يشير

(١٢) الغريال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الغريال ص ١٥ .

(١٥) الغريال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

الشخصى والتجربة المباشرة لادراك حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع سالت بوف بأن الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا أى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش الاثر الادبي ، ما هي حقا صورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من اعتناؤه باثرها الذى حققته في نفس القارئ ، على نقيض ما يرى آدموند جويس من أن النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك في الأدب او في الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد أدبي) قد بدأ يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصيصا ، وهو تحليل لمزايا الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب في علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم او اصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اى ان الاديب الكبير هو الذى يمهّد للناقد الكبير او يخلقه (ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى التناج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهّدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا عكس فاقول ان النقاد الكبار يمهّدون الطريق للادباء الكبار . فالبصرية الحظّة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مساح او قاذح) (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطى العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

مشاعر الآخرين عليه ان يتأثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذا تبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد - اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداما . فالتناس ليسوا على مستوى شعورى واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد اوسع ، بل احد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبي نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباعث الاول له . واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى في النقد ، عند نعيمة ، ولها صح اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة ، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد بناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص وسيئاته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترب من اليوت « يقينى ان للنقد غاية : هي توضيح الاثارة الفنية وثقيف الدوق فبصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان اساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتأثير ، وذلك لانك لا تستطيع ان تستغنى عن الدوق

Walter Thomas : John Ruskin P. 29

(١٩) راجع

(٢٠) راجع فان تيفم : المذاهب الادبية في فرنسا (منشورات موندات بيروت ١٩٦٨) ص ٢٣١ .

(٢١) آدموند جويس : دائرة المعارف البريطانية : النقد .

(٢٢) دروبه ص ١٧٩ - ١٨٠ .

العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمة يفرق تفرقا قاطعا بين النقد والادب ، بينما هو في الواقع « ادب من الادب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكم الادباء في ان بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما في الامر ان النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يبدو ان يكون ادبا يتخذ من الادب نفسه موضوعه (٢٧) وهكذا يظهر لنا ان نعمة لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول ايضا ان النقد دعامة لا يقوم الادب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارئ والناظر والسامع والزمان . فان خطأ القارئ والناظر والسامع فلن يخطيء تقدير الزمان في المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مراتب عالية **كلنانت بوف وتين وراسكين وبيلنسكي** فيما في نفوسهم من كنوز الافكار والاحاسيس ما تكتشف الا لدى احتكاكها بكنوز مماثلة ، « فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقا على هذا الكتاب او ذاك » (٢٨) من هنا كان لنا ان نستنتج ما يلي :

١ - التأكيد بان ليس الناقد وحده ، وبالضرورة ، الذي يقوم بمهمة النقد ، بل هناك الزمان (٢٩) (يلحظ هنا ان نعمة يعدد الاسماء لقوة خفية واحدة هي وحدها تحفظ

قيمتها التي يحملها ، اي ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن أدبي : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القدرة على النقد عندي قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل أحط شأنًا من ملكة الخلق والابتكار » ولو ان الوقت الذي يبذل في نقد الآثار الابدية ينفق في الادب الانشائي من أي نوع كان لكان ذلك خيرا لنا وأجدي (٢٣) (ورد ذورث) ، او بما ينشده **اميل فاجيه** « اننى لا أعتقد بان للنقد ثمة امراً ، ويقدر ما أعمقه اقتنع بأن ليس له أي اثر (٢٤) . فالناقد لاحق بالكاتب ، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلو لا الكاتب لما كان الناقد ولا يصح العكس ، وذلك هو الفارق الاول والأهم ما بين الاثنين » (٢٥) . فالادب الخالق ينظم تجاربه التي استمدتها من « رأس النبع » في أكثر الاحوال ، اما النقد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، أي من الحياة ، أي بعد ان نقلها الادب نقلة جديدة . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه في الاستقلال بقدر ما بينهما من اتصال (٢٦) . فالناقد اذا هو الحلقة التي تربط بين العمل الادبي والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبية تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة في مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائي بشأن هذه

(٢٣) راجع الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٢ ص ١٦ .

E. Faguet, Propos Littéraire, II P : 5.

(٢٤)

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٧ .

(٢٧) رليف خورى ، الاداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تقربه من موقف الريحاني في هذا الصدد ، راجع رسائل الريحاني (دار الريحاني ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الأدبي .
ومرة يحط من هذا النشاط وأصحابه ، فيكاد
ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التي تقوى
كلما باضت رفيقتها ، ويدعوهم الى الشغل
بانفسهم والى الانتاج الأدبي وترك سواهم
وشأنه . وهنا يتبين لنا انه يميز بين نوعين من
النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة
عمليته فيفهم تناولا للمؤلفين ونتائجهم ،
وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع
آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة
واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة
لم يكن صريحا وواضحا في هذا التعريف ، بل
كثيرا ما كان يتحدث بصورة عامة فانت لا تكاد
تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رؤيف
خوري الى ان يأخذ عليه هذه الظاهرة
« فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين
من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على
فلسفة ليؤذن لى ان اصفها بالمائعة . فلسفة
يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج
خاطئة بليغة الضرر . تلك هي الفلسفة
« الليبرالية » المحض وأدعوها بالعربية
« الاصطفالية » دهي تستند على ان هذه
القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم
متحولة متبدلة في العصور ، عدا انها في كل
عصر وبئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة
حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون
النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير
ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة
لاشية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد
بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم
الحق والخير والجمال ... (٢١) وتفسيرا لتلك
الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد
على أساس من الحذر والحقد . فهما مستويان
مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

خلود العمل الأدبي فحينما الحياة ، وحينما
الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارئ ايضا) .
اذ ليس ثمة ناقد أعلى من الجمهور ، فهو متبصر
بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما
يصيب من احكام سديدة في جميع الانواع ،
فهو يطلقها أولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد في
اللغة لتؤلف الرأي العام (٣٠) . وهكذا فالنقد
ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له
أصحاب اختصاصيون ، بل هو امر يتولد
طبعيا عند الناس ، وبالتالي يمكن ان كان
القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع من
مسؤوليات ، فان الصحيح لا يعوز ناقد
يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هي التي
تعطى الاثر الأدبي القدرة على البقاء اذا كان
حامل اسبابها .

ب - غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى
تليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع
بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصره على
مجرد الشروح والتعليقات أو الاسفاف لأن
يكون ضربا من المهارات او نوعا من المماحكات ،
انه تأليف تنبع قيمته من ذاته ولا يستعيرها
من المواضيع التي يشغلها . فالناقد الحقيقي
هو خالق كالشاعر ، فينحو بذلك نحو
سانت بوف او دي غورمون ، ويتبين لنا ان
هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم
بالعجز عن ان يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الإبداع والأسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر في أمر النقد ، وفي
تحديد المكانة التي ينبغي ان يشغلها هذا
النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق ،
ويعظم الناقد حين يذكر تين وسانت بوف
الفرنسيين وبيلسنكي الروسي . فيؤكد ان من

(٣٠) وهذا ماذهب اليه Marmontel (1723-1799) راجع ايضا Fayolle, La critique P: 24

(٢١) رليف خوري / الاداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

فالحديث عن النقد ليس حديثا عن قيمة هذه الآثار على أساس جمالي أو مثالي مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقي عنده لا يكون التزاما بقواعد مفروضة ومسبقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد في توتر دائم للخلق والابداع . فاذا كان المؤلف أو الشاعر خالق اثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٢٤) . فضله انه يقف كترجمان بين المهملين وغير المهملين (كارليل) فمن هو هذا الناقد ؟ ما صفاته وما ثقافته ؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبي والآخرين ؟ أولا يكون في وقفته هذه سدا ، في الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الأدبي ؟



صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبي ، في أساسه ، وظيفة فكرية ، مادتها المنتج الأدبي ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الاثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارئ وله ، فهو الذي يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذا الأديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتألف في كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملا من أعمال البنية الانسانية (كالشي والاكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعي أو الحضاري . فان الاصول والادوات الجديدة في النقد ، والاتجاهات في البحث ، تعتمد في أكثر احوالها ، على

العلاقة على اساس من الثقة والاطمئنان » . الا ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأخرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لوصفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٢٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولا عن شكلها . ولعل علي ادهم يفسر ، في شكل أو في آخر ، جانباً مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعي ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون في سر وسهولة عن أحزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، في حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٢٣) .

وهو اذ يفهم النقد غريزة لمجهوداتنا الأدبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الاثارة اساس الملكة النقدية ، وهو أخيراً ، اذ يفصل في العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بأن بحث نعيمة في المفهوم النقدي لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، أو على أساس اتجاه مذهبي محدد ، أو هو يستل من نظام فكري فلسفي مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على أساس انه فن هو أو علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية واللسانية الأخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة . . . وبالتالي لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل في رأيه ، وبعبدا عن أى تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذي تكتنفه الآثار الفنية .

(٢٢) ددوب ص ١٨٥ .

(٢٣) علي ادهم - على هامش الأدب والنقد (دار الفكر القريبى ، مصر . لا . ث) . ص ١٢٤ .

(٢٤) الفريال ص ١٧ - ١٨ .

محجة لنذكرها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه،
والحادى الذي سنسير على حذوه (٢٦) .

فحين يكون الماضى تراكما يورث الضلل
ويبعث الشوه فى أذواق الناس وملكتهم وإذا
لا يعود الزمن أكبر مغربل ابن منه غرايل
الناس (٢٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف
الغطاء عن ذلك الماضى لتحسس حقائقه ،
وحسب ، بل لا مكان تنبؤه بالغد وإطلاعه
عليه ، فيكون له السبق فى استشراق القيم
الجديدة ، أى ، هو ، فى حالات خاصة ،
يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل أمروسون ،
وقد يعين موضوعات للأدباء يكتبونها مثلما فعل
جوركى ، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك
مترسما خطى تولستوى وخطى بوالو والنقاد
الرومانسيين . أو قد يمد الفنان بموضوعات
محددة وقواعد وتقنيات علمية ... وإذا يكون
الناقد شبيها بمخرج فنى ، يبين للقارئ
الروح التى يجب أن يستلهمها فى سبر أعماق
الأثر الأدبى فلا يكون (هذا الأثر) ثابتا ونهائيا
عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، فى
الحقيقة ، ينتهى مع النقد . وهذا الناقد
القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية
لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا - كما
ادعى اليازجى - بالمطالعة أو بالدربة والممارسة
أو بأى سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أى

فروض (٢٥) أصبحت أساسية فى الفكر الإنسانى
الحديث ومميزة له . وإذا القارئ عاجز ، كل
مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى
المقاصد والأبعاد الحقيقية التى يكتنزها الإبداع
الأدبى ، كان على الناقد إذا عبء المسك
بالقارئ فى يد ، والمسك بالأثر الأدبى وصاحبه
فى يد أخرى فيساعد القارئ على فهم العمل
الفنى وتذوقه ، ويساعد الفنان على أن يفهم
منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره
بتعميم المعايير المطلوبة أو بتحديداتها وتجهيزها
فيكون الناقد بالتالى مستقطبا بثلاثة اهتمامات
واضحة : أولها الاديب المبدع والخلفية الفكرية
التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح
نتاجه ، وثانيها العمل الأدبى نفسه ككائن
أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما
أراده الأديب بل يصبح له استقلاله النسبى
وقوانينه التى تحكمه بنفسه ، وثالثها القارئ
الذى هو ، بالنهاية ، مرتكز جميع هذه
المقومات والاهتمامات . فمن هو ، فى رأى
نعيمة ، هذا الناقد الذى هو حاجة ضرورية
فى المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا
إذا نأى فى حاجة الى الناقد لأن أذواق السواد
الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من لدى
أمننا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ،
فالناقد الذى يقدر أن ينتشلنا من خرافات
أمننا ، وترهات يومنا ، والذى يضع لنا اليوم

(٢٥) يعود الفصل فى هذه الفروض ، بالدرجة الأولى ، الى أربعة علماء كبار من مفكرى القرن التاسع عشر وأوائل القرن
العشرين وهم : دارون (منه جاءت الفكرة بأن الإنسان جزء من الطبيعة وأن الحضارة تطورية) وماركس (القائل بأن
الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة معقدة ملتوية أحيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية لهذا العصر أو ذاك) وفرويد
(الذى يرى أن الأدب تعبير مقنع وتحقيق لرغبات مكتوبة - قياسا على الأحلام - وأن هذه المقنعات تعمل حسب مبادئ
معروفة ... وفكرته أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعى وأن بين الرقيب والرغبة فى التعبير صراعا
مستمر) وفريزر صاحب الأفكار عن السحر البدائى والأسطورة والشعائر البدائية ...) كلها تكمن فى أساس
أعلى النماذج الأدبية ، يضاف إليها فكرة السلوكيين بأن الأدب ليس إلا رجلا يكتب ورجلا يقرأ ولا شيء غير ذلك ،
وفكرة العقلانيين بأن الأدب قابل للتعطيل « ... للتفصيل فى هذا الموضوع راجع ستانلى هايمن : النقد الأدبى ومدارسه
الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الفريال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « فى مهبط الريح » (ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

لا وجود له على الإطلاق . (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب في طبيعة العمل ومهمته، سبيله أن يبصر الأشياء على حقيقتها ، محاولاً أن لا تسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقاً مع نفسه في ما يذهب إليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنازة من مناراته وبان من بناته ، وكثيراً ما يكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرماً على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد . . . انه روح الثورة في الأدب (٤١) ، وإذا قد يفعل النقد ، حيناً ، - في الحركة الفكرية - ما لا يستطيع الأدب وحده ان يقوم به . فهو حديث مباشر مع القراء ، يشرح الأشياء ويكشف عنها الغوامض والأسرار التي اكتنفتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة في الأدب ، أى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو السبيل ، معاً ، في التمهيد لمنازع جديدة وفي القضاء على اتجاهات قديمة ، أو قل هو محك الأدب يستظهر منه طاقة الحياة فيه وأسباب الجمود والموت أيضاً ، فلكي يقضي نعيمة على نوع الأدب السائد أثناء ثد (النازع الى القديم والقائم على براعة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلاً يعتمد عليه للقضاء على ترهات الماضي وللمهيد لأدب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدماك الأول لبنائه الأدبي على الإطلاق .

هو يكون ناقداً ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (وإذا النيرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثلها لها « هناك خلّة لا يكون الناقد ناقداً اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التي توجد لنفسها قواعد ولا توجد لها القواعد ، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين ، فالناقد الذي ينقد « حسب القواعد » التي وضعها سواء لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشيء » (٢٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيداً لا يحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه وأهمها قوة التمييز ، لأن النقد ليس « حكماً » فقط بل هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص » و « ترتيب » في مرحلة أولى . وإذا فدراسة القواعد وتطبيق معطيات النقد وتقنياته لا تطلع ناقداً ، بل في ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، إذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الادلال على المعايير او المحاسن في النص الأدبي ، وكما تترأى له ، وهو لن ينفعه في ذلك براعة أسلوب أو طابع تهكم وسخرية ، (٢٩) لأن في ذلك قتلاً للروح المبدعة فيه ، وفهماً سيئاً لوظيفته ، إذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . فالناقد الذي يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وأن يميز الخير وأن يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه في ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد

(٢٨) الفريال ص ١٧ .

(٢٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

مبدع ومولد ومرشد مثلما هو محص ومثمن ومرتب . فالنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذي يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب في اثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه (٤٥) » . واذا يعتبر أولا أن الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الاديب ويسعى الى اثباتها وتحقيقها ، بكل وعى وارادة فيكون بالتالى عارفا بجميع ابعاده وبنائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغربة منه ، أى الاديب ، قد لا يعرف جميع اسرار مولوده الادبي . « ما اكثر ما تناولت قلمى وفي نيتى ان اكتب كيت وكيت واذا بى اكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليبدو لي احيانا أن يدي ليست وحدها التى تفقد قلمى . او ان قلمى ليس وحدى » (٤٦) واذا هو في موقف شبيه بموقف القارئ ويعتبر ثانيا ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيث ولادته وتلقوه . فالنقد « اكتشاف » (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فان روح الخلق الادبي وروح النقد الادبي من نوع واحد « وفي اعتقادى ان الروح التى تتمكن من اللحاق بروح كبيرة

الذات هي الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارئ والكاتب معا على احترامها والايمان بها ، انقى بصيرة وأوسع افقا وأسلم ذوقا وأصدق نية وأمضى مزما واشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٨) . وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غير الاثر ، في تواصل مع الكاتب عليه ان يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاوره الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر ان يكون ادبيا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفنى الذى يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . « فلكى تكون ناقدًا ممتازًا يجب عليك ان تكون مؤلفًا جيدًا ، فالموهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفع بالناقد قديمًا لتبين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٩)

الناقد مبدع ايضا

لا يقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو امامه وتمحيصه ، وتثمينه وترتيبه (٤٤) فهو

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1870—1970) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان بروتتير (١٨٤٩ - ١٩٠٦) في مقالته من النقد في « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمهيص والتصنيف والحكم . ويفهم الشرح والتمهيص على انه تحديد علاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالبادئ الخاصة لنوعه الفنى ، وبالكائن الذى طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكون شرح الاثر يعنى تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية غير معين لان المهم هو تحديد موقع الاثر في « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعي غير شخصي اذا طلبنا اعتبار « الروح الادبي » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الفريال ص ١٨ .

(٤٦) سبعون (الرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الفريال ص ١٩ .

ان الناقد هو محور العمل النقدي ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للانسان ، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التي هي « بنات ساعات جهاده الروحي ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهي اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سبط بقوة خفية على جماهير قرائه فأعطتهم وجهة جديدة وإيمانا جديدا (٥٢) وهكذا فحركة تكاملية يصبح الناقد ، بدوره ، كاتباً لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة في أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن ان يحدد بمقاييس الدور او القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالآثر الأدبي هي علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن ان يزعم ترجمة الآثر الأدبي وتفسيره وتوضيحه اذ ليس اكثر وضوحا من الآثر الأدبي نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبي بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . منا يمكنه هو ان يلتمس اتجاهها يشقه من شكل هو الآثر نفسه . وبالتالي فالناقد يثير امام النص الاسباب نفسها التي يثيرها الأديب امام العالم وأشياءه .

غير أن هذا المنطلق التأثري العامل بمنطق الذوق واحكامه انما هو امتداد طبيعي للقلق التوثب عنده باستمرار ، فنقل افكاره عن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والنكران لهذه المجردات وجودا مطلقا او ملتصقا بجوهر الأشياء والافعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو في ذهن الانسان وحده (لا في خارجه) مصدر

في كل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسالكها وتستوحى موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الاصيل بين الناقلين والمبدعين في الأدب لا يملك اي معنى او قيمة ، او هو لا يمكن ان يكون الا مع النقاد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة في تاريخ النقد ، بل لها أسياها وخاصة في النقد الفرنسي انطلاقا من سانت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) وارتقاء بهارسيل بروسست (١٨٧١ - ١٩٤٥) وانثرييه سوياريس (١٨٦٨ - ١٩٣٩) و (اميل شارتييه) الآن (١٨٦٨ - ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الآثر واعادة خلقه ، اي ان الناقد قادر على اثاره العواطف والمشاعر المختلفة وان يعيش من جديد التجارب نفسها . يقول دويو : ان طريق النقد المثالي هي طريق الابداع ولكن بأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهي المؤلف لينتهي من جديد حيث بدأ المؤلف ايضا ... ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صانحها ... ان كل شيء يبدو لى حقيقيا بالنسبة للقوة التي ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكري والاصالة التي تختفي وراءه تبدو في عيني علاقة مشابهة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد ايضا مولدا « لانه في ما ينقد ليس في الواقع الا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن في ذاته بل لانه ينطبق على آرائه في الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) اي

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩)

Du Bos, Journal (24 Novembre) 191 .

(٥٠) الغريال ص ١٩ .

(٥١) الغريال مقالة « محور الأدب » ص ٢٣ - ٢٨ .

(٥٢) الغريال ص ١٩ .

الاطلاع على النصوص ان تؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا ووجدانيا لا يقود الى أى ارتقاء ، أو الى ادراك ما فى القيم من تنوع لا ينفد . وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكى يسهل فهم الغربة الادبية والقصد منها (كما سنرى فى المقياس النقدية عند نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية اخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالي ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة فى متناول نخبة تلاحظ وتهتم ، وكل قصة نمط من السيرة الذاتية ، والناقد الحاذق هو الذى يكتشف نفسه عبر روائع الآثار ، فاذا كان الشاعر يتلمس المجال الذى تفتح فيه موهبته وتحيا فان الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتب مفرورا الى صوابه ، أو يهدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آنفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تاتى نتيجة حتمية وطبيعية لخاصتى الابداع والتوليد فى الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة وما مداها فى التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا ما يكون الأديب ، غير موفق فى اختيار مجال نشاطه ، أى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر أصيل ودائم عند نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية فى نفس صاحبه ،

الاحكام على الاشياء والافعال . وهكذا ففي مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور يعتمد فى احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتأليف الادبى سواء بسواء . غير ان شعور الناقد او القارىء (رضاه او نفوره) عما يقرأ ، ناشيء فى الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يعيل اليه او ما يبغضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . أى كأنه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الأديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور فى خلد الناقد (او القارىء) **فنعيمة يقيم شأنا عظيما للانطباعات الشخصية .** الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليلها ، لأنها ليست فى حقيقة امرها ، الا انعكاسا مباشرا بشكل او بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد فى خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقى معين - مهما بلغ نضج هذا المستوى - انما يصدر عن موقف سيئ : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الأديب والقارىء) ، بل لشدة التصاقه بالنص الادبى لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن الاثر الادبى بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا أوفى ؟ بل ان هذا التحكم الدوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف فى تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة أسيرتها ، بل تتسع لها ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء أصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الغرض من

فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ماتقدم من خصائص الناقد ، نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شانا في ذاته ، ينبع من شان مواقفه نفسها وليس من قوة أخرى . فهو يد اب في تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول او موارد خارجية عنه ، لان ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تلخيص موافقة واثباتها يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمها (المقاييس والموازين التى تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هي ما يبطن به سطره ، من الاخلاص فى النية والمحبة لمهنته ، والفيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما أوتي به بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارئ وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه أنا تول فرانسى فى « أن النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة وأهمية (٥٨) .

بواعث النقد

البواعث التى تعطى النقد مركز التقدير هي نفسها البواعث التى تعطى العمل الأدبي وجوده وكيانه :

١ - اخلاص فى النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد عن الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا مايمسها وما يخصها ، فاية فطرة هذه صادقة تنتج فى مجال ما فاذا نتاجها فى مجال آخر ... هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليم وصادق فى مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، او لا يكون ادبيا . ألم يقل « من كان معدا للادب كان فى غنى عن يدله على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس (٥٥) . فيأتى الناقد ليهدى هذا الاديب الى فرعه ويدله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه » . وعندنا ، ان قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة ووداعة النفيسة التى ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تهليلا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من أهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد أن يعلمه للآخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة . وهو مرشد للمؤلفين ، ولكن لا من حيث هديهم الى النوع الفني الملائم والمناسب للمكاثم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفني » لان النوع الفني عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر الا به) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم

(٥٥) فى مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) الغريال ص ٢٠ .

(٥٧) الغريال ص ١٦ .

(٥٨)

الناقد يتنوق ليخلق

غير أن القول بهذه البواض والعناصر ، لايعنى ، فى نهاية الأمر ، بأن يكون الناقد هو الأديب . أو انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الأدبية الا اذا كان هو نفسه من ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما فى النقد العربى ، وذهب النقاد العرب فيها مذاهب شتى ، ولعل ابن رشيق يلخص طابع مذهبهم ذاك حين يقول بأن « أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ! (وقد كان أبو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الاحمر فى حلبة هذه الصناعة ، اعنى النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجارته لها) . (١١) »

اى ان الناقد الشاعر أبصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل ايضا وبجماس بانه ليس من الضرورى على ناقد فن ما بأن يكون هو أولا من ابناء ذلك الفن المنتجين له « وقد يميز الشعر من لايقوله كالبزاز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر من الدنانير مالم يسكبه ولا ضربه ، حتى انه ليعرف مقدار مافيه من الفس وغيره فينتقص قيمته ... (١٢) وهو عين مايزدهب اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعاء بقوله مستشهدا بجواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أعلیٰ ان أبيض البيضة اذا لأعرف ما اذا كانت سالحة أو فاسدة ؟ » (١٣) ولعل ذلك

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود فينحاز النقد الى التهليل أو الى التحقير تبعاً لنوع العلاقة على غرار ما رأينا فى الفصل الاول من هذه الدراسة) .

ب - يستتبع هذا جبهه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمة النقد السلبى ، افتقاده لعنصر الحب هذا (٥٩) اذ يورث فيه التزام عمله النقدي الصافي فيكون همه ، وبالتالي لايقبل فيه الزيف ، لانه يصدر عن دقة فى الذوق ورقة فى الشعور وتيقظ فى الفكر . فيتأتى لنا انه يريد أن يجعل من النقد عملاً صعباً ، يعلم الجمهور ظواهر الأثر الأدبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف العبقريات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الأمور الوزن الأكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقد وطريقتها وقوتها ، لانها متممة للعناصر الأولى ، وهو اذ يضعها فى درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التى يصدر عنها هتا بحالة فلوير حين كتب (١٨٦٩) الى جورج صانده عن موضوع الناقدين فقال « كان الناقدون فى زمن لاهلوب نحويين ، وفى أيام سانت بوف وتين مؤرخين فمتى يصبحون فنانيين حقاً وصدقاً (٦٠) . فعند نعيمة اعتبار كبير لطريقة العرض النقدي ، اذ انه يؤمن بان كثيراً من الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايفقدونها من طريقة عرضهم لها .

Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٥٩)

(٦٠) ستانلى هايمان ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، المعده ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) الرجوع نفسه .

(٦٣) الفريال ص ٢٠ - ٢١ .

يعود الى بعض المفارقات البديهية ما بين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، اما الناقد فيتذوق ليجعل . فهما شريكان ، لا في نمط التأليف ، بل في القدرة على الشعور بالحالة نفسها وبالتجربة ذاتها اللتين صدر عنهما العمل الادبي « غير أن من الناس من لا يدركون أن من لا ينظم القصيدة قد يقرأ فيها أكثر مما أودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم في حياته بيتا ولا عرف مافي النظم من مشقة الأوزان والقوافي ولا من لذة الفوز بها ، غير أن ذلك لا يعوقه عن ادراك مافي الافصاح من عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يعميه عن تموجات الالوان في الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الالحن في مقاطع الالفاظ والعبارات . والا لا يكون ناقدًا . واذا تسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبأته الى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت في الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . واذا ذاك لاحاجة به ان يكون عالما بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (٦٤) فيكون دون الشاعر أن ينقل الحالة كما هي ليأتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . وان يعيق الناقد شكل النتاج الادبي اذ همه ما يحمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لا ينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ما ينظر الى نوع ما قاله ، فغرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطعاه ، اى أن الناقد يتجه في بحثه اتجاهها يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل

النفسي) وهو في كل هذا انما يصدر عن موقف ادبي واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتج الادبي ، وان سلطان الادب في انه ابدا يجول في اقطار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضا للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (٦٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسي بديل الاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية أو تبيان المعاييب والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (٦٦) فدراسة الأنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هي احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الأولى على الإطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقي عند مؤلف لا يمكن أن يكون الا في نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد امام كل نص أو اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، في أن ، عن حقيقة الكون ومجراه (٦٧) ؟ ان ناقدًا كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متأصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجرأة ، الذوق ، الشعور ... » وفكرية متيقظة و طاقة تعبيرية نافذة يكون رائدا لا يعدم اناسا ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشئيته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يستقبح ، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطانا تامر بأمره وتتمذهب بمذهبه وتحلى بحلاه وتتذوق بدوقه ألوف من الناس . اذا طرق سبيلا سلوكه ، واذا صب نقمته على صنم حطموه ،

(٦٤) الغربال ص ١٧ - ٢١ .

(٦٥) الغربال ص ٢٧ .

(٦٦) راجع قسطنطى الحمصى ، منهل الوارد في علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) هنا ما يقول به P. Valéry راجع P. Valéry P. 135-145. M. Bémol, la méthode critique de P. Valéry

تسليطها على النقد الأدبي ، أى لن يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . وإذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة » فلنترجم ولنجل مقام المترجم لانه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولانه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترنا عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وافراحه وأحزانه . فلنترجم (٦٩) فدعوته هذه لا تحدد - وعلى سبيل المثال - (تفكير نعيمة يكره التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضيه على ذلك ، وليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء الى اللوق والبصيرة ؟ أوليس الناقد أيضا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب اللوق وحده في كل مرة ؟ فلطالما أحسن نعيمة بهذا الهاجس الذى كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه في كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الجدر والاحتمال ولا يجزم في الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير ان الناقدين طبقات . كما ان الشعراء والكتاب طبقات . فما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم (٧٠) . وهكذا فان نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقد والشعراء الى طبقات منزع النقد القدامى أنفسهم في تصور الشعراء على أنهم طبقات (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما ينافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضا

وأذا أقام لهم الها عبوده وبخروا له وسبحوه (٦٨) لانه انما يصدر في ذلك لا عن فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر - في تلك الخصائص المذكورة - عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذى يحدده اطار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافى والفكرى العام فيهما . فالناقد خير من يتمثلها جميعا ويصهرها في بوتقة واحدة ، فهو في عمله انما يعبر عن الراى العام لمحيطه فاذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما في نفوس قرائه من استعداد فطرى للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلعا من الارض التى أطلعت به بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فلديه قسط من الحساسية الحية أكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسع احاطة بالنفاذ الى حقائق الاشياء . وهو في كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهى ان شيئا لا يمكن ان يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا أن نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التى يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التى عليه العمل بنورها . فاذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة أكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الأخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الأخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى أن دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا أريد

(٦٨) الغربال ص ١٦ .

(٦٩) الغربال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغربال ص ١٧ .

(٧١) طالما ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهي تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة ال رضوان الشهال .

الأزمة والامكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق في الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا في لحظة أخرى وتحت عوامل وظروف أخرى ، وما يبدو جميلا في حالة قد يفقد شيئا من جماله في حالة أخرى . من هنا كانت تخف وطاة زلة النقاد وينعدم خطرهما الفادح . « فلنحاسب الناقد بنيتهم أولا ، فان اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٢) فالهم ان تكون النية سليمة » أى طبيعة نفس الناقد وأصالته ، خالية ، من أية شائبة ، عندها لا قيمة لخطاه ، لأن جوهره الانسانى صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة وأجاد استعمالها فذاك حد ما يحق لنا مطالبة به (٧٤) - ليس لنا ان نسأل الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له ان يذهب في ذلك مع ما ترتضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالأديب . وإذا لا يمكن درسه على أساس ما قال ، بل على أساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها في عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكليات . وعندنا أن الأمر يتطرق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الأديب أو الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على اصحاب النظر المميزة للأديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهم من الأديب الذى خال انه جليل من غير جليل الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجه كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد أن الشعر والفن رزق من السماء . وانا - كما قلت لى مرة - من التراب والتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي ان التراب الذى

على أى أساس يجرى هذا التقسيم الطبقي ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا أكبر . وبمقدار ما يسبر غور الأديب ويعرف كنهه ويحاول المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الإعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنياته :

وكان طبيعيا ان يصل به هذا الحذر الى النهاية الحتمية فيستننتج بأن « ... الناقد لا ينجو من زلة أو هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، أو يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لأنه بشر والعصمة ليست لبنى البشر (٧٢) . وليس في هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من أن « الناقد مرشد » او انه حاجة ضرورية في المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الراى عن ايمان عميق عنده ، بمبدأ الصدقة ، أى ان النقاد - كذلك الكتاب - نتيجة لعوامل معلومة ، يكتبون ما تمليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف أن حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة تطلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لان المسألة برمتها عند نعيمة ، انما هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهي القوة الخفية التى تحفظ للأشياء بقاءها أو تحرمها اياه . ويجب أن تأخذ معنى الحياة هنا لا على أنها مجرى العيش اليومي - وهو جزء منها - بل هى الحاجات والمقاييس المشتركة بين بنى البشر ، والتى تخاطب جوهر الانسان الحميم والذى لم يتغير عبر

(٧٢) الغربال ص ١٥ - ١٦ .

(٧٣) الغربال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

وظيفة هي من أهم وظائف الحياة (٧٧) .
وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الاوفا في
الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلاحيات
مذاهبهم .

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازياً
للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت
بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب
دعوة أدبية جمالية من خلال نقده فيضع النص
الأدبي باعتباره مجالا متحركا . فليست
وظيفته اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف
مظاهر الاستحسان او الاستقباح الجمالي
فحسب ، بل هي وظيفة تشريحية ايضا تفتش
عن « نسمة الحياة » وعن « المدى » بناء على
مقاييس واضحة ، وأصول تنبع من نفس
الناقد ، لان النقد يدور حول الفهم والتذوق
بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعنى ابدا ان
الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، اى ان الاول
يخضع للعقل والاخر ، يوضحه . ان الناقد
يقوم بمهمة النقد لانه انسان (لا مجرد آلة)
له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب
أدبية وغير أدبية ! فيهتم بتحويل تجاربه
وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .

● ● ●

المقاييس النقدية :

من الطبيعي أن مفهوم الأدب هو الذى
يحدد ، فى شكل أو فى آخر ، مفهوم النقد
واتجاهاتهم ، ويصدق هذا أكثر حينما يكون
الناقد نفسه أديبا ، فيصدر عن خلفية وجودية
هى روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها
واشكالها ، والمقاييس النقدية هى كل مفهوم
للقيد ، وكمثل الأدب ، هى محصول نوعي

ينبت القمح الغذى والزنبقة الطاهرة والوردة
الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن (٧٥) .
فهو اذا لا ينم عن منظور ارسقراطي فى فهم
وظيفة الأدب والنقد ، وانما يريد ان يرى
الاشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة
النفس والحياة ، لان لا شيء فوق النفس
والحياة اللتين تعطيان الوجود قيمته (الوجود
قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن
المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد
من فضل سوى فضل رد الامور الى مصادرها
وتسميتها باسمائها لكفاه ذاك ثوبا (٧٦) لان
أساس العملية النقدية السعى الى اكتشاف
ومعرفة حقائق الامور والاشياء . المهم ان يبقى
منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من
الناس لا يمكن ان يحافظوا أو ان يبقوا
باستمرار ، ودون « مرشدين » ، فى كل مرة ،
ضمن الاطار الروحي والحي السبيل الوحيد
لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند
جميع الناس القدرة على النفاذ الى لب
الامور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضا ، فليس
عندهم دائما هم التحرى والسبر فى الاعماق .
من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم
وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من
الشوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت
لوائه . ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك :
فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع
الناس ايضا (والنقد فى سبيلهم بالدرجة
الأولى ولاجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا
صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول
فيكون حظه منهم قليلا لان النقد « لا يرضون
فريقا من الناس الا باغضاب فريق آخر ، غير
ان القوى بينهم — والقوى من اخلص النية —
لا يحفل بمن يرضى وبمن يفضب لانه يخدم
غاية اكبر من رضى الناس وسخطهم ، ويتم

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) القربال ص ١٨ .

(٧٧) القربال ص ٢١ .

ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية ايضا في تدقيقها وتقديرها حق قدرها أن كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمي وإى شكل اتخذه ، لا يمكن ان يحيط بالانتاج الأدبي ، لأن الأدب ، في النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (أى السليقة) ويصدر أحكامه نتيجة لذلك (أى للتأثير الذى أحدثه الانتاج الأدبي في نفسه) بالجودة أو الرداءة في صورة عفوية وان كان لها في واقع الأمر أساسها الجمالى الدفين في نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا في يد من يحاولون استخدامه وان يكن قد أخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذا مسألة احساس فردى (ذاتى) فبقدر ما تحب الأثر وتنقل فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصا أصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الأدبي ، ولا يعنى ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالتنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن أهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الأثر الذى يخلقه في نفوسنا في وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيا ارتباط بطبيعة موقفه من الأشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من أبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدى بل من حيث هى تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكاته (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « تراها » كما هى (٧٩) أى هى لا تكون الابنا وتبعا لمداركنا لها) كانت المقاييس التى تبني عليها نسبية ايضا وبالتأكيد .

من هنا كان النقد عند نعيمة ، في أساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى تماما كإى نشاط آخر » والعمل الفنى عملية معقدة لانه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالفيب . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود في النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، والى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسدانى والعقلانى والروحانى . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى (٨٠) ففى الواقع

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل مذهب جديد ، ان فى الأدب أو فى سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه وعبرية فذة تتمهد نموه » نعيمة : وولت هنتمان أو الشعر المنسرح : الأدب ص ١ (١٩٣٥) ع ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى رولان بارت ان ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان ندعيه لا بان يجعلنا نعتقد بما يقول ، بل يجعلنا نؤمن بما قرر قوله ، وهو يستعين في ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهبان بمناسبة كتابه « فى الشعر والفن والجمال » . « و أبو الطيب المتنبي » بسكنتا في ١٠ كانون الثانى ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : فى الأدب والنقد ص ٦٥ .

النقد بمقتضى المقياس الذاتى الصرف . « والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفنى ، والاجيال فى ذلك كالافراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه وأغراضه الفنية الخاصة . والتذوق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع انما هو فى رأى مثال أعلى ، ويجب ان يظل كذلك ما دامت عملية التذوق قضية اناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (ايليوث) فتكون السمة الاولى للدراسة الأدبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا كانت متكلفة وعاجزة او صادقة ومؤثرة . ولعل مبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتأثير انما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الأكبر فى توجيهه الى ذلك نذكر منها :

١ - ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ - اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الابداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى - بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الاول - فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانبا عظيما للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بالفاظهم .

المؤلف نفسه الاثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لوميتير) ، وعلى هذا يبنى نعيمة اساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقاييس والموازين « فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع ، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارئ ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بان نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بمهمة النقد والادب « والتذوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وابرار ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر الطلاء حيث يكفى القليل . ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الاجاز أوفى بالغرض وأوقع فى النفس . ولا يعظ حيث الوعظ بلادة . ولا يغالى حيث المبالاة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة ووجدان ، واهانة للفن الذى يجب ان يتسامى ابدا عن التملق والدل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد برك (٨٥) ويصر بان يكون الحكم على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) فى العاطفة ، أى

(٨٢) الغربال ص ٦٧ .

(٨٣) بدا النقاد - فى الادب الانجليزى - يعتبرون اهمية « الذوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ اواخر القرن الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الادراك الفريزى لخصائص العمل الفنى ، او الحدس بطبيعة النتائج وبقيمته . ولاشك ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لا يلجأ الى القواعد المقلنة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقا آليا . كما ان اعتبار الذوق المعيار الاخير فى تقييم الادب يعنى احلال العنصر الشخصى او الفردى ، أى شخصية القارئ محل القاعدة العامة التى كان يطبقها الناقد تطبيقا موضوعيا من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشأ آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٧٥٦ فكان اصراره هذا اول مناداة بطوق المذهب العر فى النقد الادبى . راجع فى ذلك : لاسل أبركرمبى : قواعد النقد الادبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلحظ هنا ان دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشرها واسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومصطفى لطفى المنفلوطى قبل هذه المرحلة .

٣ - لقد وصلت دراسات الأدب في القرون الوسطى الى جمود ، وعناية بالشكل ، واستفراق في التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبي وخرج تذوق النصوص من طبيعتها الفنية الى طبيعة البحث المنطقي او الرياضي ، فأصبحت همة الدارسين منصرفة الى بيان ما في النصوص من تشبيه واستعارة وإيجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، وأصبح الناشئون لا يتذوقون من روائع الآثار الأدبية الا معرفة اجزاء الاستعارة أو تقرير الكناية ، أو تمييز هذه الناحية أو تلك من المحسنات البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، في تشييد دعائم التأثرية في النقد العربي الحديث ، هو ، بشكل أو آخر ، من قبيل « الاحياء » للنزعة النقدية العربية القديمة . أى ان لهذا التجديد منطلقا في القديم . ولقد مر ما استفحل أمر النزعة التأثرية في النقد العربي ، قديما ، عم شيء من الفوضى النقدية حاول المرزوقي تصويرها « وزعمت » . . . فأنك مع طول مجالستك لجهاذة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين في انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤدبك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديته . حتى تجرد الشهادة في شيء منه ، وتثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد أن كثيرا مما يستجده زيد يجوز الا يوافقه عليه عمرو ، وأنه قد يستحسن البيت ويثنى عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظا ومعنى حتى لا

يخالفه ، فيعرض عنه اذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوى (٨٨) . فاذا بالحكم النقدي العنام يصبح ، في أساسه ، طبعاً واستعداداً متمكنين في النفس وقادرين على التمييز والابداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضي الجرجاني اذ يقول « وملاك الامر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الروية ، وجلته الفطنة ، وآلهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصوير أمثلة الحسن والقبح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تحليل استحساناتنا ، بل تندفع ايضا الى معرفة طبائع الاشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الاخرى ، على غرار ما نحا الامدى (٩٠) اذ يقسم الذوق الى ثلاثة اقسام : الطبع والحدق ثم جماع الاثنين أى الفطنة . من هنا فان « التذوق نفسه يستطيع ان يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورسائته ، ولا بد لكى يكون مكتملا من أن يدل على فهم « دائم » لفاية هى النتيجة الضرورية ، بل هى الغمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورسانة (بلا كمور) .

اما المعايير أو المقاييس الاخرى (والنسب) اساسها الذوق دائما (التى يعتمد عليها نعيمة في النقد فينبغي ، تسهلا للدرس والبحث ، ان نقسمها الى قسمين : واحد يتناول فن النقد

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده ص ١٢٤ .

(٨٨) المرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه (ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى مالم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى احتياج وهو علة مالا يعرف الا بالدرية ودائم التجربة وطول الملاسة وبهذا يفصل أهل الطلاقة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دريته ، بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطابع وامتزاج ، والا لا يتم ذلك ، واكثر بعد ذلك الى اختياره وما تلقى عليه فطنتك وتمييزه فينبغي ان تتم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الا من يحسن ان يتأمل ، ومن اذا تأمل علم ومن اذا علم انصف » راجع الامدى : الموازنة (ط المعارف الاولى ج ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤) .

اللاحياسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٢) فقول نعيمة اذاً على ايجازه على جانب كبير من الاهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الراى بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد الى المرتبة الخليقة به . واذاً على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فجعلته « اداها » فيكون النقد تحليلًا وخلقا أكثر منه صوغ احكام واطلاقها « فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذى ينقده غير الحافز والمشعل . اما النور الذى يلقيه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه غير الأثر المنقود (اناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى ، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشيط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لاتحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو (٩٧) لذا كان على الناقد ان يفهم الجمال ، والألوان المبهجة لاتصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والألوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

بعمامة ، وواحد يتناول العمل النقدي بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبيقي عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية أصول مذهبه فى النقد .

انه يرى أولاً ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩١) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتياً لا موضوعياً . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لان فقدانها لا تعوضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفاً فى ان كل جيل يختلف عن الجيل الآخر فى فهم الأدب ، ولذلك يأتى بمعايير خاصة ، والدوق الفنى المطلق مثل أعلى ...) . ويدعو ثانياً الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى الغربال أو الدائنين بدينه » (٩٢) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الأدبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه ان يجعل من المؤلف هدفاً له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به أو يشتمه . ولقد اسهب فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لأهميته ، ولكن نعيمة المبح الىه بايجاز ، ورأى ريتشاردز ان على الناقد ان ينحو جميع العوامل التى تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه أو وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارئ لا من القصيدة نفسها أو دقة الحس أو

(٩١) الفريال ص ١٦ .

(٩٢) الفريال ص ١٣ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسيني : النقد الادبي المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الآداب ص ٩ (١٩٦١) ع ١ ص ٤ .

(٩٥) الفريال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) الرجوع لنفسه ص ١١٧ .

فالحياة والفن والانسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آتفا . فاذا توقف النقد عند اديب ما او عند اى اثر ما ، فلا يعنى ذلك اعادة تأليفه فى قيمة ما بقدر مايرمى الى اعطائه المحل المتناسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتاح جميع عمله النقدى وظاهرته الاصيلية (لقد تأثر المهجريون بالأدب الغربى ولا سيما بالأدب الرومنتيكي الذى يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس فى بأسها ورجائها وحزنها وفرحها وصحتها ومرضاها وفقرها وغناها وآمالها وآلامها : فنزعوا الى الشعور الوجدانى الداتى وكرهوا الأدب التقليدى الذى لا يصدر عن شعور واحساس) . وهذه هى الخلفية الفكرية التى يصدر عنها نظامه النقدى . وهى نفسها التى يصدر عنها نظامه الادبى . من هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد للمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اى المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لا يتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين ع'ما من صدور الغربال » فى الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيته دونما تردد » (١٠٠) .

ولنا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على مايلدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبى بعينه لابعيونا وان نفهم منه مايفهمه هو نحكم عليه بحكمه . وفى هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبه بيننا وبين العمل الادبى بديل ان يقربه البنا .

الجسدية لها ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة (٩٨) فليس هم! نعيمة فى النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقه العقلية والاخلاقية والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغة . على اننا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل امام الآثار الادبية وحسب ،

بل هى تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التى تتأنى امام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلتزم الكيان الحي ، بأسره فى ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر مايكون الاثر الادبى كبيرا يكون شخصا (هاجس الناقد التأثرى أن لا يكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لان فى امكان الذاتية الفنية والنافذة وحدها ان تستنبش من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقائق لا يمكن ان تكون الا فردية ، اى لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير فى اعماق الشيء والنفس (فى كل شيء ينطوى العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفى كان منطلقه النقدى ، اذ الفن عنده - كما مر معنا - لا يعلمنا ان نرى فقط بل ان نكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقى الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبه وجسده . وهكذا فنعيمة لا يكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لا تكون الثورة الادبية فى أسلوب التعبير بل فى الانسان مصدر كل تعبير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا فى كل مانفعل وكل مانقول وكل مانكتب انما نفتش عن انفسنا (٩٩) والعالم هو جوهر نظامه الفكرى والادبى :

(٩٨) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) الغربال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

فاتجاه نعيمة في النقد لم يعتمد على التراث النقدي العربي القديم ، كما انه لم يعتمد التراث القريب ايضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتمثل في شكل او في آخر ، في محاولات ذاتية ، تعول على الموهبة وما تستعينه في استحضار نفسها . ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس ووثبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذي يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠١) اي ان العمل الادبي لا يقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها ») . من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقية صادرة عن هذه المبادئ العامة بالتأكيد ، ففي حديثه عن « اغاني الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لم يختار هذا الموضوع دون ذلك ، او لم يفنى هذا النوع من العواطف دون غيره ، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر في اثره ام اساء . المهم في الخلق ، عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « لينصعد وشيد أيوب من الزفرات ماشاء وليبك مادام في مقتلته دموع . فلا شأن لي معه في ذلك . تلك هي اوتاره ، وذلك هو أسلوبه في التوقيع عليها . والذي يهمني هو انه يحسن التوقيع (١٠٢) . ولعله ينطوي على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فيرى ان ازدهار الادب او تقهقره لا يعودان الى طبيعة

المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها او العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الادبي والنقدي . واذا كان الادب العربي اثنائ في فقر أو نقص ، لاي معنى ذلك انه في حاجة الى مقاييس ثابتة . فهي متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث أخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه وعن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التي صرح عنها مرة في الهلال « ان الشرق لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لا يكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا في الاخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل في ان تنهج منج الآخرين انفسهم وتسير في مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحریتك ») واذا كيف تزهو آدابنا وتثمر مادامت مقاييسها في ايد لا تعرف من الادب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التي تقيس الادب بعدد مشتركها ومناصريها واعمدتها) وخاصة في تلك المرحلة اذ هي دور انتقال (وهو من اصعب الادوار في الحركات الادبية) غرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر - ما ينجح في هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شأن .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التي يقيس بها الآثار المنقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارئ مقاييس عديدة

(١٠١) نعيمة : راجع جورج صيدح : ادبنا وادبنا في المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٦) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغاني الدرويش » لرشيد أيوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغريال ص ٧٣ - ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٢١) ج ٢ ص ١٢٨ .

(١٠٥) الغريال ص ٧٣ - ٧٤ .

عما وجدنا نحن من قبل ، وكأننا جميعا أدباء بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير إيجاد العبارة التي اعوزتنا (هذا ما يراه التأثريون) فإذا قوى احساس المرء بعمل أو قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمة هذا المقياس في جميع نقده فطبقه في «الارواح الحائرة» (الغريال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٥) والقروينات (الغريال ص ١٥٥) والريحاني في عالم الشعر (الغريال ص ١٦٣) وكثير من رسائله . . . فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه في مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثاره العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفي ذاتها من الاسباب الهامة في بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانين « وليس الشعر كله محتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى ان يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالي صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول في ذلك فانما يصدر عما كرره من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق . . . الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة ارث مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

يقيس بها الشعر والشعراء لست لأخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما انا الا عارض عليه ما عندي ، فلينبذه اذا شاء او ليقبله اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذي تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا في المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته ان يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، وما لا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبي يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، في شكل أو في آخر ، مبدع ضمن اطار ايدولوجي لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها أو ان يعدلوا فيها ، ان يرفضوها كلية أو جزئية ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . ولهذا ايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه : فاذا بقوا وحدهم مستفردين يظنون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبي

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فأول ما أبحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي اعنيه بنسمة الحياة ليس الا انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظور الذي اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة أيقنت انه شعر والاعرفته جمادا . واذذاك ليس ليخدعني بأوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترججة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة أخرى ، فان منطق هذا المقياس هو ان الشاعر يعبر

(١٠٦) (الغريال ص ١٢٩) .

(١٠٧) (الرجع نفسه) .

(١٠٨) (راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٥١) .

في مجمل نقده (١١٣) . اذ يقدر كالعقاد ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء » (١١٤) فما الذي يعطى الايات كيانها الشعري غير الرسم الجديد والفكر المبتكر والعاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذي يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين في تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قلبه والسبيل الذي اعتمده صاحبه في اظهاره « وانا حيثما اطل على الصدق والاخلاص في اى عمل أدبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناثر او الناظم اذا هو خاطبنى بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يبت افكاره واحاسيسه في قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التى فيها اسكب افكارى واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيرى حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو ان اعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى وبطمئن اليه وجدانى (١١٦) . فنعيمة لا يعبر الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من أية فلسفة فنية جمالية في ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التى راح نعيمة يطلق فيها آراءه النقدية ونتاجه الادبي لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق في

العواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعري او الادبي بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر في ذاته (في انه شعر) اذ ان نعيمة لا يقيم كبير شأن للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبي شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لفرض آخر ، يبرر وجوده ، الا وهو ، « الافصح عن الحياة اى عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية . (١١٠) ولا ضير في اى اسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما ابواب الادب الا اساليب (راجع «الريحاني في عالم الشعر » : الفريال) حيث يؤكد ان ليس من آفة في ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذلك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاول الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او أن الشعر يفضلهما لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطأله شعرا يعتبر العنصر الثانى في تمييز الاثر الادبي من غيره « باتساع مداه ، بعمقه وعلوه وانفراج أرجائه » (١١٢) في الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه

(١٠٩) الفريال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الفريال ص ١٢٩ - (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الفريال تبينا لذلك ص ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الفريال ص ٢١٢ .

(١١٥) الفريال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا فريال .

القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن أى اعتبار مادي آخر كالجنس ، أو المذهب أو غيرهما لقد جمع (عمر فاخوري) الى سلامة اللفظة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وأفكارهم اينما كانوا ، ومن أيما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . ومن المعروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التمييز الفطرية .

قضية الشكل

اما العنصر الثالث فهو ثوب الاثر الادبى الخارجى ، أى دقة تركيبه وحلاوة رنته « وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجى ، عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة لوانه وما أشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان « الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ، والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كيانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن فى صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعى الذى يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة اخرى . ثم ان الكاتب كما أشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير ان نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

المبحث الفنى الاستطيقى الجمالى ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضاياها لم تكن لتنجو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبى الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التى تمتد فى فكر القارئ ووجدانه اثناء التعرف عليه . أى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التى تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمته فى مدى صدق الناقد واخلاصه المتفانيين لانهما « سر الابتكار والابداع عند الأديب » (١١٧) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للآثار على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الحميمة بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتائج قبله سبقتة ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو ، عندنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء فى المفهوم النقدي عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما أعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الى الجانب التقييمى ، أى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى - خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل - الى هجير حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية . فكان اذا ثمة تدرج منطقى وطبيعى فى منهجه ، فتطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللفظة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هى المنشودة لذاتها ، بل

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخوري أديب وانسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) القربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

القراءة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات في الموقف النقدي ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير في خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهي حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام اى ظاهرة ، فاقصرت محاولة احياء الروح في العمل الادبي بكثرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لايقدر فنا ولا ادبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه من الآفاق الجديدة ، وهو لايرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الأعلى وصاحبه في آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباهها في نقد الأثر الشعري هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتفتح له براعم الحياة فى داخله (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف أمام الأثر الأدبى - وخاصة الشعري - يقيس نفسه به حيناً ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها عهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التي صدر عنها . وهو فى كل هذا يعرف ظاهرة « الاتحاد الفنى » حيث تفنى الذات فى الموضوع ، فاذا به يقترب كلياً من ابن قتيبة فى حكمه النقدي « أشعر الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكب فيها من روحه لعلمه ان جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه (١٢٦) ذلك لانه باعتبار منطلقه الفلسفي والادبي كما بينا يعتبر بوحدة واحدة فى الجمال والكون . فكيف لايعتبر فى النتاج الادبي ومقياسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان اى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق فى الموقف اذا : بدليل ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما فى النقد القديم) فان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد فى جمال المحتوى . يضى على ماهو موجود شيئاً ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هى فى الحقيقة ، اساليب متنوعة للابداع الانسانى الواحد . ويقرب هنا كثيراً من نظرية تولستوى فى الفن التى تقول بان الفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركات والخطوط والالوان والاصوات والاشكال المعبر عنها بالكلمات . اى لابد ان تكون هناك فكرة جديدة تهتم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيراً ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفنى قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٧)

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الآداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فاتحة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الفريال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

يجعلك تعيش في شعره فتكون أنت هذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية » (١٢٦) بينه وبين الشاعر .

السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على أمرين :

أ - اذا كانت الرواية مشهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

آراؤه في فن الرواية :

الا اننا نشير أخيرا ، الى أن هذه المقاييس النقدية عند نعيمة ، وإن اقتصر في معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فرأى انها تحتاج « عدا الفكر المعلن والمحلل الى يد المتفنن لابرار أشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدتها على فكرتها الأساسية (١٢٧) . فتتطلب ، بالتالى ، خبرة فنية تقدر على الملاءمة ومراعاة أصول هذا الفن . فالروائي الفنان اذا ما خلق شخصين أو أكثر نوع الأغراض التي يرمى اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . أى أن التأليف الروائي ليس كتابة مقال ثم يأتى للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل في سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشخص في يد الروائي كالحجر في يد المثال يخلق منه ما يشاء ، والمثال الماهر ليس كالمرايين الذين يحسبون - كما قال فيهم يسوع - أن بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة أزميل مثلما قد يخلق المصور العبقري آية من الحسن بلمسة ريشة ، والكاتب الفنان أفقا من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، أن مقياس جودة الرواية هو في القدرة على التأثير (كما في الشعر وسائر الفنون الأدبية) في

ب - اذا كان الممثل قادرا على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الأفكار وتأدية تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات (١٣٠) . فالرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكل الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقاد عليه من عدم اعارتهم أى انتباه لهذا الفن . فافرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب القربال (وهى نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلوح بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) أو قصص موضوعة (العواطف لجبران) ... وهو بذلك يتقدم على سابقيه أو معاصريه من النقاد . لأن مجمل تلك المقاييس التي حاولوا أن يؤكدوها (العقاد ، المازنى ...) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرف الا الى فن محدد منه هو الشعر الغنائى المتوارث من القديم « وأخذ نقادنا ومفكرون يقتتلون حوله خلال الربع الأول من هذا القرن بل الى سنوات بعد ذلك ، مغفلين فنونا أخرى أخذت تظهر في أدبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشعرية ، وفن القصة والافصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا تكاد نعثر على آراء فيها وفي

(١٢٦) نعيمة : مقدمة ديوان الجدول لابي ماضي (٢١ حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) القربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كرم عن روايته « المصدور » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) القربال ص ٣٢ .

واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود .
ولكم يذكر حكمه هذا بقول ايسن « اذا اردت
الكتابة فانك تستدعى نفسك الى محكمة انت
قاضيا » .



المنهج الانطباعي :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعي
أو الموضوعي أو العقائدي أو اللغوي أو
الجامعي ... واما كانت مقياسه الذاتية أو
العلمية أو التاريخية أو الفنية .. يبقى له
منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ،
أى هو يعتمد اصولا معينة في فهم الادب ، وفي
بيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير
ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل أدبي ، الى
مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجمد بذلك شخصية
الناقد ، وتعطل عنده حساسية التدقيق
الذاتية ، القدرة على اكتشاف القيم الخاصة
في كل اثر أدبي بذاته . من هنا كان من الخير
للادب أن تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل
الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى
هو شغل الادب لا يختلف من هذا القبيل عن
أى بناء (١٢٥) . أو ليس كل اثر هو نتاج
شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة
لا تكرر عند فنانين بل هي لا تكرر نفسها في
نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره
والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة
لأنهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار
أخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدي ، عند
ناقد معين ، صادرا من نوع مقياسه ؛ بل هو
كيفية عرض لها .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، واذا
كان نعيمة يمس بعضها حيناً ، فانما كان ذلك
من قريب ، حيث انك لا تجد تحرياً لوضع
اصول مترابطة في هذه الفنون ، بل خطوات
تتولد من جراء التعليق على قصة أو التمهيد
لرواية ...

هذه هي أهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة
في نقده ، وهو يرى أن الأمة المتيقظة بحاجة الى
«تقويم» مفهوماتها الأدبية ، وتعديل مقاييسها
وموازينها الروحية باستمرار (١٢٦) ان النقد
في تحد مستمر لأنه في نبض مستمر . فعمل
الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد في كل
مرة ، لأنه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء
والحقائق لتبنيها . ولكل حقيقة نمط تظهر
به . واذا كان يؤكد بأن للزمان غربالا اين منه
غرابيل الناس ، أو ان الحياة للحياة وحدها
القول الفصل والحكم الاخير (١٢٧) لا يعنى
ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان
الناقد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة »
تسيران بالناقد أو بالمبدع الى النضج (للزمان
فعل كبير في تطوير الملكة الشعرية عند
الشاعر (١٢٨) لان المقاييس النقدية ، بالتالى ،
غير منفصلة عن الحياة أو هي من خارج الحياة .
من هنا كان الشاعر في حاجة الى غربال ، لكنه
يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٢٩) .
على هذا تألف جميع الظواهر : الادب
(الاديب) - النقد (الناقد) - المقاييس
النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين
الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها
في الحقيقة وجوه متعددة - مظهرا - لشيء

(١٢١) الغريال ص ٢٠٨ .

(١٢٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٢٣) راجع الغريال ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٢٤) الغريال ص ١٦١ .

(١٢٥) دروب ص ٥٤ .

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقناع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقناع الا بالحجة (١٣٦) . والسبيل الى ذلك يتحصل عن ضبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومتانة ترابطه بعضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكان هذه العناصر حلقات في سلسلة واحدة (١٣٧) تقوم على التبسيط والوضوح الى اقصى حد ، فهو عندما يخاطب القارئ تراه ينتقل به خطوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقناع وفعله في العقلية المتحجرة السائدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى اليه (١٣٨) .

وهو من منطلق الاقناع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « القريلة » يتبين لنا ان منهجه في النقد منهج تأثري ذاتي (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية ...) أي هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهي الى خلق أدبي مبتكر . « اجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشد القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائره ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه أوسخ قدمنا في علم

« انتهيت الساعة (من « منشود ») ويسرني ان اتقل اليك بغير إبطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفسي فقد راقني تصويرك للأشخاص... مثلما راقني ما أجرته على السنتهم ... » (١٤٣) .

واذا هو منهج انطباعي تأثري ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التي تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فإذا لم تتوفر لا يمكن كتابة أي نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدي بالتعريف

(١٣٦) الغريال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر الغريال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو النهج الذي اتبعه بوضوح كبير في مقالته « القريلة » راجع الغريال ص ١٢ - ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) الغريال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشور كما يراه نعيمة » راجع الحكمة ص ١٩٥٥ ، ج ٥ ص ٥ .

العمل الأدبي بسيرة الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحذو في ذلك حذو سانت بوف ، الناقد الرومنسي الكبير ، في منهجه الذي يتلخص بالعناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف أساساً لفهم ما يكتب ولنقده « ليس الأدب - أى الإنتاج الأدبي - منفصلاً في نظري عن الإنسان ، فباستطاعتي أن أتذوق مؤلفاً أدبياً ، ولكن من الصعب أن أحكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لأنه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودني الدراسة الأدبية إلى الدراسة الإنسانية قيادة طبيعية (١٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه أن راح يتطلبه ليس في الدراسات النقدية البحتة وحسب بل حتى في كتب « المنتخبات » أو ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب أحدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة في كتابه ، ويقول « تمنيت لو أنك أوردت فلذكة عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارئ العربي الذي لا يعرف شيئاً عن أولئك الشعراء والذي يطل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لأن النقد الحق (يتكون - كما أجده - من دراسة كل شخص ، أعني كل مؤلف ، أعني كل ذى موهبة ، حسب أحواله الطبيعية لكي نقيم له وصفاً حيويًا حافلاً ، حتى يمكن أن ينزل - فيما بعد - في موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

بالأثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيراً بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر أو الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، في رأيه ، صورة المنقود ، في أكمل وجه ، ثم يتحدث من ثقافته وتعلمه ذاكرًا أول اطلاقاته الأدبية (أين ومتى) ثم ينتقل إلى القسم الثاني وهو دراسة مؤلفات (أو مؤلف واحد بعد ذكرها جميعاً) (١٤٥) . أى بإمكاننا تذوق النتاج الأدبي دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالي ، فإن نعيمة يحاول أن يلم ، في طريقة للفهم ، بكلية الأديب في شكل مؤلف . فما يهمه من النتاج ، أولاً وأخيراً ، هو اكتشاف الإنسان وراء الأديب أكثر من اهتمامه بالفنان . أن الأثر الأدبي وحده ، منفصلاً عن صاحبه ، ومعتبراً لذاته ، ليس هو غرض نعيمة في البحث . وهكذا ينتهي إلى النقد الأخلاقي الذي عرف في أوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاره « أن جمال الأثر الفني يجب أن لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذي نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . أى ليس للأدب قيمة أو جمال إلا باعتباره شهادة للإنسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الإعجاب بالنتاج الأدبي إلا على أساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حققة وسليمة . وكان Villemain (١٧٩٠ - ١٨٧٠) أول من أراد أن يشرح

(١٤٤) انظر الفريال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى عملاق الروح واقلهم) برسائله غوركى من القاع ، إلى القمة إبر ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخوري الفنان) المنشورة في الرسالة ١٩٥٦ ج ١ ص ١ ، ومجمل رسائله الأخرى .

(١٤٦) راجع فان تيلم « المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا » ص ٢٢٠ .

(١٤٧) سانت بوف : احاديث الاثنين الجديدة ج ٣ : مقال عن شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة إلى صاحب « قصائد من الأدب الأجنبي » توفيق اليانجي ، الأدب ١٩٦٢ ج ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستانلي هايمن : النقد الأدبي وممارسته الحديثه ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

إذا انتقل الى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع فى عرض مقاييسه « قلت فى مقدمة الكلام ان أول ما اتطلبه من الشاعر هو المدى - مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثم اتفحص قوالب شعره الخارجية . اما المدى فليس من ينكره فى شعر (نسيب عريضة) ... وأما قوالبه ... (١٥٠) . وتراه فى معظم الأحيان ينهج فى أحكامه نهجا فحواه « ضربة على الحافر وضربة على المسمار » ، فكلنا ذكر الرديء ذكر الى جانبه الجيد فى آن ، وعن قصد ، ويكفى ان نتمثل هنا ببعض ما جاء فى نقده « للدرة الشرقية أمثال كثيرة من ... الوصف السطحي الذى لا يحرك فكرا فى رأس ولا يرسم صورة فى مخيلة ، ولا يهيج عاطفة فى قلب . غير ان فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين آيات جاءت حشوا ، فبان كضمة من الزهر فى حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيئ التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك فى القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع فى بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك أمره او يتدبر عمله النقدي ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك فى النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار فى أمره الناقد وسدت فى وجهه السبل . فلا حول ولا « (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدي يقوم على التنظيم ودقة

التصميم ، والمنهجية ، وليس هو مجرد خطرات متباعدة أو متناثرة ، اساسه التحرى النفسى . وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد فى منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وأمانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب فى خبراته الادبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزهه التأثيرى ، بكل تأكيد ، اذ « تقول التأثيرية على « الربط » فاذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها ... الى اشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص ، ويحكى المتلقى فى وصف العمل الفني مؤثرات نفسية (١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقى لسلطان الذاكرة واحكام التداعى (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الاديب الواحد لينتهى الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان « المقابلة » والتحليل هما فى رأى ايلييسوت ، عدنا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشريح المنقود وتفسيره تفسيراً مستمدا دائما من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيسد بعض الخلل الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلا فى النقد لا يعنى ، عند نعيمة ، الانتهاء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقلين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحد منهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك أو ذاك على ذلك - وقد يكون فى مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقارئهم » اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي ألف مرة ومرة . وتركت

(١٥٠) راجع الفريال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الأرواح الحائرة » فى الفريال ص ١٢٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) الفريال ص ١٦٤ .

يحكم بأن هذا البيت من الشعر أو ذلك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذلك أو أن هذا الشاعر هو أحسن شاعر في هذا الفرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاد لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغت قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الأحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، أيضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانها في مجمل أبحاثه النقدية النظرية والعملية . فكأنني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه أرقى . وأكثر مواضع هذه الظاهرة بروزاً عنده في مقالاته «الحباحب» (الغريال ص ٣٧) والدرّة الشوقية (الغريال ص ١٤٦) وابتسامات ودموع (الغريال ص ١٨٣) ومستهل «أغاني الصبا» (الغريال ص ١٨٩) . وأماكن أخرى . ولكم كان موفقا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى أن تمس مسأ . فهو هنا لا يقل جودة وفنا عنه في رصائنه واتزانه . فيصقل تأليفه لتكشف منه خواطره الحية . وارانى مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملح عنده ، فيقول في «الدرّة الشوقية» (قصيدة

للقارئ المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقدير الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنهما في سطره وبين سطره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات وكمثلهم النقاد ، وما يصح أن يقال في الواحد منهم لا يصح أن يقال في كلهم « كما أن الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان أحيانا ، بنتيجة هذه المقابلة أو المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدامي في موقف يطلق فيه « الأحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري التحمس . فبعد أن يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت ارق وادق وأبدع من هذا الوصف (١٥٨) . أو يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من أبرع الفنانين كان يستطيع أن يرسم .. صورة أوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... و « الفاية في الإبداع .. » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منهما (١٥٩) . أو تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على أنه « أجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الإطلاق ... (١٦٠) . كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي (وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك أن الناقد كان

(١٥٦) الغريال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغريال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة - عمر فاخوري اديب وانسان ، راجع الطريق ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : عمر فاخوري الفنان ، الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « القرويات » في الغريال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغريال ص ١٢٧ .

ولكن هذا التهكم لا تجد له اثرا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم ، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبع ويبكت . ولا يتهكم ، واذا تهكم فلا يبتسم (١٦٢) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، التي لا تكون الا مع الانسان ، الذي هو أعظم من الزمان والمكان (١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحتها ، وبالتالي ابتعاد عن التسليم وانصراف الى التأمل - من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١٦٥) ، بل اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات (الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ، فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق شعورى وفنى .

لاحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال) مرتفعا بالهزء في تصاعد مستمر مبطن « لقد سمعت » بدر « شعرية كثيرة ولما عملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لما . . . ولولا ما للهلال عندى من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفنى والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عيني منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ أيامى المدرسية ان اصدق مايقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رأيتة يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة . . . ووقفت قليلا لاثأكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية . . . (١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدى ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى النقد البانى ، يحلل ويدقق في أصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هنداوى الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب القربال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذى تريد ،

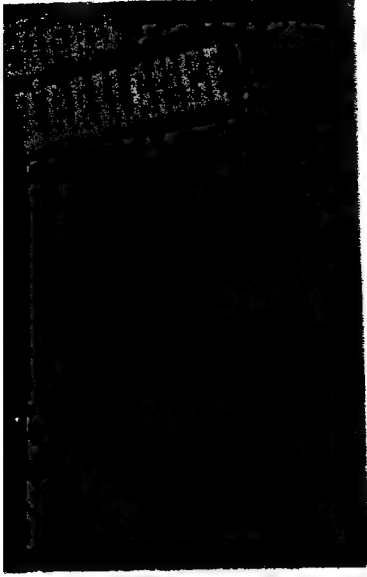


(١٦٢) القربال ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١٦٣) خليل هنداوى : التصوير والنقد والفن عند ميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، ه كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماهول » من كتاب هوامش (بيروت دار صادر ١٩٦٥) .

(١٦٥) هذا هو المنهج النهي في النقد وقد اتبعه فيما بعد محمد منور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧-١٩٧٢

عرض وتحليل: الدكتور أسعد عبد الرحمن

كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت في الوطن العربي ، سواء في شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين أو اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الاسرائيلية الثلاث الاولى .

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولا : بتسلسل منطقي وزماني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارئ عبر أحد عشر فصلا دونما أي تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذلك التنسيق عندما نعرض للمادة المتضمنة في الدراسة . وفي هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسي الأول في هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » . حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف في ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل أبحاثا محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية أو أهلية ، تغطي شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الأرضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب العصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسى » و« الجيش الاحمر الصينى » كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرق الاجنبية الافرנסية » بالاضافة الى سبعة

المامة ، وبالتالي ، وفي كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على أن ذلك لا يعنى أن الدراسة خالية من الأخطاء الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لأبرز هذه الأخطاء الجانب الرئيسى **الثانى** فى هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت فى معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها أقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية - الصهيونية - الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض أوضاع المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسى **الثالث** فى هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف **الفصل الاول ، « عبادة الفدائيين »** The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدأ مع اسدال الستار على أحداث الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى فى العام ١٩٤٨ . فيشير « أوبالانس » الى أن غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت فى مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقي الحال كذلك الى أن بدأت الجبهة المصرية - الاسرائيلية بالانتهاج فى العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما أدى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى فى غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقي الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمط الجبهة الاردنية وأدى بالتالى ، الى حرب السويس (الحرب العربية - الاسرائيلية الثانية) فى العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبى

(٢٠ - ٢١) . الا أن هذا التوقف فى الهجمات والغارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل فى العقل الفلسطينى . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا أساسيا من أجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » فى العام ١٩٦٤ ، فإن الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى - فتح » اثر مباشرتها النضال المسلح فى مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ - ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تأريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها فى الاشهر التى سبقت حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧ - (٢٩ - ٣٤) .

فى الفصل الثانى « السمكة والبحر » ، يوضح « أوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربى كما تجلى فى لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائي (٣٦) . وبعد أن يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « يقرر » فشل العمل الفدائي فى تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضى المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعد لها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢ - ٤٣) . وقد تمثلت قمة الغارات الاسرائيلية الانتقامية فى « معركة الكرامة » التى منيت بها الفطرسية الاسرائيلية بضربة موجعة ، فى حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطينى الجديد فى العمل الفدائى الفلسطينى

« الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط أنابيب التابلاين (٧٨ - ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى اعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الاقصى في ٢١/٨/١٩٦٩ (٨٢ - ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ - ٨٥) . وأخيرا لا يفوت المؤلف الإشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة في « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التي اندلعت فيما بينها (٨٨ - ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح في الفصل الخامس « أرض فتح » العوامل التي أدت الى بدء تركر العمل الفدائي في بعض مناطق جنوبي الجمهورية اللبنانية (٩١ - ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والازمات التي حكمت العلاقات الفلسطينية - اللبنانية (٩٤ - ٩٦) والتي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ - ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول - اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت - عبر الوساطة المصرية - الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ - ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل «حادثة الكحالة» (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرقوب (١١٠ - ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب في الجبهة السورية - الاسرائيلية (١١٤ - ١١٥) .

(٤٦ - ٤٧) ليس في مواجهة اسرائيل فحسب بل وفي مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨) .

يركز المؤلف في الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمرحلة الاولى من العمل الفدائي العلني (٥١) ، شارحا التزايد المستمر في اعداد رجال المقاومة وكيف مكنهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلني وتحسين أحوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ - ٥٣) ، محاولا - بدون نجاح كبير - شرح موقف الاتحاد السوفياتي من العمل الفدائي في تلك الفترة (٥٦ - ٥٧) ومثبتا ازدياد مكانة المنظمات في الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقي المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ - ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ - ٦٥) . وينتهي هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التي ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان أبرزها الهجوم الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت (٦٨ - ٦٩) .

أما الفصل الرابع « تعاظم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته في العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ - ٧١) وتحقيق بدايات في الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة احد اكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ - ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابي - حسب اعتقاد المؤلف - من قبل الاتحاد السوفيتي من جهة ثانية (٧٦ - ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا في عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطيني في بلدة

لواجهة بات وقوعها امرا متوقعا ووشيكا
(١٣٥ - ١٣٦) .

وفي الفصل السابع يستعرض المؤلف
التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطات
الاردنية والفلسطينية وصولا الى انفجار
« الحرب الاهلية في ايلول - سبتمبر من العام
١٩٧٠ » . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب
الملك حسين الذي أعلن فيه موافقته على بادرة
روجرز (١٣٧) . وفي تلك الاثناء ، قامت
« الجبهة الشعبية » بتنفيذ سلسلة من العمليات
التي استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان
المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عرف
باسم « مطار الثورة » (مطار داوسون المهجور)
باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبنان أميركان
والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على أرض
مطار القاهرة (١٣٨ - ١٤٠) . هذا في الوقت
الذي بدأت فيه الاشتباكات المحدودة بين
الفدائيين والسلطات الاردنية تزداد قوة
وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى
بلغت قممها باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧
ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ - ١٤٥) .
وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية
(١٤٥ - ١٦٠) لشرح أدق « التفاصيل عن
معارك ايلول بما في ذلك الدعم السوري
للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولي بين مؤيد
لهذا الفريق ومؤيد لذلك (١٥٠ - ١٥٣) .
وبقى الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر
الطاريء للرؤساء والملوك العرب ، والذي عثل
الاردن فيه البريجادير محمد داوود ، الذي عين في
وقت سابق رئيسا للحكومة العسكرية التي
أنيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣) .
وفي مرحلة لاحقة ، واثرا لايقاد مؤتمر القمة
الرئيس السوداني (جعفر النميري) الى عمان
نجح المؤتمر في اعلان « اتفاق القاهرة » بين
عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى
العاصمة المصرية أثناء احتدام المعارك في الاردن
(١٥٤ - ١٥٥) هذا وقد أعقب ذلك اتفاقية

وفي الفصول الثلاثة التالية يعود المؤلف
بالقارئ الى الساحة الاردنية ، فيشرح عبر
تتابع زمني الاحداث التي شكلت « مدخلا الى
الحرب الاهلية » (الفصل السادس) مركزاً
في الفصل الذي يلي (السابع) على وقائع
« الحرب الاهلية في الاردن » ومنتهاها (في
الفصل الثامن) الى « هزيمة الفدائيين في
الاردن » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضا
وافيا بسلسلة العمليات التي قامت بها
« الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في أكثر
من مكان خارج الشرق الاوسط ، والتي
تضمنت بالاساس ، خطفا لطائرات متنوعة
الجنسيات ، وهجوما على أكثر من مطار في
أوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧ -
١٢١) . وفي تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية
الفلسطينية تزداد تشنجا واقتربا من درجة
الصدام الحاسم ، الا أن الملك حسين عرف -
أكثر من مرة - كيف يحنى رأسه للرياح
الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية
بينه وبين الفدائيين وكان ذلك كله مدعاة
لاستياء القبائل البدوية ومعظم قطاعات
الجيش (١٢١ - ١٢٢) و (١٢٧ - ١٢٩) . وفي
هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت
الاتحاد السوفياتي والصين وفيتنام (١٢٣ -
١٢٤) في حين كانت الهجمات على اسرائيل
متصلة وكذلك الفارات الانتقامية الاسرائيلية
(١٢٥ - ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين أطراف
الصدام الثلاثي الجوانب (الفدائيون -
اسرائيل - الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ،
وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته للسلام
والتي وافق عليها عدد من الرؤساء العرب
كان في طبيعتهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك
حسين (١٣١ - ١٣٣) . وكانت الحصلة أن
ساعت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن
فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضا ،
وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه

وجودهم على الاراضى الاردنية في حين استشهد أبو على اباد ، أحد أبرز قادة فتح (١٧٩ - ١٨٣) واثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربى المشترك في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة قام بعض انصار أبو على اباد باغتيال وصفى التل الذى كان يمثل الاردن في ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقداعلن الفدائيون انتماؤهم الى منظمة جديدة حملت اسم « ايلول الاسود » (١٨٥ - ١٨٦) . اثناء ذلك ، كان الوجود الفدائي في لبنان يتعزز يوميا بمن يفد اليه من الساحة الاردنية (١٨٩) في حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية في المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقى في الساحة الفلسطينية أية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص للحديث عن صعود وتمايز غزة ، ذلك الصعود الذى منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذى جعل غزة مختلفة عن باقى المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلى . ويذكر « أوبالانس » ان البداية في النضال الحقيقى جاءت مع نجاح كل من فتح والجبهة الشعبية في الوصول الى غزة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكرى مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى ائنف الوسائل (المطاردة والقتل ، نفس المنازل ، حظر التجول . .) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال فحسب ، بل وضد كل الافراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر ايلول - سبتمبر على تصاعد العمليات في القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الاسرائيلى آنذاك ، اأقيام بتنفيذ

اخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليعتزلوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفى التل (١٠/٢٨/١٩٧٠) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن « هزيمة الفدائيين في الاردن » فيستعرض شريط الاحداث التي اادت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسليم أسلحة الميليشيا في المخيمات ، بالاضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين في احراش جرش وعجلون الى خارج الاراضى الاردنية وكل ذلك تحت سمع وامام ابصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦) . ويعتقد المؤلف ان ما كشفته « هزيمة » الفدائيين في الاردن يتلخص في افتقادهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة (١٦٢) . ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية في تقليص عددها من أحد عشر تنظيما الى أربعة او خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات في حركة فتح (١٦٣) ، الا ان موجات النقد والنقد الذاتى ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » في موقفها المتصلب الرافض تسليم أسلحة الميليشيا واى صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا أن الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل - عبر ما أعلنه مسؤولوها - ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بادر اى طرف (المقصود سورية والعراق أساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاظم القتال في شهرى أيار - مايو وحزيران - يونيو وبلغ قمته في تموز - يوليو حيث دارت معارك عنيفة في جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها

وأخيرا يلخص المؤلف في الفصل الحادي عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل » الافكار الرئيسية الواردة في الدراسة مستنتجا أن العمل الفدائي « فشل في تحقيق » هدفه فشلا كليا » (٢٢٩) اذ أن اسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التي احتلتها في العام - ١٩٦٧ . ويعزو «أوبالانس» ذلك « الفشل » الى : عدم فهم الفدائيين العرب لاصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها ان ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية - يمكن ان تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ - ٢٣٢) .

الجانِب الثاني : أبرز الأخطاء

تعانى الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الأخطاء ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع ان اغتياله كان يوم ٢٠ تموز - يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست في المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهانى الحسن و خليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !! وفداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الإشارة ، اذ أن منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوى المستوى العادى من الاطلاع . ثم ان « أوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهى إحدى الوحدات التابعة « لجهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

حملة واسعة للقضاء على « الارهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ - ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى أماكن أخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ - ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف للفصل العاشر عنوانا له مفزاه الكبير : « الجمر يخبو » وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعانى حشرات الموت ! فالفدائيون طوردوا الى خارج الاراضى الاردنية ، وقيدوا في سورية ، وهم في طريقهم لان يحاصروا في لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق واساليب جديدة : مزيد من خطف الطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزيد من « قتل الرهائن والاغتيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء حملة الرسائل الملقومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن الهجوم الاسرائيلي الكبير الذى تعرضت له الاراضى اللبنانية ، طوال أربعة أيام في شباط - فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذى اختتم بدخول الجيش اللبنانى الى المناطق التي كانت القوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتي كان الفدائيون قد انسحبوا عنها اثناء المعركة (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية - الفلسطينية ، وعن الازمات التى مرت بها تلك العلاقات ، والاتفاق الذى « جمد » الفدائيون بموجبه نشاطاتهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٢) .

أن أحدهم ينتمى الى فتح في حين ينتمى الآخرون الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم أن القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (أبو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، و ابراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومي وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » أكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلاً ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع أن الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه « يقصد حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعاً من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما أنه يقول أن الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع أنها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائياً عنها . ومن أندح الأخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائداً في قطاع غزة » مع أن عمل الدكتور حداد - كما أثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٩ - لم يكن في غزة فحسب ، بل وليس له أية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشئ ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور أنيس صايغ ، وهو شخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديراً لمركز الأبحاث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود أوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذي سبق وأن صنّفه « كقائد في غزة » (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وأنه التجأ « طلباً للامان » الى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!! كما أنه في مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتاراً ازاء الجهة التي قادت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلم أن « الجبهة

ومن الامثلة الأخرى على الأخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في « ص ٥٣ » بأن حزب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا أساس لها من الصحة ، إذ لم يعتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في أي عام آخر . ولا يضاهي هذا الخطأ في المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية في فلسطين » (٧١) ، وقوله بأن أحمد جبريل الأمين العام « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (٧٢) ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » . ولعل أوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها مالياً (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر أن علاقات « الشعبية » مع الملكة السعودية كانت دوماً علاقات قطيعة كاملة . هذا وتكرر الشواهد على تشوش « أوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » التي يرأسها أحمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الأخطاء عند هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ مشيراً الى

ويبدو أن المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة أحيانا . فإن يجعل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز أن تمر ببساطة ويجب أن تفهم ، ضمن سياق المغالطات التي يمتلئ بها الكتاب ، على أنها محاولة اطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف في عرضه عند العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونخ على وجه أكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنما يقصد به ان يترسخ في ذهن القارئ ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه - أي الحدث - مثل - « بداية جديدة » في العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » أو يتناسى ، ان يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص على ان تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « فشلت كليا » وبدأت مرحلة « انحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقدر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » أو « بداية ليقظة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٤) .

كذلك يقرر « أوبالانس » - ولا ندرى ان كان ذلك ناجما عن سذاجة كلية أو تساذجا

الشعبية « والجيش الاحمر الياباني » أعلننا أكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

الجانب الثالث : أبرز المغالطات

على الرغم من أن كاتباً عربياً واحداً على الأقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأي العسكري « (١) فاننا نبدي تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب ، « ان بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وان كانت قليلة ، قد تضلل القارئ لاسيما الغربى ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة » (٢) ان هذا القول في رأينا هو اضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز « أوبالانس » . وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، أقذع العبارات وأشدّها للهجوم على العرب ، دائماً قصدنا القول بأن كتباً مثل كتاب أوبالانس ، واسلوباً مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطراً أكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالى تحيزاً افدح من زاوية قدرته على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » المغالطات بشكل هادئ ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة والبراءة ، هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هي احكام جائرة وغير صحيحة للقارئ لاسيما الغربى « - كما ذكر اعلاه .

(١) انظر مراجعة الاستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٤٣ ، آذار - مارس ١٩٧٥ ص ١٥٣

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية - بقدرة قلم المؤلف - الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨ ، ٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فأمر يحيط به - وفقا لأمانة « المؤلف - غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بأن العربي انسان لا يهتم الا « حبه الفردى للحياة وتحسين وضعه المالى » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (٢٣٠) .



وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارئ ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع - وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجى للدراسة - الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

١ - ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ - ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثوى مع الجيش الاردني ؟

٣ - كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح » في لبنان ؟

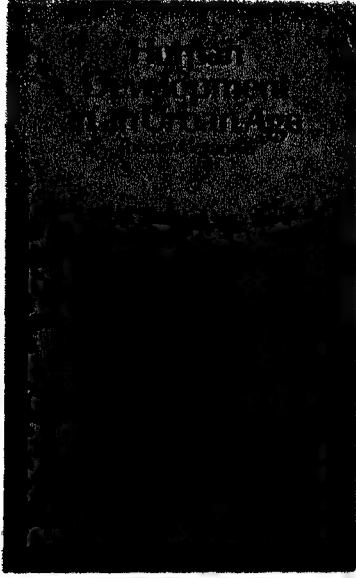
متخابثا - ان « الفرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي أدى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف - هكذا وبكل بساطة - يتجاهل دور اعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول - في نظر « أوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . أيضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من أبناء العروبة ، او كأنما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضى المنزوعة السلاح هو الذي أدى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . أيضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارئ بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٧٦ ، ١٢٣ ، ٢١٢) . ثم ان الكذب - حسبما يقول « أوبالانس » - يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو

٤ - ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها؟» .

أي عبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

٥ - وكذلك - والكلام للناشر - يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ، ويستقرئ الماضي ، ويصف الحاضر ، ويعالج المستقبل » .

وعلى سعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه - بتواضع يعكس الحقيقة - بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني - كما رأينا - من كثير من الأخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .



النمو الإنساني في عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض وتحليل: الدكتور سميح يعقوب القطب

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنتس هول في بلدة انجلود كليفس بولاية نيو جيرزي بالولايات المتحدة ، وقد سجل في مكتبة الكونجرس الامريكى . ويقع الكتاب في ٣٢٣ صفحة بما في ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التي استخدمت في فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا أى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف قروء علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة اجزاء ، تضمن كل جزء عددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل أن يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة في البحوث والدراسات التي تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر في نظريته الى التطور الانساني من دراساته في العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية في جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس في كليات الآداب والطب والتربية في الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل في اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو في الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف في الجمع بين مبادئ النمو والاضاع الاجتماعية في المجتمع المعاصر .

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما فى ذلك المراجع .

يتناول الجزء الاول بيئة الانسان ونمو المدن
وقطرة الانسان على تطوير بيئته . وفى الجزء
الثانى يناقش المؤلف اعداد الفرد للحياة فى
مجتمع المدينة الذى يتميز باختلافات فى الثقافة
وانماط الحياة فى هذا العصر . ويعالج الجزء
الثالث النمو الانسانى فى مجالات الذكاء واللغة
والابداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية
والوراثية . ويتناول الجزء الرابع النظريات
ونتائج البحوث والدراسات فى مسائل التعلم،
والحوافز والاحاسيس عند الانسان . اما فى
الجزء الخامس والاخير فينحو المؤلف منحى جديدا فى دراسة النمو الانسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات فى ثلاثة اشياء : **الأول** ، ينظر المؤلف الى نمو الانسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الايكولوجى للكرة الارضية . **والثانى** ، تربط النمو الانسانى الى اوضاع مجتمع المدينة فى الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . **وثالثا** ، ترود القارئ باتجاه جديد مفاده أن مبادئ النمو يجب ان تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التى يكتسبها الانسان فى النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالي يتحدد دوره فى المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة فى ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث

علاقتها بالبيئة ، وتأثر الانسان بها وتأثيره فيها . أى أن المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراسات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والانسان :

ان دراسة النمو الانسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب أو يتغير خلال سنوات نموه ، بل أيضا على تأثير المعطيات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الارض والجبال والوديان والانهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت . هذا بالإضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم فى النمو .

واذا حاولنا تناول الانسان وبيئته نجد أن لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والانسان كإحدى أعضاؤه هو جسم فى الفضاء يتفاعل مع المثيرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المثيرات ويتكيف معها ، أى أن البيئة تتكون من الأشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزاءات والمكافآت والتعزيزات والتعميمات التى تنجم عن الاستجابة للمثيرات المختلفة . وتختلف الآراء فى الاطار النظرى للبيئة والانسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الانسان بالبيئة فى مجال مدى توفر الفرص للانسان فى تلبية احتياجاته الاساسية . أما بياجيه (Piaget) فىرى علاقة الانسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين أساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجموند فرويد (S. Freud)

والمحافظة على هوية المجتمع وبقائه واستمراره .
ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات
الاسرية في المجتمع المعاصر ، وذكر أن المكانة
الاجتماعية للأسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير
بمهنة الاب . أما بالنسبة الى النظام التربوي
الذي أخذ يتصل بالانسان في السنوات المبكرة
من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى
الحياة) ويواجه النظام التربوي العديد من
المشاكل المتعلقة بالمنهج والأسلوب والاختيار
والتنظيم والادارة وحرية التعليم . وغير ذلك
من المشاكل . وفيما يتعلق بنظام السلطة الذي
يتكون من الجانب التشريعي والجانب التنفيذي
فانه يتميز بالبيروقراطية والمركزية في اتخاذ
القرارات على كافة المستويات ، وتزداد
مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر .
وبالنسبة الى النظام الاقتصادي فان التغيرات
التي طرأت في عمليات الانتاج والتسويق
والاستهلاك والاستثمار كان لها آثار نفسية
 واجتماعية واسعة النطاق . وأما بالنسبة الى
النظام الديني فانه يواجه مراحل تغير الى
مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف
الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها
المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقي
والحرك والتغير الاجتماعي ولاحظ أنه طرأ
تغيرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية وقلت
المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة
منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية .
وميز المؤلف بين التغير البطيء والتغير الثوري
الشامل والسريع ، وحذر من نتائج التغير
السريع في تفكك العلاقات والبناء والتنظيم
الاجتماعي .

ويخلص المؤلف الى أن الابحاث والتغيرات
الاجتماعية هي مسئولة في خبرات التنشئة
التي تؤثر في التغير في عملية النمو الانساني .

يرى أن الخبرات السارة في تفاعل الانسان مع
البيئة تظهر في الادراك الواعي ، أما الخبرات
غير السارة فتدفن في الشعور اللا ارادي ،
وكلاهما يؤثر في تكوين شخصية الانسان .
والاتجاه النظري الثالث يتصل بنظرية المثير
(Stimulus) والاستجابة (Response)
للعالم السلوكي جون واطسون (J. Watson) .
الذي يرى أن البيئة يمكن أن تصقل وتهذب
استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون
الثواب على السلوك متوافرا .

وقد أشار المؤلف الى أساسيات التفاعل
مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء أو
رقعة الارض التي يتواجد عليها كعوامل
أساسية في التأثير على سلوك الانسان ، مثل
الماوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية
من حرارة ورطوبة وانخفاض في درجة الحرارة .
ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية
والوظائف العضوية والاجتماعية للانسان .
وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططي
المدن أن مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى
ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام
(Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه
العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة
— العام (Group Public) ، (٤) القطاع
الجماعي الخاص (Group Private) ،
(٥) القطاع العائلي الخاص (Family Private)
واخيرا القطاع الفردي الخاص
(Individual Private) ، كما يرتبط
استخدام مساحات المدن بعدة عوامل
اجتماعية مثل الطبقة المتقنة ومفهومها في
الافادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال
الصناعة ورجال التجارة ، أي أن لكل جماعة
اتجاه في استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه
والعوامل التي تؤثر في ضبط وتوجيه السلوك

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف في مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية أو على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي : (١) أهمية خبرات الطفولة المبكرة وأنماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) أهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفي الادوار السلوكية في مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الاطفال أثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الامريكية مثل الذين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن (Slums) .

(٤) دور ومكانة ووظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الاطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ، الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى أخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . أما في حالة المجتمعات المعقدة المعاصرة فانه يصعب النقل للعناصر الثقافية في وحدات

متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ما تسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول أو المعياري . ويضرب المؤلف مثلا ارفض الشباب العديد من أساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبد استجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي الاجتماعي في أنماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الدكاء واللفة والابداع :

يتوقف الرضاء في التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللفة عنصرا أساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الادراكي . والقدرة على استخدام اللفة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الدكاء ، اذ ان عدم اللياقة في استخدام اللفة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تهم اللفة اولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للاطفال في المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والاطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى النطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللفة تعتبر أساسية ايضا للاطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

العديد من الاحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات في النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للمواظف وارتباطها بمواقف « الاناهو » « الانا » و « الانا الاعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على ان الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

اما بالنسبة الى الدوافع فان السبب الذي يعمل الانسان بجدية ، متحملا المشاق والتعب في سبيل الوصول الى مركز ما لا ينحصر في الخصائص الذاتية للانسان والتنشئة الاسرية فقط بل أيضا في المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث ان طبيعة الانسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فان المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير في سلوك الافراد . وعندما يتغير نمط الافراد واهدافهم ، فان هذا التغير يؤثر في المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الادوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والثقود .

(٣) النواحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الانتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية .

(٧) تأثير الحكومة المتزايد على مصير الانسان .

وبعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف الى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

ان السلوك الابداعي والخلق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة في التوصل الى الرضاء في الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض ان الابداع والدكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير انه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث تواجد الابداع في الاشخاص ذوي الدكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بدكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلاقا » .

ويضيف المؤلف ان البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس في المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، في مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين . ان الخبرات التي يكتسبها الاطفال في النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة الى مثل هذا الانفتاح والتفاعل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » المرص في المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

المواظف والدوافع والتعلم

ان النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل الى تعريف دقيق للمواظف والدوافع بالرغم من التقدم في هذه البحوث ، الا ان الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالمواظف فقد تطرق المؤلف الى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير الى ان العاطفة تتبع الحالة العضوية . اما النظرية السلوكية عند جيمز واتسون James Watson فتحدد العاطفة على اساس الامتداد والسرور والالم . وبالنسبة الى نظرية كانون - بارد Canon - Bard فانها ترسي مسؤولية المواظف على الجهاز العصبي ، على اساس ان

اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل بإحساسه وأدراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله تنمو أيضا ، وعلى الوالدين والمسؤولين في المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه فيها حياته .

وإذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد أن هناك العديد من الاوضاع التي تسبب السلوك الانحرافي والاحباط والمضايقات مما يؤدي أحيانا الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم التفاعل الايجابي يؤدي الى عدم الالتزام بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافي الفردي (الدائي) الذي يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافي وتدعيم التنشئة السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلي والخارجي متضمنا العقاب الجسمي والمعنوي بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة ، ويؤكد أهمية الضبط الذي يستخدم العقاب المعنوي لمزاياه العديدة . أما كيف يمكن للفرد استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه في التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار أسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية والثقافية والتغيرات التي تحصل في المجتمع وادخال التغيرات في أساليب التنشئة حتى تستجيب للمثيرات المستجدة في الحياة المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية في مجتمع المدينة في أمريكا خاصة أن المعارضة التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة . وأهم الأحداث التي ساهمت في إبراز المعارضة بعد الحرب العالمية الثانية أولا - مقامه مارتن لوتر كينج ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، ثانيا - المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، ثالثا -

خاص تأثير الاسرة على التحصيل وتدعيم مستوى الطموح عند الفرد ، كما اشار الى دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي في عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي في المجتمع ، والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية في المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري المعاصر بالمرونة والحرية النسبية ، والاتجاهات والثقافات المتباينة التي تؤثر في الدوافع ، وبالتالي في سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع - المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل في عملية التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع في المجتمع التي تساعد أو تثبط مصير الانسان في المجتمع المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها المؤلف في الجزء الاخير من كتابه ، وقد أخذ بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات بعض القضايا الاساسية المتضمنة في السلطة ، الاستقلالية ، القوة والصراع في المرحلة الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح هو كيف يمكن للفرد أن يتعلم استيعاب قواعد المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويحقق السلوك الاجتماعي دون أن يكون هذا السلوك مبنيًا على الخوف ؟ وبالتالي كيف يمكن لضمون ما يستوعبه الفرد أن يتغير تدريجيا وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعي بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، او تفتيت النظام الاجتماعي .

ويقترح المؤلف ان مبادئ التعلم يمكن استخدامها في فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد الاوضاع التي تتم بموجبها العملية . مثلا - في حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة

التي يواجهها الفرد في مجتمع المدينة الصعوبة في تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى ان البعض يواجه صعوبة في الانتساب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذي يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه في المجتمع الحضري لا بد أن يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجدد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقف السلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف في الفصل الاخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى في المجتمع الديموقراطي ، وي طرح التساؤل التالي : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة اوفر في المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هي الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالي لماذا يبدو ان بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والعقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد في السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس اساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمرأاة رأى واتجاه الاغلبية .

وتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضبط في المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها في مراحل نموه . ويجب أن يكون التعليم عن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

الاقصاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة في المجتمع المعاصر لها ، في حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولمواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا في تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التي تتمشى مع معطيات التغير الحضارى . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التي ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما في توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسامرة التغير واستيعابه في حياته وقيمه ومبادئه .

واما فيما يتعلق باستقلالية الفرد في مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى باستقلالية كاملة . والاستقلالية هي شىء محدود ونسبى ومتغير خلال فترة الحياة ، لانها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولان الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية اخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعى والاقتصادى والأسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للدور المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية في المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة ، كما تعرض الفرد للمواقف والضغوط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف

الا أن المؤلف في مناقشته للابعاد المشار إليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية أو قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بإبراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيراً الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتشئة والدكاء والتعلم .

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الأمريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعي والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حالياً في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

واذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في التوجيه الاسرى والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما أن هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول كيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافي والانعزالي، كما أنه اكتفى بالتنويه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعي في المجتمعات الحضرية.

للتأثير فيها أو تحقيقها جزءاً من عملية التشئة . وإذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الاسرية والتربوية . ويجب أن نقر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . وإذا اردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من أن ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . وإذا اردنا تحقيق التغير الاجتماعي والمجتمع الافضل فيجب علينا أن نغير الاهتمام الكافي للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن أن تكون ميداناً للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالها عملية النمو ذاتها .



يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانساني في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التشئة الاجتماعية والدكاء واللفة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانساني ، وهي ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسي والاجتماعي والبيولوجي .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.
2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.
3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.
4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.
5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London,
1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الاول - المجلد الثامن

ابريل - مايو - يونية - ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ليرة
السعودية	٥	ريال	المتن	٢٥٠	ملياً
البحرين	٤٠٠	فلس	النودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	لبيبا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مستط	٤٠٠	باب
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دينار
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلساً	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

العدد
٢٥٠
فلساً